٧٢ شهراً مع عبد الناصر

فتحي رضوان

يصدر أول كل شهر عن
دار الحرية
للصحافة والطباعة والنشر
٤١ شارع شريف - القاهرة
تليفون : ٧٤٧٠٠٠ - برقيًا : الحرية
المراسلات: ص.ب ١٣٧ محمد فريد - القاهرة

العدد الثانى
شوال ١٤٠٥هـ
يوليو ١٩٨٥م

٧٢ شهراً مع عبد الناصر

الطبعة الأولى
يوليو ١٩٨٥

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البسيوني

الإسكندرية

٧٢ شهرًا
مع
عبد الناصر

فتحي رضوان

تقـــديـــم

حينما نشرت هذه الفصول التى أقدمها ، فى « مجلة الفجر » التى كان الأستاذ حلمى سلام ، يرأس تحريرها فى الدوحة عاصمة قطر ، فاجأنى اقبال الناس عليها واهتمامهم بها ، ولم أخطىء فى تبين السر فى هذا الاقبال والاهتمام ، فقد كان العرب بعامة ، والمصريون بخاصة فى شوق شديد إلى معرفة كل شىء عن ثورة سنة ١٩٥٢ ، وعن الرجال الذين قاموا بها ، وعن حقائق شخصياتهم ، وخصائص اخلاقهم ، والظروف التى أحاطت بهذه الثورة ، وصلاتها بالقوى العالمية ، فقد كان ما نشر عن كل هذه الجوانب قليلاً بالنسبة لضخامة الدور الذى لعبته هذه الثورة فى حياة الوطن العربى ، واتجاهاته ، والمستقبل الذى ينتظره ، والعقبات والصعاب التى تتعقب كل خطواته وتترصد كل حركاته .

الثورة العربية الأولى :

ولم يكن فى هذا ما يدعو إلى العجب .

فثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، كانت الثورة العربية الأولى ، التى استهدفت التغيير فى الأقليم الذى قامت فيه تغييرا يتناول الأسس ، وقد نجحت فى أمرين جد خطيرين : اولهما : قيام الثورة ، ذاته والثانى : فى ثباتها واستقرارها .

أما أنها الثورة الأولى فهذه هى الحقيقة التى يؤيدها التاريخ ولا ينكرها فمنذ اندلاع الثورة العرابية فى ٩ من سبتمر سنة ١٨٨١ التى بدأت بحصار الجيش المصرى بقيادة أحمد عرابى لقصر عابدين ، مقر الخديو توفيق ، لم تقم فى الوطن العربى ، ثورة انفجرت ثم استقرت ، ثم غيرت الأمور فى الاقليم العربى الذى اندلعت فيه تغييراً اختفت له المعالم الرئيسية فى هذا الوطن .

لقد سبقت ثورة الشيشكلى فى سوريا التى اسندت زعامتها الرسمية لحسنى الزعيم ثورة ٢٣ يوليو ، ولكنها لم تلبث حتى سقطت وعادت الأمور فى سوريا سيرتها الأولى ومضت الأمور فى الوطن العربى ، على نفس الوتيرة التى كانت تجرى عليها حتى جاءت ثورة سنة ١٩٥٢ ، فكان انفجارها فى ذاته حدثا يجب على المصريين والعرب أجمعين أن يزهوا به ، ويفخروا . ذلك لأن أكبر ما كان يوصم به المجتمع العربى ، هو أن العرب يركبهم حكامهم بالهوان ، ويستبدون بأمورهم أقبح استبداد ، فينهبون أموالهم ، ويبددون مصالحهم ، ويحرمونهم من كل حرية ، ويؤخرون تقدمهم ، والشعب خائف خاضع لا يحرك أصبعاً ، ولا ينطق بحرف ، ولا يكف عن الشكوى بينه وبين نفسه ، يتلفت يمينا ويسارا ، خائفاً من أن يسمعه سامع ،ولا يعرف أن الحرية

لا ينالها الآملون فيها ، والعاشقون لها ، إلا بعد تضحية وبذل وأن الهامسين اذا اجتمع بعضهم لبعض ، ونظموا أنفسهم ، وساووا صفوفهم أصبحوا قوة لا تقاوم ، وأن الشعب الأعزل الذى يضرب ويسام الخسف ما اجتمع مرة ، إلا وكتب له الفوز ، وتحققت له الحرية .

ولذلك كان قيام ثورة ٢٣ يوليو ،واستمرارها ، فى مصر ، رداً لاعتبار المصريين والعرب ، وتعزية لهم على أنهزام ثورة عرابى ، أمام النظام الملكى المؤيد بالاستعمار الغربى .

ولم يكن انتصار ثورة ٢٣ يوليو ، بمجرد قيامها ، وتسليم جميع القوى المناهضة للثورة بها والتعامل معها ، على أساس أنها صاحبة الكلمة فى مصر ، إلى حد أن الملك حزم متاعه ، وجمع أهله وأتباعه ، ورحل عن مصر ، فى الساعة التى حددت له ، لم يتأخر دقيقة ، ونفذ جميع ما أ ر به ، بل أنه راح - يرجو ممثلى الثورة أن يأذنوا له باصطحاب السنيور « بوللى » تابعه الأيطالى الأمين ، بحجة أنه لم يباشر من أمور السياسة شيئاً ، وأنه مجرد خادم ، وقد تسابقت الدول كبيرها وصغيرها ، شرقها وغربها ، إلى الأعتراف بالثورة ، وقد كان كل هذا تكريما لمصر ، وتطهيرا لشرفها من عيوب الضعف ، وآفات العجز ، وقد مضت بعد ذلك الشهور تلو الشهور ، والسنون تلو السنون ، والثورة باقية ،وقد غيرت من أمور مصر ، أكبر أنظمتها ، ومن سماتها ، ومظاهر أقدم خصائصها .

فقد ازالت النظام الملكى ، وأنزلت الملكية الزراعية من عرشها العالى ، وطاردت النفوذ الأجنبى فى كل مجالاته :فمصرت وأممت التجارة والصناعة التى استأثر بها الأجانب ، وجعلت التعليم بجميع درجاته مجانيا ، فأقبل أبناء الطبقات الفقيرة من فلاحين وعمال ، على التعليم الجامعى ، وأصبح عشرات الألوف منهم قضاة وأساتذة جامعة وسفراء وأطباء ومحامين ، وتغيرت البنية الأجتماعية ، فقد أصبحت القمة فى المجتمع من أبناء الطوائف التى حرمت طويلاً من التعليم ومن التقدم .

هذا فى الداخل ، أما فى الخارج فقد كان أثر الثورة المصرية عميقاً وواسع النطاق ، حيث وجدت جميع حركات التحرر من الاستعمار على طول الوطن العربى وعرضه التأييد والدعم المادى والمعنوى من تلك الثورة وحكومتها ، فسقطت مراكز الاستعمار فى الجزائر وليبيا وعدن والعراق واليمن . وساد تيار التحرر والاستقلال هذا الوطن بعد نحو قرن من العبودية والتبعية فزالت القواعد الأجنبية فى السويس ، وفى الحبانية فى العراق ، وفى هويلس والعضم فى ليبيا وفى عدن . وأصبحت الوحدة العربية حقيقة بعد أن كانت مجرد حلم ، ولم يؤد سقوط الجمهورية العربية المتحدة ، وانفصال سوريا عن مصر ، إلى انحسار المد العربى ، بل ربما أدى هذا السقوط إلى تأجج الرغبة فى إقامة تلك الوحدة على أسس سليمة قوية ، رداً على المؤامرات والدسائس التى أفضت إلى سقوط أول دولة من دول الوحدة .

وقد قادت مصر الثورة حركة عالمية جديدة مع زعماء الهند ويوغسلافيا ، وهي حركة عدم الانحياز التي اقلقت الاستعمار العالمي ، وعلى رأسه الولايات المتحدة وقد ارتفع مد هذه الحركة واشتد تأثيرها .

ثورة أم انقلاب :

ازاء هذه التطورات البعيدة المدى التي غيرت وجه المجتمع العربي ، والتي أدخلت فيه العشرات من أسس الحكم وأساليب التفكير وبناء المجتمع وعلاقات مصر بالعرب وعلاقات العرب بعضهم ببعض ، وعلاقاتهم بالعالم على أوسع نطاق ، ازاء هذه التطورات كان يجب أن ينحسم النزاع حول ما إذا كان ما وقع فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، ثورة أم انقلاباً .

فالثورة هي تغيير اجتماعي يختفي فيه مجتمع بأسس تفكيره ، واتجاهاته وطموح أهله ، وهمومهم ، ويأتي بمجتمع جديد آخر باسس واتجاهات وطموح وهموم لم يعهدها أهل المجتمع المختفي .

وكان حسب حركة ٢٣ يوليو أنها أزالت الملكية فقط . لتكون ثورة . فالملكية المصرية هي أقدم الملكيات . نشأت منذ أكثر من خمسة آلاف سنة ولم تنقطع قط . فالملكيات الأوروبية كلها حديثة لم ينقض على ميلادها أكثر من ستمائة أو سبعمائة سنة . فى حين أن الملكيات اليونانية والرومانية والهندية والصينية ، أنتهت منذ قرون .

أما الملكية المصرية فقديمة قدم التاريخ الانساني ، وقد اقترنت فى بدايتها بالمعبود الخالق ، اذ اندمجت شخصية الملك بالإله ، فأصبح الإله هو الملك ، وأصبح الملك هو الإله ، ثم حدث الانفصال بين الاثنين ، فأصبح الملك ، ظل الله ثم أصبح ابنه ، ثم أصبح صوته . ولذلك كانت الملكية المصرية راسخة رسوخ العقيدة الدينية ، ولذلك أيضا كان سقوط الملك فى مصر ، وبالتالي سقوط الملكية ، حدثا هائلاً لا فى تاريخ مصر وحدها ، بل فى تاريخ الانسانية كلها ، وقد تم هذا السقوط على يد ثوار ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وقد تم بسهولة ويسر عجيبين . فالملك لم يقاوم . إذ قامت الثورة فى فجر ٢٣ يوليو وخرج الملك من مصر مع زوجه وابنه وبناته وخدمه ومجوهراته وثيابه ، فى الساعة السادسة من مساء يوم ٢٦ يوليو أى بعد أقل من ثلاثة أيام كاملة . وكان هذا أعظم استفتاء على تمثيل الثورة لآمال الشعب المصري . فقد خرج الملك بعد هذه الأيام الثلاثة ، دون أن يرفع مصري واحد يده بقصد الاعتراض فضلا عن المقاومة . حتى حرس الملك ، الذي تمرغ فى نعمه ، وحظي بشديد عطفه لم يسفك من أجله دمعة . ولم يطلق فى الهواء قذيفة . ووقف الكل يشاهدون اسدال الستار على حكمه وملكه وعهده . لا يخالط مشاعرهم إلا الأسف الإنساني على رجل بدأ حكمه محفوفا باعجاب الشعب وحبه . واستمر لسنوات

قليلة ، معقد الآمال ، ولم يكن مطلوباً منه للمحافظة على هذه المكانة إلا أقل القليل ، كان لا يطلب منه أكثر من ألا يبدو لشعبه فى مواقف لا تليق بالملك ، وألا ينقل عنه ما يعيبه فى حياته الخاصة ، وأن يطبق الحديث الشريف : « اذا بليتم فاستتروا » ولكنه للأسف الشديد جرى على تقاليد العائلة المالكة ولا سيما فى المراحل الأخيرة من حياته . هذه التقاليد التى تقضى بأن يبدأ الملك صغير السن جميل الطلعة ، قريباً من قلب الشعب ، لوطنيته ولعدائه لخصوم البلاد ثم يتقدم فى السن ، فيترهل جسمه ويتضخم ، ويزداد طمعه فى مال الشعب ، ثم يحيط نفسه ببطانة سوء ، ما يلبث سوء سلوكها وخروجها على تقاليد البلاد الخلقية والدينية أن يجعل الألسن تتناقلها ثم ينحاز الملك شيئا فشيئا لأعداء الوطن حتى يصبح عميلهم الأول ، وخادمهم الأكبر ، فينفذ أوامرهم ، ويطبق سياستهم ، وينتأى عن الشعب ، ويتنكر له ، حتى يصبح نداً للشيطان .

بدأ كذلك محمد توفيق الذى كان يجتمع مع الوطنيين وهو ولى للعهد ، ويضيق بسياسة أبيه فى الاسراف ثم تولى الحكم ، فادار ظهره لأصدقائه القدامى ، وأمر بالقبض عليهم وخضع للانجليز واحتمى بهم ، فلما ضرب الأسطول البريطانى ميناء الأسكندرية لجأ إلى هذا الأسطول وتنكر للثورة العرابية ، وأمر بمحاكمة زعمائها ، وكرههم فبقى فى قصره وحيداً لا صديق له من الوطنيين ، ولا نصير ، حتى توفى ، وجاء بعده الخديو (عباس حلمى) سنة ١٨٩٢ ، فصادق مصطفى كامل الذى كان فى مثل سنة تماما فكلاهما ولد سنة ١٨٧٤ ، وأصبح يقابل الوطنيين سراً فى مسجد القبة ، ويتامر معهم ضد الاحتلال البريطانى ، ويتصدى له ما وسعه التصدى ، ويضيق بالوزراء الذين يلوذون بالاحتلال البريطانى ويصادقون ممثله السير ايفلنج بارنج الذى أصبح فيما بعد اللورد كرومر ملك وادى النيل غير المتوج ، وتهدد عرش الخديو عباس حلمى أكثر من مرة ولكنه كان يتماسك ويتجلد ويتمسك بالصبر ، ثم مال إلى مسالمة الاحتلال الانجليزى شيئا فشيئا ، ولاسيما بعد أن انعقد بين بريطانيا وفرنسا ، ما عرف بالاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ فقد كان الخديو عظيم الأمل فى المعونة الفرنسية ، وكان يحسب أن الحركة الوطنية المصرية بزعامة مصطفى كامل ، ودعم فرنسا ، قـادرة على تحقيق الجلاء عن مصر ، فلما اتفقت فرنسا مع بريطانيا ، على ألا تقيم فرنسا العقبات والعراقيل أمام الاحتلال البريطانى ، على أن تفعل انجلترا الشيء ذاته بالنسبة للاحتلال الفرنسى للمغرب ، أحس الخديو عباس أنه أصبح وحيداً ، وأن مصر لم تعد قادرة على مقاومة الانجليز ، ففض يده من الحركة الوطنية المصرية وتنكر لها ، وقطع صلته بمصطفى كامل ، الذى أرسل إليه سنة ١٩٠٦ خطاباً مدوياً اعلن فيه الزعيم الشاب أنه قرر أن يبعد عن الخديو حتى لا يحرج مركزه مع الاحتلال الأجنبى .. وواصل الخديو تدهورد حتى بات عدواً للحركة الوطنية يعمل ضدها ويتقرب لأعداء البلاد ، حتى عزل فى بداية الحرب العالمية الأولى فى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤

وقد تم الأمر ذاته مع فاروق ولى العهد بعد وفاة أبيه فى مايو سنة ١٩٣٧ ولم يكن قد اكتمل

له سن الرشد ، فحكم مصر مجلس للوصاية برأسة الأمير محمد على باشا شقيق الخديو عباس حلمى المعزول ، ولكن رئيس الديوان الملكى على ماهر باشا لم يلبث أن استصدر من شيخ الأزهر فتوى بأن الملك يحسب عمره بالتقويم الهجرى ، فيكون قد بلغ سن الرشد . وتولى الملك . والناس شديدة الأعجاب بشبابه ووسامته . وكان موكبه وهو يذهب كل يوم جمعة إلى الصلاة فى المساجد الفقيرة فى الأحياء الشعبية ، محفوفا بآلاف من أفراد الشعب الذين يتجمعون حول سيارته تعبيرا عن الحب والوفاء ، ولكنه فعل كل ما فى وسعه ليحقق ما سبقه إليه اسلافه الذين تولوا الملك فى مثل شبابه والذين بدأوا حياتهم ملوكاً مشمولين بالرعاية والحب ، حتى بلغ الذروة حينما أحاط الانجليز فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ مقره بدباباتهم ، و اقتحموا عليه مكتبه فى قصر عابدين. بقيادة الجنرال ستودن ومعه السفير البريطانى اللورد كيليرن وفرضوا عليه رئيس وزارة بذاته . ولكنه بدأ يغير موقفه بعد هذا الحادث ، فبعد عن الشعب ، وأصبح صديقا للانجليز . فمنحوه رتبة الجنرال الفخريه فى جيشهم وأصبح يخلص لهم الود ، وينفذ ما يطلبون . وكلما اقترب منهم تورط فى مسلك شخصى غاية فى السوء ، حتى قضى آخر رمضان له فى مصر . على شاطىء جزيرة كابرى فى جنوب ايطاليا ونشرت له صحف العالم صوراً وهو فى هذا المصيف تسىء إلى سمعته ، وتطلق ألسنة الناس فيه . حتى عزلته الثورة فى مساء يوم ٢٦ من يوليه سنة ١٩٥٢ كما سبق القول .

وربما يكون الكلام عن الملك والملكية قد طال . ولكن كان ذلك واجبا . فالثورة قامت أول ما قامت ضد الملك وكان مطلبها الأول أن ينزل آخر أعضاء أسرة محمد على عن عرشه وأن ينحى كل الذين أحاطوا بهذا الملك من الساسة الذين زينوا له مسلكه ، وحببوه فى أسلوب الحكم الذى اتبعه . وربما لو رزقت مصر فى تلك الأيام ملكا أقل سوءا ، وأدنى إلى الفضيلة والعمل الصالح ، لما وجدت الثورة طريقها ممهدا ، ولما التف الناس حولها كما التفوا بالفعل .

مقالات الملك فاروق :

ولم يكد فاروق يضع قدمه فى أوروبا، حتى تلقفته أجهزة الاتصال بالجماهير ، أى الصحف ، والاذاعات المسموعة والمرئية ، لتتخذ منه بوقاً ضد الثورة .

فقد كان المعسكر الاستعمارى متمثلاً فى بريطانيا ، التى كانت جيوشها فى مصر ، عند قيام الثورة ، وعزل الملك . وكانت بريطانيا مختلفة أشد الاختلاف مع الولايات المتحدة فى أمور عديدة أهمهامصير الملك فاروق ثم مصير الملكية .

فبريطانيا كانت تعتد بخبرتها الطويلة فى حكم مصر والمنطقة العربية أى فى مصر والسودان وفلسطين والعراق وجنوب اليمن وقبرص ، بل بخبرتها الاستعمارية فى الشرق البعيد والقريب أى

الهند وبورما حتى هونج كونج ، ولذلك كانت تدلي بهذه الخبرة على الولايات المتحدة ، وترى هذه الأخيرة ، من (المحدثين) الذين لا يعرفون كيف يدار الشرقيون ، ومن هنا عارض الانجليز في خلع فاروق أولا ، وفي اسقاط الملكية ثانيا ، وقد استمر هذا الخلاف فترة طالت شهورا . فبقي النظام الملكي قائما في مصر حتى يوليه سنة ١٩٥٣ ، ففي هذا التاريخ رجحت كفة السياسة الأمريكية ، وتقرر اسقاط الملكية واعلان الجمهورية .

ولقد انتهز فاروق هذا الخلاف في المعسكر الاستعماري فشن حملةعلى الثورة ، ولكنه لم يجد نقطة ضعف في البناء الذي تولى الحكم بعد عزله إلا شخص كاتب هذه السطور . ففي أول الثورة توارى مجلس قيادة الثورة ، فلم يتول من الضباط الشبان أو زعيمهم اللواء محمد نجيب شيئا من مناصب الدولة . لم يعين منهم أحد في مناصب الوزراء ، ولم يتول رئيسهم لا الوزارة ولا غيرها ، وكان هؤلاء الشبان مجهولين لم يسمع العالم عنهم شيئاً قبل ثورتهم التي وضعتهم على رأس الحكم في أشد نقط الشرق العربي حساسية ونفاسة .

ولذلك لم يحاول فاروق الهجوم على محمد نجيب ولا على أعضاء مجلس قيادة الثورة الشبان ، وكنت السياسي المدني الوحيد ، وكان فاروق يعلم شيئا عن حياتي السياسية أثناء وجوده على العرش ، وكان السفراء الانجليز والأمريكان ، يحبون أن ينظروا إلى بوصفي شيوعياً ، وقد اثبتت المراسلات المتبادلة بين هؤلاء السفراء ووزارات الخارجية في لندن وفي واشنطن ، أنهم كانوا لا يدخرون وسعاً في اثبات لوني الشيوعي المزعوم . وقد أعانهم على ذلك أنني اخترت عضوا في مجلس السلام العالمي الذي انعقد في وارسو قبل قيام الثورة مباشرة ، ولم يغير في موقف الاستعمار ، أنني اخترت لهذه العضوية بدون الرجوع الى أو أخذ رأيي ، أو مجرد اخطاري ، هذا فضلا عن أنني لم أحضر جلسة واحدة من جلسات هذا المؤتمر .

والدوائر الاستعمارية في انجلترا والولايات المتحدة وكل غرب أوربا جد حساسة لكل من تعاون مع الاتحاد السوفيتي قبل ثورة سنة ١٩٥٢ ، لشدة خوفهم من زحف التيار الشيوعي المستمر ، فأحسنوا استغلال هذه الملابسات التي اتصلت بي ، بلا عمل ولا سعي ولا نشاط من جانبي ، في تعليقاتهم عقب اختياري وزيراً في الوزارة التي شكلت في ٧ سبتمبر سنة ١٩٥٢ بعد قيام الثورة بشهرين ، واعلنوا بأعلى الصوت ، وفي كل مكان أن في صفوف زعماء الثورة شيوعيا هو فتحي رضوان ، وتلقف الملك فاروق هذه الدعوى، واتفق مع صحفي بريطاني شهير من المحافظين ، يدعى (دارد برايس) ، على أن يكتب سلسلة من أربع حلقات ضد الثورة ، حشاها بحملة ضدي ، وسيرى القارىء تفصيل هذه الحملة في الفصول التي يتكون منها هذا الكتاب .

ولكنى اكتفيت بالاشارة اليها ، لتوضيح موقف الملك فاروق من الثورة ، وكيف أن سوء سمعته ، فى العالم ، أعان الثورة على تشديد قبضتها على البلاد ، وتثبيت قدمها فى الحكم .

الثورة ثورة :

يبدو أننى فتحت قوساً كبيراً ، طال فيه استطرادى ، فى موضوع هل ما حدث فى ٢٣ يوليو كان ثورة أم انقلاباً ؟ .

وأحسب أنه بعد هذا الذى سقته فى هذا الموضوع ، لم يعد ثمة شك فى أن ما جرى فى ذلك اليوم كان ثورة ، بكل ما فى هذه الكلمة من معنى لأن الانقلاب ، هو عمل مادى بحت يتغير به شخص الحاكم ، فيذهب حاكم ويأتى حاكم غيره ، دون أن يتغير شىء فى نظام الحكم أو فى أسسه ، فانقلابات أمريكا الوسطى ، التى يقوم بها ضابط كبير أو صغير ، ضد الحاكم القائم أو (الجنتا) الحاكمة أى الجماعة العسكرية الحاكمة ، لا تسمى ثورات . لأن التغيير المترتب على الانقلاب يكاد يكون معدوماً ويبقى كل شىء فى البلاد التى شهدت الانقلاب كما هو .

أما ما حدث فى مصر بعد ٢٣ يوليه ، فيعد تغييرا شاملاً ، لم يدع شيئا إلا غيره ، ولم يغير الهياكل الخارجية ، والمظاهر فقط ، ولم يغير الأسماء فقط ، بل غير الجوهر تماماً .

والذين لا يوافقون على التغيير الذى تم..من حقهم أن ينقدوه بل من حقهم أن يرفضوه ويستنكروه ، ومن حقهم أن يثبتوا أن مصر كانت أحسن حالاً قبل الثورة ، فكل هذا لا ينفى أن ما حدث هو ثورة ، إذ لا يكفى أن يقع فى بلد ما ثورة ، حتى ينصلح حالها ، وينقلب الفساد خيرا ، والجوع شبعاً ، والاضطرابات نظاماً . فقد تفشل الثورة فى تحقيق أهدافها ولكنها تبقى ثورة . كذلك قد يبقى الانقلاب ويستمر ويحقق أهدافه ولكنه لا ينقلب بذلك إلى ثورة .

تماماً كما لو رزق انسان بنتاً ، وكان يتمنى أن يكون له ابن ذكر ، ومع ذلك فإن هذا الولد ، ولد عليلاً كثير الأمراض ، ولم ينجح لا فى تعليمه ولا فى حياته العملية ، ولكنه يبقى ذكراً . وقد يرزق الرجل نفسه بنت صحيحة البدن ، ذكية ، تنجح فى المدرسة وبعد المدرسة ، ولكنها مع ذلك تبقى بنتا . فالثورة والانقلاب جنسان مختلفان فى الطبيعة ، بغض النظر عن النجاح والفشل .

محمد نجيب :

وقد كان من أبرز سمات ثورة ٢٣ يوليو ، أنها كانت مجموعة من الشباب لم يبلغ أى منهم الأربعين من عمره ، ولكن كان على رأسهم رجل مكتمل الرجولة ، فى رتبة اللواء ، وهى أعلى رتب الجيش حتى سنة ١٩٥٥ . فلم يتجاوزها طوال زمن الاحتلال والزمن الملكى ، أحد سوى

ضابط واحد ، قضى أكثر عمره فى وظائف الشرطة ، هو الفريق محمد حيدر مدير مصلحة السجون ، وياور الملك .

وقد كان محمد نجيب منذ اللحظة الأولى للثورة علامة استفهام كبيرة ، وقد بقى هكذا حتى توفاه الله سنة ١٩٨٤ وقد تجاوز الثمانين من عمره ، وقرب من التسعين .

كان محمد نجيب ضابطا حسن السمعة شجاعاً ، امتاز دون أكثر زملائه ، برفضه الخضوع والاذعان لا للملك فاروق ، ولا الحاشية العسكرية و المدنية . وكانت له مواقف مذكورة من ضابط الملك ، الفريق محمد حيدر باشا الذى سبقت الأشارة اليه .

وقد شارك محمد نجيب فى حرب سنة ١٩٤٨ ضد ليهود فى فلسطين ، فابلى بلاءً حسنا ، وأصيب ثلاث مرات احداها كانت فى الصدر فوق القلب ، ولذلك كادت تكون اصابة قاتلة .

وكان فوق ذلك موظفا عف اليد ، لم يطمع قط فى المال العام ولم يأخذ منه مليماً واحداً .

ولذلك وقع اختيار الضباط الشبان عليه منذ اللحظة الأولى ، فكان اختياراً موفقاً ، فقد اثبتت الأيام بعد ذلك أنه كان يتمتع إلى جانب شجاعته الفائقة ، ونزاهته الكاملة ، بجاذبية لا تقاوم . ولذلك ما كاد يقع نظر الشعب عليه وهو يلوح بقبعته العسكرية ، حتى تعلق به ، ووقع فى حبه . فأصبح يجرى فى أعقاب مواكبه ، وهو منجذب اليه ، مشدود إلى شخصيته ، يود أن يلمسه ، أو يقبله أو يعانقه لو استطاع وقد امتحن محمد نجيب امتحانا عسيراً ذلك أنه ورث الزعامة الشعبية عن زعيم أحبه المصريون غاية الحب ، وتغنوا باسمه فى المظاهرات والاحتفالات ، ذلك هو مصطفى النحاس باشا .

وقد كان الظن أن الزعيم الجديد سيبقى بعيداً عن قلب الشعب ، وفاء من الشعب لزعيمه القديم ، ولكن الذى حدث أن الزعيم الجديد أنسى الشعب حبيبه القديم بلا أدنى جهد ، فمحمد نجيب ، لم يبذل جهداً ليغزو قلب الأمة ، وليحتل فى هذا القلب مكان البطل الأول المحبوب ، فمن اللحظة الأولى ، تعلم الناس ، كيف يرددون اسمه ، وكيف يشترون صوره ، وكيف يرفعون هذه الصور فى المظاهرات والمواكب وكيف يلصقونها فى الدور والأماكن العامة .

وقد كانت له خاصية تميز بها وتفوق على سلفه ، تلك هى حب الأطفال الشديد له ، فما من اجتماع عام إلا جاءت إليه الأمهات ومعهن أطفالهن حتى تحلق الأطفال حول محمد نجيب ، يتعلقون به ، ويتسلقون اكتافه ، ويقبلونه ، وهو يحملهم فوق ذراعيه مثنى وثلاث ورباع ويقبلهم ويعودون إلى أمهاتهم وهم يتسابقون فى منظر جميل كأنهم الحمائم البيض . وجاء حب الأمهات بعد حب الأطفال ، فقد كن يقتربن من الزعيم الجديد ويقدمن له (الأوتوجرافات)

ليوقع لهن باسمه ، فلا يمل ولا يتعب ويوقع المئات فى هذه الدفاتر ، وهو راض ومبتسم ، يوزع دعاباته ، التى تضحك وتزيد من حب الناس له ، وتعلقهم به .

وقد كانت لهذا الزعيم الجديد خاصية جديدة هى أن الاشاعة ، صنعت له نسباً فقد قيل أن امه سودانية ، أو نوبية ، وأعان على رواج هذه الاشاعة ، أن طريقته فى نطق اللفظ العربى شبيهة بالنطق السودانى أو النوبى ولعل مرد ذلك أن والده وخاله وربما عمه أيضا - قد كانوا ضباطاً فى الجيش المصرى بالسودان ، وأنهم ماتوا ودفنوا هناك . فتطبع بطبعهم ، وحاكاهم من حيث لايدرى بنطقهم . ولذلك أحبه أهل النوبة والسودانيون حباً شديداً وصدق بعضهم أن امه سودانية مع أنه كما قلت مصرى ولد فى قرية النجارية مركز كفر الزيات من أعمال محافظة الغربية ولكن محمد نجيب - وإن كان مصريا - قد أتاحت له نشأته فى السودان وتعلمه فى مدارسه ، فرصة التعرف على عدد كبير من رجالات السودان فى مقدمتهم عبد الرحمن المهدى باشا كما كان الفريق إبراهيم عبود زعيم الثورة السودانية التى أزال حكومتها جعفر النميرى سنة ١٩٦٩ - كان زميله فى المدرسة الحربية ، وفى فرقة الملاكمة بها .

وقد ثار جدل حول ما اذا كان محمد نجيب قد شارك فى تأليف جماعة الضباط الأحرار قبل الثورة أم أنه كان فى بيته فى الوقت الذى كانت فيه الثورة ، تبدأ أولى وقائعها بالنزول من معسكر الهاكستب ، لتحاصر مقر القيادة العامة فى كوبرى القبة ، أم أنه كان مشاركا بالاعداد والتنظيم والتوجيه لهذه الأحداث الأولى .

والثابت فى هذا الصدد أن الضباط الأحرار تعرفوا على محمد نجيب ، وأحبوه ، ومنحوه ثقتهم قبل قيام الثورة . عرفوه عن طريق الصاغ عبد الحكيم عامر الذى كان أركان حرب اللواء الذى كان الأميرالاى محمد نجيب يقوده ، وقد أبلغ عبد الحكيم عامر زميله وصديقه جمال عبد الناصر باسم محمد نجيب ، وحدثه عن مزاياه ، وكل منهما فى خنادق القتال فى فلسطين . فلما انتهت الحرب ، وعاد الضباط إلى بيوتهم عرف بقية الضباط الأحرار محمد نجيب ، واعتبروه واحداً منهم . دون أن يشركوه فى اجتماعاتهم ، أو يسمعوا رأيه فى مداولاتهم ، وهو بلا شك كان فى بيته المتواضع جداً الذى لا يبعد كثيراً عن مقر القيادة العامة للجيش فى كوبرى القبة عندما كانت أولى عجلات (الطابور الميكانيكى) الذى خرج من الهاكستب وعلى رأسه بطل يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ المقدم يوسف منصور صديق ، الذى يذكرنى دائما ببطل الثورة العرابية الأميرالاى (محمد عبيد) ، الذى ينتسب إلى نفس المركز الذى ولد فى أرضه محمد نجيب - مركز كفر الزيات .

ولكن لم يبق محمد نجيب فى بيته اتقاءً للمسئولية ، ولا خوفا منها ، إنما هكذا طلب منه ، وحينا أخبروه بأن الضباط الشبان وصلوا مقر القيادة العامة ، وأنهم يطلبونه ، ليتولى القيادة ، لم

تكن الثورة قد نجحت ، ولم تكن المخاطر قد انتهت ، بل ان هذا هو بدء المخاطر والمتاعب ، فلو قررت حكومة فاروق المقاومة ، وأمرت قواتها بمحاصرة هذا المقر ، لاعتبر محمد نجيب قائد فتنة عسكرية ، ولضرب بالرصاص ، ولو مضت على الثورة أيام أو أسابيع . فقبول محمد نجيب تزعم الثورة فى هذه الليلة وذهابه إلى مقر القيادة ، كان مجازفة تدل على شجاعته الكبرى وإيمانه بالثورة .

وبانضمامه إلى هؤلاء الشبان ، وضع رأسه على كفه ، وجازف بحياته وعمره ، ومنذ هذه اللحظة أصبح قائد الحركة أو أكبر المسئولين عن أعمالها . وقد حاولت وزارة نجيب الهلالى آخر الوزارات المدنية قبل الثورة أن تدخل مع محمد نجيب فى محادثات أو مفاوضات ، ولكن كان ذلك محاولة متأخرة جداً . فالثورة بدأت عجلاتها تسير ، وكان أعضاء هذه الجماعة الشابة قد أحدوا عزل الملك . ولم يدر بخلد أحد منهم ، ولا من الذين أنضموا إليهم ، فى الساعات المبكرة مدى الأخطار التى يمكن أن تترصد خطاه فى أيه لحظة ، تنتكس فيها الثورة وما أكثر انتكاسات الثورات .

جيلان يتصارعان :

لم يكن ممكنا أن يبقى محمد نجيب على رأس قيادة الثورة ، فقد كان الفارق فى السن غير قليل ، شباب فى حدود الثلاثين مع رجل أو شيخ فى حدود الخمسين ولم يكن من مواهب محمد نجيب أن يحاول استمالة الشبان نحوه أو أن يوقع بينهم ليقسمهم ، ويبقى على رأسهم أو على رأس الأغلبية . وكان أحساسهم بأنهم تفضلوا عليه باسناد الزعامة إليه ، صحيح أنهم فى البداية كانوا فرحين بحب الشعب له ، وتعلق الجماهير به ، لأن ذلك الحب كان شهادة لهم بحسن الاختيار ، وكانوا يرون فى مظاهر التأييد الجارفة للزعيم الذى اختاروه ، دليلاً على نجاح ثورتهم ، واستقرارها ، وعلى أن المنافسة بين الثورة وخصومها ، قد حسمت لصالح الثورة ، بهذه الشعبية الضخمة التى ظفر بها محمد نجيب . وقد سمعت أكثر من عضو من الضباط الأحرار يعبر عن حبه لنجيب ، بل ذهب بعضهم إلى القول بأنه يحبه أكثر من أبيه . ولكن هذا التضامن بين عنصرى القيادة ، وحسن العلاقة بين هذين العنصرين لم يلبث حتى هزته الأحداث هزاً شديداً ، فقد نجح عدد من الضباط الشبان فى مختلف الأسلحة فى التعبير عن سخطهم لاستئثار أعضاء مجلس القيادة بالسلطة ، دون أن يبدو عليهم أنهم سيعيدون الحرية النيابية ولو بعد حين .

وفى هذا الوقت نفسه أحس محمد نجيب أنه يبعد عن السلطة الحقيقية وقد سمعته ذات يوم فى أحد اجتماعات الصلح التى لم تكن تسفر عن شىء ،يقرأ تعليقا لاحدى الجرائد الانجليزية لعلها (جريدة التايمز) تقول فيه ان محمد نجيب أخذ فى الذبول ، وقال اللفظ الذى استعملته الجريدة ولكن كل محاولة صلح كانت غير مجدية ، لأن أسباب الخلاف بين العنصرين لا سبيل إلى تجاهلها

ولا إلى معالجتها . فمحمد نجيب مال فى مارس سنة ١٩٥٤ إلى خصوم الثورة ، فخشى الشبان أن يعاود محاولته فى وقت لاحق .

وكان ممثلو النظام القديم قد تبينوا اتجاهات الثوار الشبان على وجه قاطع فأدركوا أن ليس لهم ولا لنظامهم القديم بقاء مع هؤلاء الشبان . فزادوا من انحيازهم لمحمد نجيب ، والنظر اليه بوصفه رمز الحرية النيابية ، وتعدد الأحزاب ، فوسعوا شقة الخلاف بينه وبين جيل الشبان ، فكان لابد أن يختفى ، ولم يكن عنده – كما سبق القول – من وسائل المناورة ما يؤخر هذه النتيجة ، فضلا عن بساطته وصراحته وعدم وجود أنصار له فى الجيش يسندونه ، أو يخيفون أعداءه ، أما حب الشعب له وتعلق الجماهير بشخصه، فلم يكن قوة يعتد بها ، لأنها قوة غير منظمة ، من جهة ، وغير مستعدة للنضال والقتال ، وكان أسلوبه يعين على خسارة المعركة لا كسبها ، فقد كان دائم التنقل بين وحدات الجيش ، وأماكن تجمع الجماهير . دون أن يستقر فى مكتبه ، ليتابع تطورات الأمور ، ويحسن الاتصال بذوى المكانة أو التأثير والاستماع اليهم ، ووضع خطة عمل من أى نوع .

لذلك كان مصيره قد تقرر ، وكان عليه أن يتحمل آلام السقوط الرهيب ، الذى طال وقد زاد من هول هذا العذاب ، أن محمد نجيب لم يقبل التسليم بهذه النتيجة القاسية ، ولم يفقد الأمل فى إمكان تغييرها حتى وافاه الأجل المحتوم فمضى معترفاً من التاريخ بفضله وبمزاياه الثلاث شجاعته ، ونزاهته ، وجاذبيته .

مع أعضاء مجلس قيادة الثورة وجها لوجه :

حينما دعيت لأقابل أعضاء مجلس القيادة مجتمعين فى ظهر يوم أحد – بعد أن قابلت عبد الحكيم عامر وجمال سالم منفردين ، جلست فى حجرة انتظار بمجلس القيادة فى كوبرى القبة ، وأنا أتأمل فى تطور الأحداث ، وسرعة تتابعها ، وفى أنى لا أعرف من هؤلاء الشبان أحداً غير (أنور السادات) ، الذى تردد على مكتبى أكثر من مرة ، وكان فى إحدى هذه المرات ، هارباً من وجه البوليس والذى رأيته بعد ذلك فى قفص الاتهام ، والذى لا أنسى قفزته من هذا القفص ، بعد أن فرغت من مرافعتى فى قضية أمين عثمان باشا التى اتهم فيها أنور السادات ، بالتحريض على قتل هذا الوزير الوفدى . وفيما أنا أدير هذه الذكريات فى رأسى ، اذ بشاب يرتدى ملابس طيار يقف أمامى ويحيينى بحرارة ، ذكر لى اسمه وذكرنى بأنه حضر اجتماعاً من اجتماعات حزبنا (الحزب الوطنى القديم) ، وأننا ذهبنا سويا بعد الاجتماع إلى دار جريدة الأخبار . استمعت لكل هذا ولم أكن أدرى أنه أحد أعضاء مجلس القيادة ، حتى دخلت إلى الحجرة التى اجتمع فيها أعضاء هذا المجلس . ففوجئت بهذا الشاب جالساً مع زملائه أعضاء

المجلس وأنه عبد اللطيف البغدادى ، وفوجئت بعضو ثالث كان زميلى فى المدرسة الثانوية ببنى سويف هو يوسف منصور صديق . وبذلك يكون من أعرفهم من صناع الثورة ، ثلاثة هم أنور السادات وعبد اللطيف بغدادى ثم يوسف منصور صديق .

ولكن حين اكتمل عقد المجلس ورأيت نفسى بينهم ، ورأيتهم جالسين مستعدين لسماع كلامى ، أحسست بسعادة عميقة فأنا مع الشبان الذين صنعوا الثورة ، شبان صغار ، لا يكفون عن مداعبة بعضهم بعضا ، فتفيض وجوههم بشراً ، وتعلو هذه الوجوه اشراقة الشباب ، والفرح بالنجاح ، والثقة بالنفس . وقد ذكرونى بالشباب الذى كان يؤلف اجتماعات الحزب الوطنى الجديد ، واجتماعات مصر الفتاة من قبل ، لقد سمعونا سنوات كادت تكمل العشرين عاماً من سنة ١٩٣٣ حتى سنة ١٩٥٢ ، وماكنا نظنه كلاماً يذهب فى الهواء ، ثبت أنه أثمر ، فهؤلاء الشبان صدقوه ، وقرروا أن يحولوه إلى واقع ، وحقيقة ، وفعلا تم ذلك لهم . وحينما وصلوا إلى السلطة ، وواتت لهم الأمور ، وأصبحوا سادة أنفسهم ، طلبوا منا أن نواصل الكلام معهم . ويومها شعرت بأن هذا الاجتماع يجب أن يسجل فهو صفحة من صفحات التاريخ الحديث . انتهى العهد القديم . انتهى عهد الخديو والملك ، وعهد البكوات والباشوات ، وعهد الكبار ، والفلاح المغلوب على أمره الذى يجد كسرة الخبز بشق النفس ، والعامل الذى لا يسمع له رأى فى شأن من شؤونه هو أو شؤون وطنه .

حضر اعضاء مجلس قيادة الثورة جميعا إلا اثنين : محمد نجيب لأنه لم يكن يسمح له بعد بحضور اجتماعات مجلس القيادة ، وجمال سالم الذى كان يعتبر نفسه أكبر من أن يحضر اجتماعاً سيتكلم فيه مدنى ، ومع ذلك فقد تحسنت فيما بعد علاقتى به ، وأصبحنا نجتمع سوياً كثيراً ، ونتكلم طويلا ، ونضحك من أعماق القلوب .

وفى هذا الاجتماع حدث شىء يجب أن يسجل لأنه أصبح ذا دلالة فى قابل الأيام . فقد داعب أكثر الحاضرين ، ولاسيما كمال الدين حسين وصلاح سالم ، زميلهم أنور السادات ، مداعبات ثقيلة ، وعجبت أن أنور السادات قد احتملها فى حضورى ، فلم يبد عليه غضب ولا احتجاج ، ولم يتوقفوا عن هذا المسلك غير المفهوم حتى شغلهم الكلام الذى تبادلناه .

اسمان سقطا :

فى تاريخ ثورة سنة ١٩٥٢ اثنان أحدهما يذكر أحيانا ، ولكن دون أن يظفر صاحبه بما يستحق من الاجلال والتقديم ، وقد حاولت أن أرد اليه بعض حقه ولكنى أعتبر نفسى أنى لم أنجح تماما فيما قصدته .

أما الثانى فهو انسان غريب حقا. عرف بين الذين احتكوا بالثورة وعانوا منها . او احتكوا بها

ولم يخاصموها ولم تخاصمهم ، ومع ذلك لا يقف أمامه المؤرخون ، ولايحكمون ضده ، ولا يحكمون لصالحه كما فعلوا مع أشباهه الذين كانوا من أصحاب الأدوار التى تتم فى الخفاء ولايقع عليها النور ، ولا أقول الأدوار الثانوية ، لأن دوره كان خطيرا إلى أبعد الحدود .

أما الأول فهو المقدم يوسف منصور صديق ، الذى لولا خطأ وقع فيه فى صبيحة يوم ٢٣ يوليو بالذات لوئدت الثورة فى مهدها ، ولتعرض كل زعمائها أو على الأقل أكثرهم للموت .

وأما الثانى فهو حمزة البسيونى الذى وصل إلى رتبة اللواء ، والذى اسند اليه منصب مدير السجون الحربية ، والذى نسب اليه من الأعمال أو قل من الجرائم ، مايرفضه الشيطان ذاته . ومع ذلك لم يظفر من الشهرة وذيوع الاسم مثلما ظفر زميله صلاح نصر مدير المخابرات

وقد أبت الصدفة إلا أن تجعلنى قريبا من الاثنين عرفتهما قبل الثورة كثيرا ، ورأيتهما فى الحياة العادية ، ورأيتهما بعد الثورة ، وسمعتهما يتكلمان ، ورأيتهما يعترفان ،ومع ذلك بقيت علاقتى بكليهما من الظاهر ، فلم ادخل فى حياتهما بالقدر الذى يجعلنى صديقا وقد تأملت فى كليهما ، وووددت أن ارسم لكليهما صورة حتى يبقى ما أكتبه مرجعا لمن يريد أن يكتب عن هذه الثورة الكبيرة كتابة فيها تجرد واستقصاء .

أما يوسف منصور صديق ، فبطل بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، انضم إلى الضباط الأحرار ، وآمن برسالتهم ، وشاءت الظروف أن ينفرد وحده بدور حاسم فى الثورة ، تعرض فيه للموت أو الخطر الجسيم وهو يقوم به ، والثورة بعد لم تستقبل نور الحياة ، ولم يصدر القدر حكمه فى شأنها : تبقى أم تطوى صفحتها ، وتنكس رايتها .

ومع أنه قد أدى دوره ، واحتمل عبئه ، واجتاز بالثورة مرحلة الخطر فإن بقاءه بين زملائه ، لم يطل يستمتع بالسلطة ويتذوق لذائذ الشهرة ، وصعد فى مراقى المجد ، كما صعد أخوانه وزملاؤه الذين لم يبذلوا بذله ، ولم يجاهدوا جهاده بل كان بعضهم أبعد ما يكون من الخطر ، يتلهى فى مكان للتسرية وازجاء الفراغ ، أو فى خارج القاهرة كلها ، بعيداً بمئات أو ربما بآلاف من الكيلو مترات ينتظر الأنباء بقلق ، ولكنه مع ذلك آمن على حياته .

كان على يوسف منصور صديق أن يقود طابوراً (ميكانيكيا) من معسكر للجيش فى الصحراء ، كان اسمه (الهاكستب) وهو اسم امريكى اطلقته قيادة القوات التابعة للولايات المتحدة اثناء الحرب العالمية الثانية التى استمرت من سبتمبر سنة ١٩٣٩ حتى مايو سنة ١٩٤٥ وكانت ساعة الصفر المتفق عليها هى الساعة الواحدة من صباح يوم ٢٣ يوليو ، ولكن لأمر ما ، تصور المقدم يوسف منصور أن الساعة الثانية عشرة هى الساعة الموعودة ، فحرك قواته ، فى اتجاه ضاحية هليوبوليس مصر الجديدة حيث يوجد مقر قيادة الجيش الملكى فى كوبرى القبة

وكان سر الثورة قد كشف بملابسة بسيطة ، ولكنها أدت إلى هذا الذى كان يمكن أن يقضى على الثورة تماماً . فقد اجتمع فى عائلة واحدة ضابطان . احداهما مع الثورة والثانى ضدها أما الضابط الذى انضم إلى الثورة فقد كتم السر ولم يذعه إلا أنه قبيل ساعة الصفر ارتدى ثيابه الرسمية ، وترك داره ، فتساءلت أمه عن سبب تركه الدار فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، ولم تكن تلك عادته ، فسألته إلى أين هو ذاهب ، فقال لها ، لمهمة طارئة ، فسكتت ، ولكن لم يلبث حتى جاء أبنها الأكبر ، فى ملابسه المدنية ، ليرى أمه وأخاه ، فلم يجد الأخ الضابط فسأل عنه ، فأجابته امه بما سمعت من ابنها ، فشرد ذهن أخيه ، وعرف فى الحال ، ان هذه المهمة الطارئة التى تعلل بها شقيقه لا يمكن أن تكون إلا عملا ثورياً مخالفا للتعليمات ، لأن خروج ضابط من داره فى الليل المتأخر وبملابسه الرسمية لا يمكن أن يكون لعمل رسمى ، والا لعرف فهو ضابط مثل أخيه ، والحالة فى الجيش وفى البلد عادية وهادئة . فأسرع الضابط إلى رؤسائه ، ولأن الوقت كان صيفا ، فكل القادة فى الأسكندرية ، فقد اتصل بمقر القائد العام ، وفى الحال اتصل القائد العام بأعوانه فى القاهرة وفى الأسكندرية وأمرهم أن يجمعوا فى مقر القيادة ، وأن يتصلوا بمعاونيهم ، ليذهبوا إلى مكاتبهم فى المعسكرات المختلفة ، ويراقبوا الأحوال . ويتخذوا الاجراءات التى يستدعيها الموقف . ولو تأخر (الطابور الميكانيكى) الذى كلف يوسف صديق بقيادته حتى ساعة الصفر أى الساعة الواحدة لسبق المعسكر الملكى إلى المواقع الرسمية التى تمكن من قطع الطريق على الثوار ولكن رحمه الله ، وقوع يوسف صديق فى خطأ ، جعله يعجل بالذهاب إلى مقر القيادة العامة حيث اجتمع كل القادة الرسميين ، ولم يكن الوقت قد اتسع لهم بعد ليصدروا الأوامر ويستدعوا رؤساء الفرق والوحدات ، وهناك فوجىء القادة بالطابور الميكانيكى يحاصرهم ، وعلى رأس هذا الطابور بطلنا يوسف صديق .

وكان اجتماع هؤلاء القادة خدمة جليلة للثوار فقد سقطوا فى قبضة الثورة دفعة واحدة ، ولو لم يحدث هذا لكان على الثوار أن يطوفوا ببيوت أو مكاتب هؤلاء الضباط الكبار واحداً واحداً ، وهذا يكلفهم جهداً وربما يعرضهم للخطر اذ كان من المحتمل أن الدولة تكون قد تنبهت لقيام الثورة واتخذت ما يلزم لمواجهتها ، ولذلك كان العمل الذى قام به يوسف صديق عظيماً ، ولكن هذا العمل لم يقف عند هذا الحد فقد هاجم يوسف مقر القيادة ، فقاوم جندى على الباب ، واقتحم يوسف المدخل ، وسقط الجندى قتيلا ، وجرح على ما أذكر آخر ، وصعد يوسف إلى الدور الأول حيث كان القادة مجتمعين ، فألقى القبض عليهم جميعا ، وأودعهم بعد ذلك فى أماكن تابعة للقوات المسلحة ، تحت حراسة كافية . وبذلك سقطت الدولة الملكية بعد هذا الهجوم المظفر . حيث آلت الأسلحة المختلفة إلى القيادة الثورية ، وبهذا حرمت هذه الدولة من حماية الجيش .

ولكن يوسف صديق كان يسارياً شديد الانحياز لليسار ، لذلك لم يكن ممكنا أن يتفق

مع عبد الناصر وأخوانه ، ولما وقعت حوادث مارس سنه ١٩٥٤ ، كان يوسف مع الداعين إلى إعادة الديموقراطية وقد كتب مقالا نشر فى جريدة الجمهورية دعا فيه إلى تأليف وزارة محايدة برياسة المستشار وحيد فكرى رأفت . واشتد الخلاف بين يوسف وباقى الضباط الأحرار ، مما استدعى اعتقاله فى اسوان ،وتم اسناد وظيفة له فى سويسرا على سبيل الابعاد ، ولما استقر الأمر لعبد الناصر أطلق سراح يوسف ، وبقى بعيدا عن الحياة العامة حتى توفاه الله منذ نحو ثلاثة أعوام . هذا هو صاحب الاسم الأول .

أما صاحب الاسم الثانى فهو حمزة البسيونى . الذى عرفته شابا صغيراً عندما كان طالبا فى جامعة القاهرة قبل أن يتحول إلى الكلية الحربية وكان منتسبا إلى مصر الفتاة ، وزميلا ملازما لاثنين ، لايفترق عنهما هما عبد العزيز الشوربجى نقيب المحامين فيما بعد ، وعبد الوهاب حسنى الذى لعب دوراً ظاهراً فى حركات الشباب ، فى الفترة السابقة على توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ وما بعدها ، والذى كان نموذجا للشاب الفياض بالحيوية ، والقادر على مزج الدعابة بالجد ، والعنف باللطف .

ولما بدأت أحاديث وقصص التعذيب فى عهد الثورة تتصاعد وتتكاثر ، أخذ اسم حمزة البسيونى يتردد على سمعى ، فكنت اسمعه ، دون أن اتوقف أمامه . ولو للحظة ، إذ لم يخطر على بالى قط أن حمزة البسيونى الذى يذكر الناس اسمه مقرونا بقصص التعذيب يمكن أن يكون حمزة البسيونى الذى كنت أعرفه ، وتصورت أن بطل القصص التى تروى ، شخص آخر غير حمزة الذى أعرفه جيدا وأن الأمر لا يعدو أن يكون تشابها فى الأسماء .

فقد كان حمزة البسيونى الذى أعرفه انسانا جميل الطلعة ، يبلغ من البساطة والطيبة ، حد السذاجة ، وكان يشارك فى مظاهرات الجامعة ، ويتصدى للبوليس بشجاعة ، وفى مرة رأيته فى حديقة الجامعة حافى القدمين يحمل فى يده خرطوم الماء الضخم ، و يصوبه إلى رجال الشرطة وهم يفرون أمامه ، وهو سعيد بهذه المطاردة كأنه طفل غرير .

ثم حدث ظرف جعل حمزة البسيونى الذى أصبح ضابطاً صغيراً فى الجيش يتردد على مكتبى ، اذ اتهم بقتل زميل له خطأ فى شقة كان يستأجرها مع اثنين من زملائه الشبان العزاب ، فقد أقام الشبان الثلاثة وآخرون من زملائهم حفلة فى احدى المناسبات ، وأخذ حمزة يطارد زملاءه بمسدس كان يظنه فارغا ، وانطلقت منه رصاصة خطأ وأصابت أحد الضباط الذى توفى فى الحال وأقام أهل المجنى عليه دعوى ضد حمزة ، فطلب منى أن أحضر عنه فيها ، فلبيت طلبه وطال أمد هذه القضية لسنوات ، فكان يتردد على فى مكتبى ، وفى كل مرة أزداد ايمانا بأنه مثال البساطة والسذاجة ، وأحيانا كان يزورنى والده ، الذى كان من رجال القضاء الشرعى ، وكان يطيب لى التحدث معه، فقد كان وجهه ، يفيض سماحة ولطفاً ، فضلا عن جماله وحسن

قسماته . وانصرف ذهني عن موضوع حمزة البسيونى الذى اسمع عنه أموراً تكاد لا تصدق ، حتى كنت ذات يوم فى محطة مصر ، لأستقل القطار إلى الأسكندرية وكنت وقتها وزيرا للمواصلات ، فإذا بضابط ضخم فى رتبة اللواء يعترض طريقى ، ويحيينى تحية عسكرية بحماسة شديدة ، فرددت التحية ، دون أن التفت كثيرا إلى وجهه لاعتقادى أنه أحد الضباط عرفنى ، فحيانى إلا أن هذا الضابط مد يده مصافحاً ، ووجه إلى الكلام سائلا عن صحتى ، فنبهنى صوته إلى شخصه ، فنظرت إليه فإذا هو حمزة البسيونى الذى أعرفه ، وقد تغيرت ملامحه ، فقد امتلأ جسمه وترهل ، وأصبح شاربه كثا غليظا ، ودب الشيب فى شعر رأسه ، فسألته : أين أنت الآن ياحمزة . فبدت عليه الدهشة أوقل الارتباك الذى لم ألحظه . وقال باقتضاب:فى الجيش يافندم . فتبادلت معه جملا مما يقوله الناس فى هذه المناسبات ومضيت لألحق بالقطار . ولما أخذت مكانى فى عربة القطار ، تقدم أحد الأشخاص ممن يعرفوننى ، ولفت نظرى إلى أن حمزة البسيونى استمر واقفا على رصيف المحطة ، فاندهشت لحرصه الشديد على مجاملتى مع أن صلتى به كانت انقطعت لسنوات عدة . وحييته بايماءة برأسى ، وانشغلت اتصفح الجرائد فى حين كان اسمه يتردد على ألسنة عدد من ركاب القطار . فعلمت أن حمزة الذى أعرفه ، هو حمزة صاحب الشهرة العريضة . ولما تحرك القطار ، نحيت الجرائد جانباً ، ورحت أتأمل فى غرائب الحياة . فهذا الضابط الذى يعتمد فى قسوته وشدته على تعذيب الناس ، وايلامهم وإخافتهم ، هو نفسه هذا الشاب الذى كان من أشد الشبان كرها لاستبداد الحكومات وظلمها ، وأشجعهم فى مقاومة جنودها ، وهو بعد هذا الانسان الساذج الذى لا تتصور أنه يمكن أن يضمر فى نفسه شراً ، أو يلحق بإنسان أذى . وتساءلت : ايكون ما يذاع عنه اختلاقاً وتلفيقاً لا أصل له . أم يكون مبالغة من الناس وتهويلاً ، أم يكون صدقا خالصاً ، وأن حمزة البسيونى هو شخصان متناقضان كل التناقض احدهما ملاك وثانيهما شيطان .

فالعلم الحديث يقول الآن أن هناك من الظواهر النفسية ظاهرة ازدواج الشخصية . ثم نسيت كل شيء عن هذا الموضوع . وبعد شهور كنت اتمشى فى شارع السباق بمصر الجديدة التماساً للترويح وبعض الرياضة ، واذا بى وجها لوجه مع حمزة البسيونى وقد بدا عليه مزيد من آثار تقدم السن ، فأقبل على محييا ، ولم أزد عن رد التحية ومضيت فى حال سبيلى ، وكان بوده أن أدعوه إلى السير معى ، أسأله عن حقيقة ما نسب اليه . ولكنى لم أفعل ...

ومضت سنون حتى علمت أنه توفى إلى رحمة الله فى حادث سيارة فاجع فأفلتت منى فرصة استجلاء هذه الظاهرة الفذة .

فتحى رضوان

الفصل الأول

غبار التطهير وقذائف بين نجيب وجمال سالم

بعد قيام ثورة سنة ١٩٥٢ ، وبعد تأليف أولى وزارات الثورة فى السابع من سبتمبر من تلك السنة ، حدث أمر لم يقع من قبل فى بلد غير مصر ، ولعله لم يقع ، بعد ذلك ، فى مكان آخر . فقد كانت شكوى مصر ، منذ مطلع عهد الاحتلال البريطانى الذى بدأ فى الرابع عشر من سبتمبرسنة ١٨٨٢ ، من الأداة الحكومية ، ومن كثرة الموظفين ، وتضخم مرتباتهم على مر الأيام ، وقلة كفاياتهم ، وانتشار الرشوة فى صفوف بعضهم ، وتعقد القوانين وكثرة تغييرها . ومئات ، بل وآلاف ، من اسباب الشكوى لم تنقطع – على تعدد الحلول وتنوع الأطباء . ومن هنا ، كان أول ما فكرت فيه الثورة – بعد الاصلاح الزراعى – هو « اصلاح الأداة الحكومية » . وكان فى رأى بعض وزراء الثورة ، أن الخطوة الأولى لهذا الاصلاح هى طرد الموظف الفاسد ، والمحظوظ ، والعاجز .

ولكن .. كيف نضع أيدينا على هؤلاء وحدهم ودون غيرهم ، فلا نظلم معهم الأكفاء .. والمتشددين والمكروهين ، لأنهم « حنبليون » لا يستجيبون لدواعى المجاملة ، ولا يغمضون العين عن القليل من الفساد الذى يعتبره البعض (كالزيت) الذى لابد منه لتليين تروس الالة ؟.

اخيرا .. اهتدى المشرعون إلى طريقة قانونية (ديمقراطية) لاجراء ما سمى (بالتطهير) . وخلاصة هذه الطريقة ، أن ينتخب كبار الموظفين واحدا منهم يثقون به ، وينتخب صغارهم واحدا يثقون به . ثم يرأس الأثنين قاض من المحاكم بدرجة متوسطة . فلا هو من المبتدئين ، ولا هو من الكبار المشغولين بأعباء القضاء الكبرى . ولما كان عيب (الديمقراطية) الأصيل ، هو أن وسيلتها هى الانتخاب ، وأن الناخبين (بشر) ، تجوز عليهم الأكاذيب ، ويتطلى الافتراء ويتأثرون بالهدية ، وبالرشوة ، وبالكلام المعسول ، كما أنهم يخافون القوى ، حاكما كان ، أو صاحب مال ، أو جاه – فالانتخابات لا تهتدى إلى « الرجل الصالح » لانه ، فى أغلب الأمر ، رجل متوسط الحال . صادق لا يكذب . حى لا ينسب لنفسه الأفضال والمواهب . لا يوزع الوعود يمينا ويسارا بلا حساب ، فيفتح الطريق لأصحاب الأصوات العالية ، ولذوى الوجوه الصفيقة ، ولمن عنده مال ، ولمن وراءه جاه فإذا المجلس النيابى صورة من هذا الفساد ومرآة له .. ولكن الانتخابات ، مع ذلك كله ، هى « الوسيلة » التى لم يستطع المصلحون . وأساطين التشريع ، أن ينصحوا بسواها .. ومن هنا ، قالت الثورة : « انتخبوا خياركم .. ليطردوا شراركم » .

● فماذا حدث ؟.

●● فى أول عهدى بالوزارة ، كان مكتبى – كوزير للدولة – يقع فى مبنى مجلس الوزراء .. وجاء أحد رؤساء اللجان المنتخبين لتطهير المجلس (مجلس الوزراء) من الفاسد ، والمرتشى ، فرأيت – برؤيته –أغرب واعجب شخصية من المستخدمين والموظفين فى مصر . ولما كان هذا الرجل نموذجا لغيره ، وشديد الاتصال بالأحداث ، فانى استأذن القارىء الكريم فى أن أطيل الحديث عنه قليلا . ولكن .. لأن الرجل مات من جهة .. ولأنه من جهة أخرى ، لم يكن شخصية سياسية ، فسأدخل على الأحداث بعض التغيير الذى لا يمس جوهرها ، حتى لا أكشف عن شخصية انسان أصبح فى رحاب الله .

جاء سكرتيرى الخاص يوما ليعلن : أن الأستاذ (ولنقل عبد السميع) يريد مقابلتى ، وسألت : من يكون الأستاذ عبد السميع هذا ؟ فقال السكرتير : « إنه موظف كبير ، وانه رئيس لاحدى لجان التطهير » . فسألت سكرتيرى : « وما الذى يريده منى ؟ » . فأجاب : « إنه يقول ان الموضوع شخصى بحت ، وان كان له جانب عام خطير إلى أبعد الحدود وقد رفض ، رفضا باتا ، أن يضيف إلى هذه الاجابة المثيرة حرفا واحدا » .

وتحرك فضولى ، فأصبحت شديد اللهفة على مقابلته ، ومعرفة هذا الموضوع (الشخصى جدا) .وذى الاتصال بشأن عام ، وهام .

ودخل إلى مكتبى ، رجل تجاوز منتصف العمر ، يبدو عليه شىء من الاضطراب ، يسبغ على نفسه مظهرا من التأدب المبالغ فيه . فحييته ودعوته إلى الجلوس .. فاعتذر عن قبول الدعوة ، فلما تشددت .. قبلها . وجلس على طرف المقعد ، وقبل أن يتكلم سألته عن وظيفته ، مؤهلاته ، والعمل الذى يباشره فى مجلس الوزراء ، وعن رأيه فى العمل قبل الثورة ، وما يستحسنه من أسلوب هذا العمل ، وما يستهجنه .. ولم أظفر منه بشىء ذى قيمة ولكنى فوجئت به يقطع حديثه ، ويقف . وخيل إلى أنه يود أن ينصرف لأنه تذكر شيئا كان قد نسيه على أن يعود .. ولكنى وجدته يقف ، ويستمر فى الكلام واقفا !!. فلم أفهم هذا التصرف ، وسألته : « لماذا وقفت ، هل تود الانصراف الآن لنستكمل الحديث بعد حين ؟ » فإذا به يقول : « ابدا .. ابدا .. لم أصدق أن وقتك سيسمح باستقبالى وسط المشاغل ، والمواعيد ، والمقابلات التى استطعت بسبب وجودى فى ديوان الرياسة ، أن

أكون فكرة عن ضخامة عبثها » فقلت له متعجبا : « وفيم وقوفك اذن ؟ » . قال : « لأنى هكذا أكثر ارتياحا » . فقلت له : « تعنى انك تحسن الكلام واقفا منك وأنت جالس .. أكنت مدرسا قبل أن تأتى إلى هنا ؟ » فصاح صيحة قصيرة ، وخافتة ، معلنا اعجابه الشديد بذكائى وقال انه ،بالفعل كان مدرسا . ولكنه لا يقف بسبب الاعتياد ، ولكن لسبب أخر . فقلت له : « وماذا يكون ؟ » وكم كانت دهشتى حينما سمعت هذا « المدير الكبير » يقول : « لأنى أخشى أن تفسد معاليك أخلاق » !.

وخيل الى أن بعقل الرجل مسا ، ولكنى رأيته على حالة من التنبه والهدوء . وقبل أن أسأله : « كيف تفسد أخلاقه اذا جلس ، وكيف تنصلح اخلاقه اذا وقف ؟ » .. قال : « يامعالى الباشا .. إن الرؤساء جميعا لا يطيقون أن يخاطبهم مرءوسوهم وهم جالسون .. ولم أر وزيراً يخاطب حتى وكلاء الوزارة إلا وهو جالس ، وهم وقوف بين يديه . لا يبدأون بالكلام إلا اذا وجه اليهم الخطاب . وقد ربيت على هذه المبادىء وأصبح الحرص عليها والتمسك بها ، ديدنى ورأيى ، فإذا اعتدت الجلوس أمام الوزير ، فإنى اخشى ان استمرىء هذه العادة ، فافعل هذا مع غير معاليك فأفقد عطفه إلى الأبد .. فلا تضيع على مستقبلى . ودعنى اتكلم واقفا » !. وعبثا حاولت اجلاس هذا « المدير الفذ » !

ولكن .. لقد كانت فى جعبته مفاجأة أكبر . فقد قال : « يا معالى الباشا أرجو ألا تغضب منى اذا علمت اننى جئت اتطفل على مائدة علمك ، وأن التمس منك فتوى قانونية ، وأنا أعلم أن هذا اجتراء منى ، وسوء خلق ولكنى مضطر إلى هذا اضطرارا » . فهدأت من روعه . وان كنت لم أتأثر قليلا ولا كثيرا بهذه الألفاظ التى كان يمكن أن تمس شغاف قلبى فى ظرف اخر ، فقلت له : « تفضل .. ماذا تريد ؟ » فقال : « انى جئت اشكو اليك حظى العاثر الذى لا علاج له ، فأنا أخ شقيق لشرف بك » . وتنبهت ، فى هذه اللحظة ، للشبه بين لقب هذا المدير ، ولقب « فلان بك » الذى أشار اليه . فقلت له : « وأى حظ عثر فى أن تكون شقيقه ؟ » قال : « لابد أنك عرفت أنه وجد فى شقته منتحرا »فقلت له : أعرف .. رحمه الله . وماذا فى هذا ؟ » قال : « انه انتحر لأنه وجد أن له صلة ببعض النشاط المخالف للقانون ، ولذلك فانى أود أن اتخذ اجراء اتبرأ به منه ، ولقد أمرت بعض أفراد الأسرة لينقلوا جثته من مدافننا ، ويلقوا بها ولو فى مقابر الصدقة » !.

وفهمت المعنى الذى قصد اليه هذا المدير ، وهممت بأن اطرده من مكتبى ، ولكنه اندفع يقول : « ارجو ألا تقسو على ، وأن تفهمنى معاليك جيدا ، فلقد نشأت على أسس من الأخلاق تعد الخروج على القانون أشبه بالكفر . فماذا أفعل ليعلم الناس جميعا أن (شرف) ليس أخى .. وأننى أبرأ إلى الله منه ومن علاقتى به » .

* * *

لقد خيل إلى هذا المدير المسكين أنه سيناله بعض الشر ، أو الشر كله لكونه شقيق « شرف بك » .. وقد غلبنى الاشمئزاز من هذا التشوه الذى أصاب نفسا انسانية فأخرجها عن طبيعة البشر ، فأحنيت رأسى خجلا ، ولم استطع أن أرفع وجهى حتى لا تقع عيناى على وجهه . وبعد فترة صمت قلت له ، وأنا انتزع الألفاظ انتزاعا : « مثل هذا الكلام يضرك أبلغ الضرر ، وسأعتبر نفسى أنى لم أسمع منك شيئا . واذا أعدت منه حرفا واحـدا على مسمعى فى أى وقت آخر فلن أكتفى بطردك من وظيفتك ، بل سوف أطاردك أينما كنت » .

وحسبت هذا التهديد سيفزعه ، وسيجعله يكف عن هذا الغثيان المقزز . ولكنه اندفع غوى وهـو يقول : « افعل بى ما تشاء ، ولكن انقذنى أولا من هذه الصلة التى لا يد لى فيها ولا ذنب » !

وكلما زدت أنا امتعاضا . وكلما بدا على الاحتجاج . زاد هو تضرعا وتوسلا . ولم يوضع حد لهذا الموقف الشاذ . إلا بأن اخرجته بيدى من المكتب اخراجا وهو يواصل تمثيله . دون أن يفقد من تماسكه ، ومن ثقته بنفسه ، واصراره على تمثيله المفضوح ، قليلا أو كثيرا !.

* * *

لم يكن هذا سوى نموذج لموظف كبير ، حاز ثقة زملائه ، ونجح فى أن يكون على رأس « لجنة تطهير » . ولست أزعم أن احدا من رؤساء اللجان كان فى مثل سوئه . بل الذى أجزم به . أن الأغلب الأعم من هؤلاء الرؤساء كانوا من أفاضل الموظفين وخيرتهم ،

ولكن .. يمكن دائما للسيئين فى انتخابات عامة ، ان ينفذوا إلى أماكن ذات قيمة . ولكن ماذا تفعل حكومة تريد أن تلتزم العدل ، وأن تنزل على مقتضياته ؟. انها ان عينت رؤساء وأعضاء اللجان .. قيل انها « لجان مرفوضة .. وموحى اليها » . وان هى تركت الأمر للانتخابات ، كانت النتيجة ما رأينا .. فأين طريق الخلاص ؟!.

* * *

ليس ذلك سوى مدخل إلى صدى عملية « التطهير » فى مجلس الوزراء الذى كان يرأسه عبد الناصر . وأول هذه الأصداء .. حكاية معروفة سبق أن ذكرتها فى مواضع أخرى . ولكنهالابد أن تعاد هنا بتفاصيلها . فقد كان النظام يقضى بأن يعرض كل وزير النتائج التى توصلت اليها « لجان التطهير » المشكلة فى وزارته ، مشفوعة برأيه . ثم تقرر بعد ذلك ، ان تعرض هذا النتائج على لجنة وزارية تشكل من ثلاثة وزراء قبل عرضها على مجلس الوزراء .. وحدث أن عرض وزير التربية والتعليم ، المرحوم الأستاذ اسماعيل القبانى ، ما قررته اللجنة المشكلة فى دار الكتب من وجوب احالة الأستاذ توفيق الحكيم إلى المعاش – باعتبار أنه موظف غير منتج – وأفاض المرحوم القبانى فى بيان « أن الأستاذ الحكيم لا يكاد يحرك ورقة من مكانها فى دار الكتب ، على الرغم من خطر هذه الدار ، ومن عظم الأمال التى تعقدها الوزارة على هذا الجهاز التثقيفى . وهى امال تتزايد لما تعتزم الوزارة من توسيع الدار وتزويدها بالأجهزة والأنظمة الحديثة ، فضلا عن المراجع العلمية باللغات المختلفة » ..

وخيل إلى الوزير أنه القى بيانا مقنعا ومؤثرا .. فإذا به يفاجأ بعبد الناصر يقول فى عبارة موجزة « انه من سوء التقدير أن اخرج فى عملية تطهير أحد كبار كتابنا الذين ترجمت كتاباتهم إلى اللغات الأجنبية .. ماذا يقول عنا الناس فى الخارج ؟ » .

ولم يعلق الأستاذ القبانى على هذا الكلام بحرف واحد ، حتى خيل إلى الجميع أنه وافق على الاعتراض وأن المسألة مرت بسلام .. ولكنه ما لبث ان انسحب بعد قليل ، ومضى إلى بيته . وأدرك (عبد الناصر) أنه اهانه بقوله « سوء تقدير » .. وهو تعبير لم يقصده بحرفه ، وذهب إلى بيت الوزير ومعه الرئيس محمد نجيب واسترضياه ، ورضى .

ولكن الذى أدهشنى ، حقيقة ، أن (توفيق الحكيم) لم يجد بين الوزراء جميعا نصيرا

واحدا ينضم إلى الرئيس عبد الناصر ، ويدفع عنه تهمة العجز الادارى ، أو يقيه من الفصل فى « حملة التطهير » ، إلى الحد الذى خيل إلى معه أنه لو سأل سائل الوزراء – كما يجرى الأمر فى برامج الاذاعة – « هل قرأ أحدهم شيئا للحكيم ؟ » لما استطاع أى منهم أن يذكر له كتابا واحدا .. وقد كانت هذه نتيجة تدعو ، بلا شك ، إلى الأسف الشديد .

* * *

ولقد ساهمت فى تعقيد الموقف بعد أن كانت هذه الأزمة قد انفرجت . فقد تحدث إلى الصديق الأستاذ حلمى سلام . عن شبهات وشكوك الناس فى نتائج حملة التطهير ، فذكرت له خطوات التطهير .. من قرار تصدره لجنة منتخبة يرأسها قاض ، ثم لجنة وزارية ثلاثية ، ثم قرار من مجلس الوزراء . وضربت له – بأزمة اسماعيل القبانى واصطدام الرئيس جمال به – مثلا على أن قرارات الفصل لا تصدر اعتباطا . ورأى الأستاذ حلمى أن من واجبه أن ينشر هذا المثل ، تهدئة للرأى العام وتنويرا له . وكان اذ ذاك ، يرأس تحرير مجلة (التحرير) .. وأدركت عندما وقع نظرى على الخبر منشورا فى المجلة أن المرحوم الأستاذ القبانى ، سيؤلمه هذا النشر . وقد يقوم فى ذهنه أن الرئيس عبد الناصر هو الذى أوعز للأستاذ حلمى سلام بنشر الخبر لاعتراضه على قرار الأستاذ القبانى فور سماعه له ورأيت أن من واجبى أن أبادر بزيارة الأستاذ القبانى فى بيته ، وأن أؤكد له أننى وحدى المسئول عن نشر هذا الخبر . وفعلا وجدته – كما قدرت – متألما ، ومنتويا الاستقالة . لكننى ما زلت به حتى وثق من صدق كلامى ، وأدرك أن استقالته لم تعد ذات موضوع فالاحتجاج على أنا لا يكون بالاستقالة .

وعرض عبد الناصر لما نشر . وقال انه لا يد لى فيه ، ولا أعرف كيف تسرب الخبر « لمجلة التحرير » . وأن الأخ القبانى لابد أن يكون غاضبا ، وله حق فى غضبه . فتوليت شرح الأمر كله .. وانهيت إلى الرئيس جمال ، وإلى المجلس كله ، اننى أنا المسئول عن كل ما جرى ، وأننى اصلحت ما وقع منى وأن الزميل القبانى سيحضر المجلس فى الجلسة القادمة . وقد أخبرنى المرحوم صلاح سالم ، أننى لما أعلنت « أننى أنا المسئول عن نشر الخبر » ، قال لجاره فى المجلس : « إن هذه شجاعة من فتحى رضوان .. يحمد عليها » .. فاستنكرت أن يكون اعلان الحقيقة فى مسألة تفصيلية كهذه شجاعة تستحق التنويه ، فقال : « لقد أصبحنا نفتقد هذا القدر الضئيل من الشجاعة » !.

ولكن « التطهير » كان قادرا على أن يلد أزمات صغيرة كهذه الأزمة . من ذلك أن احدى اللجان الثلاثية الوزارية ، التى كانت برياستى ، وافقت على فصل عدد من كبار الموظفين ، كان أحدهم ابن خالة أحد الوزراء المدنيين .. وكان اخر ، صهرا لاحد الوزراء العسكريين . وقد قال الوزيران - المدنى والعسكرى - بعد موافقة مجلس الوزراء على قرار اللجنة الثلاثية ، ان اللجنة الثلاثية لم توص بفصل أقربائهما . وطلبا اعادة الأمر على مجلس الوزراء ووافق الرئيس جمال على اعادة النظر فى القرارين ما دامت هناك شبهة فى عدم موافقة اللجنة الثلاثية على القرارين ، ولكن ما كاد الموضوع يعاد عرضه .. حتى تبين « عبد الناصر » أن احد الموظفين هو ابن خالة وزير مدنى ، وأن الثانى هو صهر لوزير عسكرى ، وعضو بمجلس قيادة الثورة وعندئذ صاح قائلا : « اذن المسألة هى هذه . سيقول الناس اننا لم نعد النظر فى قرار واحد من قرارات التطهير ، ونعيد النظر فى قرارين اثنين لمجرد أنهما يتعلقان بأقرباء الوزراء .. لا ..لا .. إن هذا سينتزع الثقة بقراراتنا كلها . ليكن فى هذين القرارين من الظلم ما فيهما ، ولكن المصلحة العامة أولى بأن تراعى » .

وسكت الوزير المدنى وزميله العسكرى على هذا القول على مضض .. فقد كانت حجة « عبد الناصر » من القوة بحيث لا ترد .

ولكن الوزير العسكرى وجد سبيلا لعرض الموضوع مرة أخرى ، وبطريقة يمكن أن نصفها - بلغة هذه الأيام - بأنها أكثر (درامية) !.

فقد حدث بعد صدور قرار مجلس الوزراء بالموافقة على فصل صهر عضو مجلس قيادة الثورة ، أن خاطبنى بوصفى الوزير المسئول عن الجهة الادارية التى كان يعمل فيها صهر عضو مجلس القيادة ، عدد من أكبر الشخصيات ، استشفاعا له وثناء عليه .. كان منهم « صاحب المقام الرفيع على ماهر باشا » رئيس لجنة الدستور فى ذلك الوقت . وكان منهم قانونى مصر الأكبر استاذى المرحوم « الدكتور عبد الرزاق السنهورى » . ولكن الدكتور السنهورى اضاف إلى حسن شهادته فى الموظف المفصول شيئا اندهشت لصدوره من رئيس مجلس الدولة ، فقد قال لى : « هل لديك مانع من أن يأخذ القبانى (فلان) معه فى وزارة التربية والتعليم » . اندهشت لصدور هذا القول عن رئيس مجلس الدولة ، لان تعيين موظف مفصول فى التطهير ، بعد قرار فصله بأيام قليلة ، يجعل قرارات التطهير كلها هزلا لا معنى

له . ويدعو إلى ثورة المفصولين فى هذا التطهير . فأجبته ، احتراما لمقامه عندى : « الأمر لم يكن اضطهادا شخصيا لفلان حتى أمانع فى أن يناله خير على يد سواى . ولكن .. هل يمكن تعيين موظف مفصول فى التطهير عقب فصله بأيام ؟ » فأجاب : « ممكن » !! فسكت ، ولم أعقب .. وأنا مندهش – كما قلت – غاية الدهشة من صدور هذا الكلام عن الدكتور السنهورى ذاته !!.

* * *

وانعقد بعد ذلك بقليل ما كان يسمى ب (المؤتمر المشترك) ، وهو مجلس كان يضم الوزراء ، وأعضاء مجلس القيادة . وفى نهاية احدى جلساته – وكانت برياسة اللواء محمد نجيب – أمر رئيس الجلسة باخراج جميع الموظفين الاداريين والكتابيين من قاعة الاجتماع . وكان يقوم بأعمال السكرتارية الدكتور إبراهيم حلمى عبد الرحمن الذى عين ، سنة ١٩٧٥ وزيرا للتخطيط ، فخرج مع الخارجين . ثم قال الرئيس نجيب كلاما لم اتبينه ، لأنى كنت مشغولا بورقة فى يدى . ولم يدر بخلدى قط أن هذا الكلام يخصنى ، وأنه يتضمن اتهامى بتهمة جد خطيرة . ولما استمر فى كلامه ، وأنا مشغول بما كنت أقرؤه ، نبهنى احد زملائى بأن الكلام يخصنى ، فالتفت إلى الرئيس نجيب ، فإذا به يقول ان عضو مجلس قيادة الثورة الذى فصل صهره ، يتهمنى بأنى اذعت اسرار مجلس الوزراء !!.

والحق أننى وجمت . لأننى أعلم يقينا أننى لم أقابل أحدا قط وسمحت لنفسى بالتحدث معه عن أى شىء يجرى بحثه فى مجلس الوزراء حتى ولو كان اتفه الشئون . فسألت ، والدهشة تغمرنى تماما : « أسرار ؟.. أى أسرار ؟. أريد أن أعرف السر الذى أذعته .. ولمن أذعته ؟ » .

وبدا الارتباك على الرئيس نجيب لأنه لم يكن محيطا تماما بنص التهمة ، فأعطى الكلمة لعضو مجلس القيادة الذى قال : « الدكتور السنهورى اتصل بك فى شأن اعادة تعيين صهرى الذى فصلوه ظلما فى وزارة المعارف وأنك وافقت » . فقلت : « وهل هذا اذاعة لأسرار مجلس الوزراء ؟! إن قرار الفصل بلغ – حسب القانون – للموظف من الجهة التى يعمل بها ، فلم يعد سرا . أما البحث فى اعادة تعيين صهرك فى وزارة أخرى فأمر لم يعرض على مجلس الوزراء ، ولا يمكن لحديث جرى بين رئيس مجلس الدولة ، وأحد الوزراء أن

يكون من أسرار الدولة » .

فقال عضو مجلس القيادة : « وكيف وافقت على اعادة تعيين صهرى ؟ » فقلت له : « وهل موافقتى على اعادة التعيين من أسرار الدولة ؟. وهل أنا أملك الموافقة أو المعارضة فى شأن موظف فصل نهائيا من الدولة ، ويراد تعيينه فى وزارة لا تتبعنى ، ولا اشراف لى عليها ، ولست رئيس مجلس الوزراء » . فإذا بعضو مجلس القيادة يقول : « موافقتك على التعيين القت فى روع صهرى أننى وراء قرار فصله ، وأن هذا أفسد علاقتى بأولاد عمومتى » .

وهنا لم أستطع أن اضبط نفسى فصحت : « وهل أنا مسئول عن علاقتك بأقاربك ؟! وهل أنا سعيت لهذا الأفساد ؟ » .

وحاول بعض الوزراء تهدئتى ، ولكنى فى الحقيقة شعرت بمرارة فى حلقى ، وخيل إلى أن بقائى فى الوزارة ، لم يعد محتملا . فلما انفض المجلس ، اسرعت إلى قطعة ورق فكتبت عليها استقالتى ، ودفعت بها إلى الرئيس محمد نجيب ، فأخذها دون أن يقرأها ، اذ لم يحسب أننى استقلت هكذا بسرعة .

وفى صباح اليوم التالى ، مررت على بيت « عبد الناصر » ، وتركت له صورة من الاستقالة .. فاتصل بى « عبد الناصر » – وسألنى : (ما الحكاية ؟) فرويتها له . فقال : « لقد حاولت أن أفهم المسألة من خالد محيى الدين ، والظاهر أنه لم يكن متتبعا لما جرى ، فلم أفهم منه شيئا .. » .

وطلب منى « عبد الناصر » ، بالحاح ، أن اسحب الاستقالة ، وقال لى : « انه ، هو واخوانه ، تحدثوا إلى زميلهم عضو مجلس القيادة ، ولاموه على موقفه منى ، وطلبوا منه أن يمر على فى المنزل ليعتذر لى عما وقع منه فى حقى » .

وفى أصيل ذلك اليوم ، كان وزير القصر قد دعانا لمشاهدة معروضات القصور الملكية المصادرة فى قصر القبة .. وهناك ، تقابلت مع عضو مجلس القيادة الذى كان طرفا فى هذه الأزمة ، فتبادلنا التحيات ، ولم انتظر منه ، بعد ذلك ، زيارة ولا اعتذارا ، فقد كان يكفينى أن يتبين الجميع أننى لم أخطىء .

ومع ذلك .. بقى فى جعبة التطهير طرائف ..

وفى أوائل سنة ١٩٥٣ ، كانت فرنسا تتحرش (بباى تونس) أى سلطانها أو ملكها الذى مال إلى الوطنيين وأخذ صفهم .. وبدت فى الأفق نذر تدل على أن فرنسا تنوى عزله ، وكان مجلس الجامعة العربية على وشك الانعقاد فى القاهرة . وكنت ، فى ذلك الوقت ، وزيرا للخارجية بالنيابة .. بعد التعديل الوزارى الذى خرج فيه السفير العظيم أحمد فراج طايع من وزارة الخارجية .. فاستقبلت سفراء الدولة العربية فى القاهرة توطئة لعقد مجلس الجامعة . فإذا بسفير اليمن – وهو السيد على المؤيد – يقول : « إلى متى ستبقى دول الجامعة وحدها فى مواجهة دول الاستعمار . لماذا لا ندعو سفراء الدول الأسيوية والأفريقية لينضموا الينا ويقفوا معنا فى وجه فرنسا التى تهدد (باى تونس) بالعزل ، وشعب تونس بالقمع » .

وراقتنى الفكرة . فدعوت سفراء الدول الأسيوية والأفريقية جميعا للانضمام إلى سفراء الدول العربية . فبدا عددنا كبيرا . ثم تدفقت الأفكار من كل جانب . وكان من بين هذه الأفكار تهديد فرنسا بعدم تموين طائراتها العسكرية المسافرة إلى الهند الصينية . ولم تكن فرنسا وقتها قد هزمت هزيمتها الحاسمة فى (ديان بيان فو) .. ولم تكن فرنسا لتجد مطارا تمون طائراتها بالوقود من فرنسا حتى فيتنام إلا (مطار اللد) فى اسرائيل . وفيما عدا ذلك فجميع المطارات واقعة فى بلاد الكتلة الأسيوية الأفريقية . وقد قررت هذه أن تمتنع عن تموين طائرات فرنسا بما يلزمها من الوقود والزيت .

ولما كان بين سفراء دول الكتلة الأسيوية من يعرف الإنجليزية وحدها . ولا يعرف الفرنسية . ومنهم من يعرف الفرنسية ، ولا يعرف الانجليزية . ولم تكن الترجمة الفورية قد عرفت ، فقد اضطررنا ، فى وزارة الخارجية المصرية ، إلى الاستعانة ببعض السفراء الذين يجيدون اللغتين للقيام بأعمال الترجمة .. ووقع الاختيار على الأستاذ حسين رشدى – أحد رجال السلك السياسى المصرى – ليقوم بأعمال الترجمة إلى اللغة الانجليزية .

وفيما كان سفراء الدول الأسيوية والأفريقية والعربية مجتمعين فى وزارة الخارجية ، وصل إلى مقر الاجتماع الرئيس محمد نجيب ، وشهد جانباً منه وكان الأستاذ حسين رشدى يقوم بالترجمة إلى الإنجليزية . فغاظ الرئيس نجيب تدخل الأستاذ رشدى ، فيما يتولى ترجمته ،

بالتعليق عليه . وغاظه أكثر أنه لم يكن سريعا بالقدر الكافى . وذات يوم ، عرض اسم الأستاذ حسين رشدى ضمن الأسماء المطلوب احالة اصحابها إلى المعاش ، فإذا بالرئيس نجيب يتذكر ما كان من الأستاذ رشدى فى يوم انعقاد اجتماع الكتلة الأسيوية والأفريقية فإذا به يصمم على احالته إلى المعاش . ولكن الأستاذ رشدى كان صديقا للمرحوم جمال سالم . وكان « جمال سالم » يحسن الظن بكفايته ، وخصوصا بقدرته الفائقة على التكلم باللغة الانجليزية !!. ووقف كل منهما على طرفى نقيض . محمد نجيب يهاجم رشدى ، وجمال سالم يثنى عليه . هذا يطلب فصله ، وذاك يصمم على ابقائه ، ثم ترقيته بعد ذلك . وحار المجلس بين الاثنين !! فلم يكن ثمة مخرج من هذا الجذب والشد إلا بتأجيل القرار إلى جلسة تالية .

وفى الجلسة التالية ، تكرر المشهد . ووقع بين « جمال سالم » و « نجيب » عراك بالالفاظ تطايرت فيه النعوت والاوصاف .. كأنها قذائف بندقية !! وانتهت المعركة لصالح « جمال سالم » .. وبقى حسين رشدى فى مكانه حتى وصل إلى منصب السفير فى يوغوسلافيا . ونسى الناس ما جرى فى مجلس الوزراء .. ونسوا التطهير . ومضت الحياة على عادتها ، تصابح الناس .. وتماسيهم .. بكل جديد .

ولكن هذا الاجتماع الذى أثار كل هذا الخلاف الحاد ، كان ، مع ذلك نعمة وبركة . فإنه كان نواة الكتلة الأسيوية الأفريقية التى كانت ، قبل هذا الاجتماع ، مجرد تجمع لا تنظمه ضوابط ، يلتئم لمجرد تنسيق مواقف أعضاء الكتلة ازاء المسائل المعروضة فى الأمم المتحدة . فما لبث ، بعد هذا الاجتماع ، حتى اصبحت كتلة متماسكة لها دورها الواضح ، وخطتها المعروفة . وقد أفضت هذه الكتلة نفسها إلى ميلاد « عالم دول عدم الانحياز » الذى أفضى ، بدوره إلى العالم الثالث .

الفصل الثانى

عندما هبت العاصفة على مجلس الثورة

كانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة فى ليلة باردة من ليالى شهر فبراير سنة ١٩٥٤ ، حينما دق جرس التليفون ، معلنا اننى مطلوب لمجلس قيادة الثورة الكائن بالجزيرة . وهو مبنى مطل على النيل ، كان الملك فاروق قد اعده ليكون مقرا لادارة اليخوت الملكية النيلية . وكتمت عن أهل بيتى فحوى هذه المكالمة غير العادية ، حتى لا اثير مخاوفهم ، وان كانوا قد الفوا هذه المفاجآت ، ولم تصبح لديهم بالأمر الذى يخيف .. لا فى عهد الوزارة ، أو ما قبلها . ولكننى لا أكتم القارىء اننى فى تلك اللحظة التى تلقيت فيها هذه المكالمة - حرت تماما - فى سر هذه الدعوة . وملت إلى التشاؤم ، وقد لاحظت اننى رحت ارتدى ثيابى فى همة ، كشأنى فى اللحظات التى تبدو فيها نذر لا تطمئننى ، ولم يبد على أثر من انزعاج أو قلق . فلقد كان التحدى يبعث فى شجاعة لا أتمتع بها فى الظروف العادية . والظاهر أن الذى وجه الينا هذه الدعوة الغريبة ، والمفاجئة ، حسب حساب السيارات التى تقلنا . فقد وجدت سيارة تنتظرنى على الباب ، لعلها سيارة وزير العدل المرحوم المستشار أحمد حسنى الذى كان بيته لا يبعد عن بيتى إلا امتارا .

ومضت بنا السيارة تشق طريقها فى شوارع القاهرة المتألقة بمصابيحها ، وقد خلت من المارة أو أوشكت ، ونحن - زميلى وأنا - لا نجد عند انفسنا ميلا إلى حديث ، كأننا فى مأتم . فقد تبادلنا ، أول ماالتقينا ، السؤال الطبيعى : ماذا تظن وراء هذه الدعوة ؟.

ثم ضربنا اخماسا لاسداس ، فلما لم نهتد إلى رأى يمكن الاطمئنان اليه ، كففنا عن الكلام حتى وصلت السيارة إلى غايتها ، ورأيت الوزراء ينزلون من سياراتهم صامتين واجمين .. وقد بدا كل منهم فى معطفه الثقيل ، وخطواته البطيئة ، والتساؤل يبهظه ، كأنهم نقط سوداء تتحرك فى الظلام ، كأنها حبات تذروها الرياح إلى غير غاية ..

وكانت هناك رياح حقيقية طبيعية ، اذ كان قيام المبنى على شاطىء النيل داعيا إلى هبوب هواء بارد يلفح الوجوه ، فتطابقت الطبيعة مع السياسة .

• دهشة مضاعفة !

وسلالم هذا المبنى ليست بالواسعة ، وليست بالمستقيمة .. فهى تدور فى ارباع ودوائر تشبه سلالم اليخوت . ووجهنا الحراس إلى حجرة ، وجدناها اشبه ما تكون بالحجرة الخالية ، لولا أننا أحسسنا بحركة فى جانب منها ، تكشف عن شخص طويل ، رشيق ،

وقف ليحيينا ، فعرفنا للتو أن مضيفنا هو « جمال سالم » . فكان ذلك سببا فى مضاعفة الدهشة ، ففى مثل هذه الظروف الخطيرة التى تدعو الوزراء لترك بيوتهم ، أو قل مخادعهم ، فى هذه الساعة المتأخرة من الليل البارد ، يجب أن يكون مجلس قيادة الثورة كله مجتمعا . فان لم يفسر ذلك لسبب أو لاخر ، فلابد أن يكون جمال عبد الناصر موجودا فى الموقع الذى يتقاطر عليه الوزراء ، فما الذى خرق القاعدة ؟ وأين هو « عبد الناصر » فى هذه اللحظة؟ هل أصابه مكروه ؟ وماذا عسى أن يكون هذا المكروه ؟ هل عزل ؟ أم قتل ، أم شرع فى اصابته ؟.

ولقد كانت الأيام السابقة على هذه الليلة حافلة بدواعي التوجس والتوقع ، وكان كل شيء فيها ممكنا . ولم يطل انتظارنا . فقد تكلم « جمال سالم » .. وعلى غير عادته ، تكلم بصوت هادىء لا انفعال فيه ، وفى جمل قصيرة ، خالية مما اعتاد « جمال سالم » أن يحلى به أحاديثه من عبارات وتشبيهات تكشف عن قدرته فى الحديث وتلوينه . وقال : « اننى دعوتكم لاطلعكم على أننا قررنا – للأسف الشديد – تنحية (نجيب) .. فانه لم يعد ممكنا احتماله ، ولا أمل فى معالجته ، ولعلكم تذكرون جميعا أننا ابرزناه ، وقدمناه على أنفسنا، حتى لم يعد أحد فى مصر يعرف من قادة الثورة سواه . وقد تلقى ، لهذا السبب ، من الشعب تأييدا وحبا لا نهاية له . ولكن الرجل صدق أنه أهل لهذا الحب والتأييد ، وأنه هو الذى اكتسبه بجهده وعمله . وقد تركناه يسعد نفسه بهذا الاعتقاد تعويضا له عن كونه من غير أعضاء مجلس القيادة . ولكن .. لقد التف حوله عدد ممن ينتمون إلى فئات معادية للثورة ، أو من أصحاب الميول الانتهازية ، فأحبوا أن يستغلوا هذا الاعتقاد عنده ، وأن يؤكدوا له انه قادر على الاستقلال عنا ، والاستئثار بالثورة . وقد احتملنا هذا التطور السيىء طويلا ، وحاولنا – وخصوصا عبد الناصر – لأنى لا طاقة لى على هذه المحاولات .. محاولات التلطف والمجاملة والمداراة – حاولنا أن نبصره بسوء عاقبة هذا التطور ، فازداد اقتناعا بقوته وضعفنا . وهنا تحركت الأحزاب القديمة وما خلفها . وخيل اليهم أن الفرصة قد أتيحت لهم ليطيحوا بالثورة ، فازدادوا تقربا اليه ، ومدحا فيه ، وازداد هو بعدا عنا وكرها لنا .. وقد كان من رأيى أن نحسم هذا الموقف ، ولكن اخوانى – و« جمال » فى مقدمتهم – كانوا يتهموننى بالتسرع والانفعال ، وأطالوا صبرهم حتى دخل « نجيب » فى دور خطير للغاية .. وهو دور النفاق .. يشترك معنا فى اصدار قرار ما ، بعد المناقشة ، ثم يخرج ويعلن انه ضد

هذا القرار ، وانه مغلوب على أمره .. وانه وحده مع الحزبية ، ومع الحياة النيابية ، وضد اتخاذ أى اجراء ضد « الأحزاب » ، وزعماء الأحزاب . مع انه ، فى أحوال كثيرة ، يكون اشد منا تنديدا بهذه الأحزاب وزعمائها ، وبالماضى وعيوبه .. ولأن الأمر عنده كله لا يتجاوز شخصه ، فهو حائر ، لا يدرى أيكون مع الاجراءات الثورية التى تبهره وتعجبه ، باعتبار انها اجراءات ، يدل الأقدام عليها على الشجاعة ، وعلى الرغبة فى التجديد الكامل ... أم يكون مع الأحزاب وما تنادى به من وجوب عودتنا إلى الثكنات ، واعادة الأحزاب إلى مكانها القديم ، وتصفية الثورة ؟ . « .

• شىء مؤسف !

ثم سكت « جمال سالم » ، وقد بدا على وجهه من علائم الألم ما تأثر به الحضور . ثم ختم كلامه بتلويحة خفيفة من يده ، وكأنه يقول : « لم يكن لدينا مع هذا الموقف حيلة » .

وساد المكان وجوم شديد ، وسمع فى الخارج صوت الريح يشتد ، واهتزت الأشجار التى وصلت بأطرافها العليا إلى نوافذ الحجرة التى كنا نجلس فيها . ولم يتكلم احد .. ولما لم يصدر تعليق منا جميعا ، وقف « جمال سالم » بقامته الممشوقة ، ومد يده المليئة بالحيوية ، فصافحنا ونحن لا ندرى أكان يعزينا ، أم كان يتلقى منا العزاء !!.

وفى هذه اللحظة سمعت صوت احد الزملاء يقول : « على كل حال هذا شىء مؤسف » . فأجاب « جمال سالم » على الفور : « بلا شك » .

* * *

وهبطنا درجات السلم الملتوى ، وقد ازداد أحساسنا بالبرد ، وأخذ كل منا مكانه فى السيارة ، دون أن نجد عنده النشاط ، أو الاستعداد ، ليقول حرفا واحدا ، وعندما افترقنا ، وبدلا من أن يقول كل منا التحية التقليدية .. « تصبح على خير » .. قال : « ربنا يستر .. » .

وذهبت إلى فراشى ، وقد اصبحت رأسى مسرحا لحركة عنيفة من الخواطر والتأملات حتى مطلع الصباح . فنمت ساعة أو بعض ساعة ، ثم قمت مليئا بالنشاط العصبى ، منتظرا يوما حافلا ..

ولكن .. عندما طلع النهار ، خيل الى أنى رأيت على ضوئه حقائق جديدة ، عجبت كيف غابت عنى وعنا جميعا . فقد ادركت ، بعد هذا التأمل ، فى الليل الهادىء ، بعيدا عن جلبة المناقشة ، وضجيج الحياة اليومية وتدافعها ، ان ما حدث فى الليلة الماضية ، وما هو موشك على الوقوع على أثر تلك الليلة ، والقرار الذى اتخذ فيها — كان طبيعيا — وأن غير الطبيعى هو الا يقع ما وقع . كل ما فى الأمر اننا لم نكن ندرى طبيعة العلاقة بين « نجيب » ، وبين أعضاء مجلس قيادة الثورة . ولكن حينما تعرف هذه الحقائق على حقيقتها ، ثم بعد أن نحيط بمقدار الجاذبية التى ظهر أن الرئيس محمد نجيب كان يتمتع بها عند افراد الشعب ، يصبح ذلك الشقاق الذى وقع ، هو التطور المنطقى للأحداث ، ولم تكن ثمة قوة تستطيع أن تمنعه .

● بطل شعبى ..

إن المسئول الأول عن هذه الأزمة الخطيرة التى استمرت من اوائل سنة ١٩٥٤ ، هو أن محمد نجيب بدا بطلا شعبيا كاملا ، من اليوم الأول الذى ظهر فيه للناس . لم يحتج إلى زمن لتكامل شخصيته كزعيم . ولا شك ان نصيبا كبيرا من هذا السحر ، يرجع إلى نجاح الثورة السريع ، وطرد الملك بلا تعثر ولا تردد ، وإخلاء القوات الأجنبية إلى السكون والصمت ، واذعان الملك لارادة الثورة ، وخروجه من مصر . كل هذه الأحداث ، أثارت فى المصريين الاحساس بالكرامة . فهؤلاء حفنة من أبناء مصر ، استطاعوا أن يدبروا لبلدهم فأحسنوا التدبير ، فطردوا آخر ملك من عائلة غير مصرية ، فتحت حياتها بصفحات مليئة بالعار . وكان القول الشائع ان المصريين لا يحسنون عملا ، خصوصا حينما يقع هذا العمل تحديا للأجانب ، ولا سيما اذا كان هذا الأجنبى بريطانيا أو امريكيا . فهذه الثورة جاءت شهادة للمصريين بأنهم يحسنون كتمان ما يجب كتمانه ، ويحسنون التنظيم والتنفيذ ، ويليقون بالمهام الكبرى . وكان « محمد نجيب » ، هو رأس هذه الجماعة ، فما أحراه وأجدره بالحب والتكريم .. وبالاعجاب والاعزاز .

ولكن « محمد نجيب » كان له نصيبه ، غير المنكور ، فى خلق هذه الشخصية التى تمتع بها ، وظهر على مسرح الأحداث وهو يرتدى طيلسانها . فهو وجه يتمتع بكل جمال الرجولة ، فضلا عن لطف أخاذ ، وسحر خلاب ، وبساطة تلقائية ، لا تكلف فيها

ولا تصنع ، مع سرعة فى الحركة وكثرة فى التنقل ، وتآلف للناس ، لم تشهد الزعامات المصرية له نظيرا .

وهذا كله جعل لمحمد نجيب شخصية مستقلة عن مجلس قيادة الثورة ، حتى فى أحلك الظروف التى كثرت فيها الشكوى من الأحوال فى مصر — ولا سيما الاقتصادية من هذه الأحوال — بقى « محمد نجيب » محبوبا ، كأنه لا يد له فيما يجرى .

ولكن هذه « الجاذبية » هى نفسها التى جنت عليه آخر الأمر . فقد أفسدت العلاقة بينه وبين أعضاء مجلس قيادة الثورة الشبان ، وكادت تودى بالثورة كلها ، وهى لا تزال فى سنتيها الأوليين . فقد جعلته قوة لابد أن يحسب لها حساب ، أى حساب . ولكن هذه القوة كانت تعوزها الاداة التى تجعل هذه القوة حقيقة لا مظهرا . فقد كانت السلطة فى يد « جمال عبد الناصر » واخوانه الشبان . ومن هنا ، تمتع « نجيب » بمظهر قوى .. وتمتع جمال بالقوة فعلا . وحينما بدأ الصراع بينهما ، رجحت كفة « نجيب » فى الجولة الأولى ، ذلك لأن الناس كانت معه بقلوبها ، ولكن التأييد القلبى قصير العمر مالم يسنده التنظيم الفعال ، ولم يكن خلف « نجيب »تنظيم على أية صورة .

وبعض الذين تمتعوا ، فى التاريخ ، بتأييد قطاعات كبيرة من أهل بلادهم ، اخفوا هذا التأييد ، أو قللوا من مظاهره حتى يتيسر لهم جمع القوة اللازمة للوصول إلى السلطة .. فلقد روى « كمال اتاتورك » ، أنه أمر ان يصحب ولى عهد سلطان تركيا فى رحلة إلى الخارج ، فلما قابل ولى العهد فى ديوانه الخاص بالقطار المسافر من استانبول إلى أوروبا ، رآه رجلا مغمض العينين ، يلقف انفاسه بصعوبة ، ولايكاد يحرك أصبعا . فلما تحرك القطار ، وترك الحدود التركية ، عاد « كمال اتاتورك » إلى ديوان ولى العهد ، فرأى رجلا ممشوق القامة عريض المنكبين ، مفتول العضلات ، ينظر من النافذة إلى الحقول التى كان يخترقها ، فخيل إلى « أتاتورك » أنه أخطأ الديوان فهم بتركه . لولا أن الرجل الذى كان واقفا فيه استوقفه . ثم تبين أنه ولى العهد الذى كان منذ لحظات شيخا هرما . ويتمارض ، ويتظاهر بالضعف أمام جواسيس أبيه « السلطان » حتى لا يقضى عليه بالسم ، أو بوسيلة أخرى من وسائل القتل الخفية . فلما أحس أنه بعد عن رقابة أبيه ، انتفض رجلا مليئا بالقوة ، وبالحيوية ..!

ولو كان لمحمد نجيب حظ أكثر من الدهاء السياسى ، لقلل من مظاهر وصور التفاف

الشعب حوله ، وتحاول أن يتحاشى أسباب التصادم مع زملائه الشبان ، حتى يصل الطرفان إلى مرحلة التوافق التي كانت فى حاجة إلى صبر ، وجهد ، ووقت .

وأشهد - للحقيقة ، والامانة التاريخية - أنى سمعت « عبد الناصر » فى منزله بمنشية البكرى ، قبل أن يهدم هذا المنزل ، ويبنى على انقاضه البيت الذى عاش فيه « عبد الناصر » بعد ذلك ، سمعته يتحدث بسرور وارتياح عظيمين عن شدة تعلق الناس بمحمد نجيب ، وكانت قد راجت فى تلك الأيام أغنية شعبية تقارن بين طهارة محمد نجيب ورائحة خبث الملك فاروق . فأخذ « عبد الناصر » يردد الفاظ الأغنية وهو يضحك ، ويعلق على ذلك واشباهه من مظاهر التفاف الشعب حول « محمد نجيب » بقوله : « لاحظ أن نجيب استطاع أن ينسى الناس (النحاس) وأنا اعرف مدى افتتانهم به . ولا تنس أن (النحاس) بنى مكانته عند المصريين على مدى ثلاثين عاما ، و(نجيب) لم يمض على ميلاد شهرته إلا أقل من سنتين » .

* * *

كما أشهد اننى سمعت اكثر من عضو من أعضاء مجلس القيادة يقولون بأنهم يحبونه اكثر مما يحبون آباءهم . ولقد كان شيئا ممتعا أن ترى نجيب عائدا من الخارج إلى احدى جلسات المؤتمر المشترك الذى يضم الوزراء وأعضاء مجلس القيادة . فقد كان أعضاء هذا المؤتمر من الضباط يستقبلونه بالحفاوة والترحاب ، ويضحكون من قلوبهم لتعليقاته . ولكن كل هذا انتهى وحل محله الشك المتبادل من الجانبين ، وسوء الظن ، والتوجس . ولقد سمعت « عبد الناصر » يشكو من ثلاثة التصقوا بمحمد نجيب و(تخنوا ودنه) - أى زادوا ثقته بنفسه . واعتداده بها - وهم : سليمان حافظ - الذى كان وزيراً للداخلية ونائبا لرئيس مجلس الوزراء - ومحمود الديب - وهو لواء فى الشرطة يمت إلى الرئيس محمد نجيب بصلة قرابة أو صداقة ، وانطون عساف - وهو صحفى مصرى من أصل لبنانى . وسليمان حافظ برىء مما نسب اليه ، فقد كان يعمل طوال الوقت على أساس أن الرئيس محمد نجيب من جهة ، وجمال عبد الناصر من جهة أخرى ، جماعة واحدة . تختلف فيما بينها فى التفصيلات ، ولكن تتحد فى الأهداف . وقد تحدثت معه عند ظهور أول بوادر الانشقاق . فقال : « وأنى لنا أن نعرف أن العسكريين كانوا جبهتين ، وكل الدلائل تؤكد انهم كقبضة اليد ؟! » ..

ولقد عجبت اذ سمعت أن انطون عساف ، قد اصبح شخصية سياسية ذات خطر ، فقد زاملته فى معتقل الزيتون خلال الحرب العالمية الثانية ، ضمن مجموعة من اللبنانيين المتمصرين ذوى الميول النازية . ولم نكن نأخذه ولا نأخذ كلامه مأخذ الجد فى تلك الفترة . ويروى الرئيس نجيب كيف وقع اعتقاله فى كتابه (كلمتى للتاريخ) فيقول : ان اليوزباشى (النقيب) كمال رفعت ، ومعه اليوزباشى داوود عويس ، طرقا باب داره بعد منتصف الليل وأدخلاه فى سيارة ، مضت به وبهما إلى مبنى سلاح المدفعية بألماظة . حيث ترك إلى ظهر اليوم التالى . ثم جاءت سيارة (جيب) . وبها اليوزباشى (حسن التهامى) ومعه خمسة من الضباط . ودارت به السيارة فى الصحراء دورة ثم عاد إلى منزله .

وفى مساء اليوم التالى ٢٧ من فبراير سنة ١٩٥٤ ، اصدر مجلس قيادة الثورة ، بيانا جاء فيه : « انه حفاظا على وحدة الأمة ، يعلن مجلس قيادة الثورة عودة الرئيس اللواء محمد نجيب رئيسا للجمهورية . وقد وافق سيادته على ذلك » .

* * *

وفى ذات يوم .. كنت اتحدث مع « عبد الناصر » عن بعض احداث الماضى ، فقال : « لقد اقترح اعضاء مجلس قيادة الثورة فى ٢٦ من فبراير سنة ١٩٥٤ اعتقال (نجيب) ، لكننى عارضت ذلك بشدة . وقلت لهم إن (نجيب) يمثل للناس الآن معانى احسن مما نمثل نحن لهم ، فهو رمز عودة الحياة النيابية ، واطلاق سراح المعتقلين ، وترك الحكم للمدنيين ، واستئناف الأحزاب القديمة نشاطها . أما نحن .. فاننا نمثل القيود والحكم العسكرى . فلابد من فترة تهدأ فيها العاصفة ، ويظهر للناس أننا نمثل قيما جديدة أعلى وأسمى من قيم العهد الذى جئنا نزيله . ولكنهم لم يأخذوا برأيى . فكان ماكان . ولما رأيت وجوب اعتقال نجيب فى نوفمبر سنة ١٩٥٤ لأنه فقد كل ركائزه ، ولأن وجوده فى قصر عابدين داع إلى البلبلة لكثرة ما يردده لزواره – ولا سيما من السودانيين – من شكاوى وانتقادات ، فهو ازعاج لا مبرر له ، وان كان لا يزيد على أن يكون ازعاجا . وقد كان باقى اعضاء مجلس قيادة الثورة ، أو أكثرهم ، يعتبرون ان اخراج نجيب من رياسة الجمهورية ، واعتقاله ، سيجدد الاهتمام به ، وقد يدفع بعض الساخطين هنا أو هناك إلى الاقدام على عمل محدود ولكنه طائش ، ويكلفنا بعض الجهد بغير داع .. وتغلبت نظريتى ، وتم عزله ، بأقل الجهد من جهة ، وبلا أى أثر يذكر من جهة أخرى » .

• لواء .. من اللواء ؟!

ولقد اصبح الضباط الشبان ، منذ وقع الشقاق بينهم وبين الرئيس نجيب ، شديدى الحساسية لكل ما يتصل بنجيب ، ولم يعودوا يطيقون سماع حتى مجرد اسمه . وقد حدث ونحن نتناقش فى احد اجتماعات المؤتمر المشترك الذى يضم الوزراء العسكريين والمدنيين أن قلت عبارة لا أذكرها الآن بالضبط ، ولكننى اذكر أننى استخدمت كلمة (لواء) وأنا أقول : « ان كل حركة تحتاج إلى وعاء يضم أفكارها ، ويحتوى على رجالها ، ولابد لها من (لواء) يرمز لها ويشير اليها » . فانتبه « عبد الناصر » قائلا : « لواء ؟ من اللواء ..؟ » .

فقلت له : « لا اعنى (لواء) فى الجيش ، انما اعنى علما ، راية ، رمزا . » فقال ، وقد استراح : « اه مفهوم .. » .

ثم حدث أن اجتمع نفس المؤتمر المشترك فى مقر مجلس الأمة ، ولم يكن من المنتظر حضور « نجيب » اليه ، لأن « عبد الناصر » ، كان لا يزال يشغل منصب رئيس الوزراء الذى تولاه فى فترة الخلاف مع « نجيب » واستقالته من منصب رئيس الجمهورية . فقال « عبد الناصر » ، بينما الوجوم والتجهم يعلوان وجهه : « هل نقتله لكم ونستريح ؟ » ولم يكد يتم هذه العبارة ، حتى دخل « نجيب » ، وأعلن أنه قد سامح كل الذين اعتدوا عليه ، وانه غفر جميع الأعمال التى وقعت فى حقه .

ثم انعقد مجلس الوزراء فى مقره المعتاد بشارع مجلس الأمة برئاسة محمد نجيب . وكان قد اتفق على اعداد بيان يتلوه « صلاح سالم » من الاذاعة اعتذاراً عما صدر فى حق « نجيب » خلال فترة الخلاف . وكان « صلاح » قد أطلق لسانه فى « محمد نجيب » بعبارات شديدة الأقذاع ، فصعدت إلى مكتبى بنفس المبنى ، وكان يعلو قاعة المجلس ، وقضيت فترة اكتب فيها كلاما أحاول فيه ألا أمس أحدا ، ولا أجرح احدا ، ولا أنكأ جرحا . وبعد طول الجهد ، كتبت بضعة اسطر ، قرأتها على عجل فلم أفهم منها — وأنا كاتبها — شيئا ذا معنى ، فلما استبطأونى ، هبطت بالورقة وتلوتها على المجتمعين . ولفرط دهشتى ، وجدت الجميع معجبين بها ، راضين عنها ، وقد هنأنى بعضهم . وشكرنى كل من « صلاح سالم » .. و« نجيب » عليها .

ولقد استمعت إلى تلك الكلمة وهى تذاع ، فلم أزدد فهما لها ، ولكنها حققت غرضها . وفى السياسة .. ليس مطلوبا دائما أن نقول اشياء تفهم ، بل يقصد فى بعض الأحيان ، أن تقال اشياء (تسد الخانة) .

وقد أقام (عبد الحكيم عامر) بعد ذلك حفلة كبرى بنادى الضباط بالزمالك ابتهاجا بالوفاق المرجو ، وكان أكثر المشتركين فى الحفلة يشعرون فى اعماقهم بأن الحفلة يظللها شعور بالكآبة والأحساس بالزيف .

ثم أقام أحد الوزراء المدنيين حفلة أخرى ، وفيها ، حدثنا الدكتور عبد الرزاق السنهورى انه وضع مشروع قانون ، لحسم ما قد يجد من منازعات واختلافات بين الرئيس نجيب من جهة ، والضباط الشبان – وعلى رأسهم « عبد الناصر » – من جهة أخرى ، وقد كان تكوين هذه اللجنة من ستة اعضاء :واثنين يقترحهما رئيس الجمهورية – أى « نجيب » – اثنين يقترحهما مجلس القيادة ، وواحد تختاره الجمعية العمومية لمحكمة النقض ، وواحد تختاره الجمعية العمومية لمجلس الدولة . فقلت لأستاذى وأستاذ القانونيين – الدكتور السنهورى : « إن القانون لا يحترم فى دنيا السياسة ، كما لا يحترم فى دنيا الحرب ، والاتفاق الذى تقترحه أشبه شىء بلجنة تحكيم تقترح بين الأرض والزلازل ، أو بينها وبين العواصف ، أو كمن يدخل فى حلبة صراع بين رجلين بين أسنان كل منهما سكين قاطع يود أن يبتر به رأس خصمه .. وصاحب القانون يتلو عليهما من نصوص قانونه ما طاب له ، ولا أحد يلتفت اليه ، وقد تصيبه من سكين احدهما ضربة تقضى عليه » .

فاحمر وجه أستاذى ، وسكت ، وطوى الورقة .

★ ★ ★

وفى هذه الفترة العصيبة وصل المرحوم الملك سعود ، وكنت قد سافرت إلى مكة لمصاحبته على رأس بعثة الشرف ، فى أولى زيارات ملك سعودى لحكومة الثورة . وكان الملك عبد العزيز آل سعود قد توفى منذ بضعة أشهر . وقد شاءت الظروف أن يكون له دور فى أزمة الحكم فى مصر . وفى ابان الأزمة ، قضت الظروف أن يسافر الملك إلى الأسكندرية ، وكان البرنامج الموضوع لهذه الرحلة ، أن يكون رئيس الجمهورية

فى صحبته ، فى حين أن القواعد المرعية ، تقضى بأن رئيس الدولة يستقبل الضيف ويودعه ، ويدع صحبته فى باقى التنقلات لرئيس الوفد المرافق ، إلا التنقلات ذات الدلالة السياسية ، كحضور جلسة للبرلمان ، أو حضور مناورة عسكرية . ولذلك فلم يكن ثمة ما يدعو الرئيس نجيب لمصاحبة الملك ، والبلد يغلى ، والأحداث تتزاحم . ولكنه سافر فى قطار الصباح ،

وكانت الصحف قد نشرت حديثا معزوا إلى الرئيس نجيب مع (مصطفى النحاس باشا) ، أظهرت فيه الرئيس فى ثوب المتلطف للنحاس ، والمتبرىء من أعمال الثورة .. وأن ميوله مع الأحزاب القديمة .. وقد بدا على الرئيس نجيب انشغال البال بأثر هذا الحديث فى نفوس الناس، وخشى أن يتهم بأنه ضد قرارات الثورة لاصلاح أسس السياسة فى مصر ، وتطهيرها من الفساد . وقد سألنى : « أيعلن فى خطبة أنه لا يود عودة الأحزاب القديمة والفاسدة ، بل عودة أحزاب جديدة صالحة ؟ » . فقلت صادقا : « لا تقلق على الأمر كلية . فالاحداث وصلت إلى درجة لم تعد التصريحات والتصريحات المضادة تلعب فيها شأنا ذا قيمة . لقد انتقل الصراع من ميدان الرأى العام إلى ثكنات الجيش » .

ولما وصلنا إلى الأسكندرية ، واتجه موكبنا إلى « أبى قير » على الكورنيش ، استأذن نجيب من الملك ، تركه عند ناد للضباط على البحر ، ودعيت على عجل لأن أجلس إلى يسار الملك . ولما عدنا فى المساء لم يكن الرئيس معنا . فقد عاد وحده بطائرة . وتناولنا العشاء فى « هليوبوليس بالاس » بدعوة من تاجر سعودى ، لعل اسمه « البطبيشى » .

ولقد ادهشنى أن الملك – بعد يوم شاق كثير التنقلات ، ملىء بالمفاجآت – كان صافى المزاج ، يروى بعض الطرائف ، ويضحك عليها .

وبعد منتصف الليل – فى نحو الساعة الواحدة صباحا ، ذهبنا إلى قصر الطاهرة ، فاستأذنت من الملك فى ان استريح قليلا .. واخذت مقعدا وجلست فى شرفة مطلة على حديقة القصر ، التى بدت فيها أشجارها الطويلة الأنيقة ، وكأنها اشباح تبعث فى قلوبنا الخوف والفزع . فقد ترامت الينا اخبار بوادر صراع عسكرى قد يغرق البلد كلها فى بحر من الدماء . وفجأة لمحت الرئيس نجيب يقطع البهو فى الدور الأول مسرعا ، بخطى لست أدرى لماذا بعثت فى نفسى شعورا بالقلق ، فقد خيل إلى أنها فى تعاقبها وسرعتها ، كأنها تروى نبأ كل ما يجرى وما سيجرى .

وجاء « عبد الناصر » – وعلمت فيما بعد أن « عبد الحكيم عامر » كان معه ، ولكننى لم ألحظ دخوله مع جمال – ثم جاء « السنهورى » فشعرت بعدم ارتياح لمشاركته المباشرة والصريحة فى شئون السياسة .. الأمر الذى قد لا يتفق تماما مع مركزه على رأس أعلى محاكم الدولة الادارية .

وانفض الاجتماع على مصالحة جديدة .

ومضيت إلى بيتى ، وقلبى مثقل بالهم ..وفى الصباح ودعنا الملك فى المطار ، وكان كل من معى فى الوفد المرافق لى والمصاحب للملك ، يلح على فى أن نصحب الملك فى العودة . ولكن أهل الفتوى فى دنيا التشريعات ، قالوا ان الملك ليس عائدا لوطنه .. بل إلى الكويت . ومن هنا .. فلا يجوز للوفد المصرى أن يرافقه ، لأنه بعمله هذا ، انما يفرض ضيافته على دولة لم تستضفه ، وربما لا تود أن تستضيفه .

وسلمت على الملك مودعا ، وتوجهت إلى مكتبى ، لكنى قبل أن اصل اليه ، علمت أن الرئيس نجيب أغمى عليه ، وسمعت تعليقا على إغماء الرئيس ، باعتباره احدى حيل الرئيس لاستدرار العطف عليه . واجتمعنا فى نفس اليوم – أو فى اليوم التالى لست أذكر جيدا – فى بيت « محمد نجيب » الصغير فى حلمية الزيتون ، على مائدة بسيطة ، أشبه شيء بمائدة فى بيت موظف متوسط . وقد سبق أن سمعت تعليقا من « عبد الناصر » على بيت نجيب المتواضع ، وكان « عبد الناصر » يعتبر هذا الأسراف فى التواضع ، مبالغة لا معنى لها ، وقد أحسست من هذا التعليق ، أنه يعتبر هذا التقشف لونا من « التهريج » .. أو « التظاهر » . فقلت له : « الحق أننا فى أشد الحاجة إلى هذا (التهريج) .. لو سلمنا ، جدلا ، انه كذلك » . فهز « عبد الناصر » كتفيه .. ولم يعقب ..

وفيما نحن نتناول الغداء .. وصلت انباء ذلك الاضراب المحكم الذى اعلنه اتحاد عمال النقل ، والذى شل كل حركة فى البلد ، واتعب الناس ، وعطل مصالحهم . فصدرت من السيد وزير العدل – المرحوم أحمد حسنى – عبارة ، وجهها إلى المرحوم « جمال سالم » ، قائلا : « الناس تعبت من الاضراب .. ويحسن أن ترفعوه » . فصرخ جمال سالم : « ومالنا نحن والاضراب .. الاضراب اضراب العمال .. كل شيء ينسب الينا ويلصق فينا ؟! » .

ثم جاءت انباء زحف مظاهرة إلى دار مجلس الدولة ، وأن المتظاهرين أحاطوا بالدار ويمنعون من فيها من الخروج وعلى رأسهم رئيس المجلس « عبد الرزاق السنهورى » ، فاقترحت أن يذهب فى الحال عضو من اعضاء مجلس القيادة يكون معروفا للجماهير ليفض المظاهرة بسلام ، واقترحت أن ينتدب « صلاح سالم » لهذه المهمة التى قبلها بارتياح . وقد سمعنا – بعد ان غادر صلاح سالم المنزل – أن المظاهرة يقودها ضابط مخابرات يدعى « حسين عرفة » ، وأن السبب فى هذه المظاهرة ، وفى اتجاه المتظاهرين إلى مجلس الدولة ، هو نبأ نشر فى جريدة الأخبار بأن الجمعية العمومية لمجلس الدولة انعقدت للنظر فى الشئون العامة ، وتسربت إلى الناس اشاعة أن المجلس سيصدر قرارات تؤيد عودة الحياة النيابية ، ورجوع الضباط إلى ثكناتهم .

ولقد كذب كثيرون ممن كتبوا عن هذه الواقعة ، فيما بعد ، هذه الاشاعة ، وقالوا ان مصدر هذه الاشاعة هو مجلس قيادة الثورة ، ليتخذ منها ذريعة لضرب السنهورى ، والاعتداء على مجلس الدولة كصورة من صور التأديب للقضاء والقضاة ، والمؤسسات التى قد تقف فى وجه الثورة .

وقد أورد الرئيس نجيب فى كتابه (كلمتى للتاريخ) : « أن مجلس الدولة انعقد فعلا ، واصدر قرارا بتأييد الديمقراطية والحياة النيابية وقرارات ٥ و٢٥ مارس » ، وقال بالحرف الواحد : « وقد اعتدى المتظاهرون على الدكتور عبد الرزاق السنهورى وعلى باقى الأعضاء بالضرب الشديد ، ومزقوا القرار الذى اتخذ .. » .

وبهذا الحادث مضى عهد حافل من عهود الثورة .

الفصل الثالث

قذائف ولطائف في مجلس الوزراء

فى السابع من سبتمر ١٩٥٢ .. بعد أن لقينى « سليمان حافظ » على مقربة من مبنى ادارة قضايا الحكومة . وبعد أن علمت منه أن تشكيل وزارة جديدة سيتم ظهر هذا اليوم ، وأننى مدعو للاشتراك فيها ، وأنه اعتذر عن أن يرأسها ، بعد أن رشحته، فى الخامس من سبتمبر ١٩٥٢ لهذه الرياسة للضباط الشبان الذين قاموا بالثورة ، وبعد أن قبلوا هذا الترشيح ، وفاتحوه فيه فاعتذر عن قبوله ، ورشح بدلا منه الدكتور عبد الرزاق السنهورى ، صديقه .. وزميله ، منذ كانا تلميذين فى مدرسة رأس التين الثانوية – ثم انتهى الأمر ، فى صباح يوم ٧ سبتمبر فى سنة ١٩٥٢ ، بأن تقرر أن يتولى اللواء محمد نجيب رئاسة الوزارة . فذهبت إلى مبنى قيادة الثورة فى كوبرى القبة بعد أن انتهت عملية الترشيح ، والاعتذار ، والقبول . وانتقلت الوزارة الجديدة إلى سراى عابدين لتجرى مراسم التشكيل من اعداد الوثائق ، واداء اليمين . وقد تم ذلك فى المساء المتأخر . فذهبنا إلى سراى عابدين فى عربتى الصغيرة ، « الهيلمان » وأنا منهك القوى ، شاعر بالتعب .. وبالسأم .. وبشىء من الضيق . وقد كنت مندهشا ، غاية الاندهاش ، من هذه الحالة التى شملتنى وكان من الطبيعى أن أكون سعيدا مبتهجا .. سواء اذا نظرت إلى الأمر من جانب شخصى ، أو من جانب عام .

فمن الجانب الشخصى .. ها أنا أدعى إلى الاشتراك فى الوزارة .. والوصول إلى منصب الوزارة فى مصر ، وفى العالم كله ، فى القديم والحديث هو مرتبة من مراتب النجاح للشخص ، وهى خطوة نحو تحقيق اهداف هذا الشخص العامة – اذا كان صاحب مبادىء . واهدافه الذاتية – اذا كان طامعا فى الجاه ، مؤملا فى أن يجنى من وراء منصب الوزارة ، المال ، والنفوذ ، لنفسه ولذويه .. ولأنصاره .. ولمن يحب !.

* * *

على أن الوزارة التى دعيت للاشتراك فيها ، هى أولى الوزارات التى يمكن أن تحول الثورة التى قامت فى مصر – قبل أقل من شهرين من تأليفها – من آمال ، وأحلام ، إلى حقائق ، وواقع . فهى ليست مجرد وزارة . وإنما هى « نقلة » فى تاريخ بلدى ، لن تلبث أن تكون « نقلة » فى تاريخ العرب ، وربما خطوة فى تاريخ الإنسانية كلها .. باعتبار أن العالم مترابط ، وأن ما يحدث فى جانب منه .. لا يلبث أن يترك آثاره ، وصداه ، فى جوانب الدنيا الأخرى

مهما نأت عنه . هذا كله .. فى ملاحظة أنى لم أكن مجرد سياسى يدعى للاشتراك فى وزارة ذات مهام شاقة بل إن الظروف اكرمتنى وجعلت لى دورا فى تأليف هذه الوزارة .. وفى اختيار اشخاصها ، وفى توجيه الأمور المتعلقة بها ، والمتفرعة عنها .

فلماذا ، اذن ، هذا الشعور بالانقباض وخيبة الأمل، والملل ؟.

ولعل مساومات الصباح جعلت نظرتى للأمور ، متسمة بالتشاؤم . فها نحن أولاء فى أعقاب ثورة ضخمة . ولكننا ، مع ذلك ، حينما نتكلم فى تأليف وزارة تبدو المطامع الشخصية والحزبية .. حينما ندعو الناس للوزارة ، لا نجد مظهرا للمبادىء وحينما نتهيأ لتشكيل حكومة وطنية ، ترانا مضطرين إلى جمع عدد من الناس من هنا وهناك .. دون أن تربطهم علاقة من رأى ، ولا صلة من جهاد سابق ، بل دون أن يجلس بعضهم إلى بعض ولو لمدة نصف ساعة ، يتساءلون : « ماذا سيفعلون » . ثم يجيبون على هذا السؤال .. ولو بكلمتين .

إن بعض الوزراء فى هذه الوزارة ، لم يكن يعرف أسماء بقية أعضائها !!. بل لعله لم يسمع بها من قبل . وبعضهم لو قيل له — قبل دخوله الوزارة بنصف ساعة — أنه سيشتغل بالسياسة ، لاستلقى على قفاه من الضحك !! ومنهم من لو قيل له أنه سيشترك — مع بعض الذين زاملهم فى الوزارة — فى رحلة راحة واستجمام ، لرفض أن يسير معهم فى طريق . وقد كان من الوزراء من دخل هذه الوزارة ، لأن صديقا ذا نفوذ رشحه لها .. كل هذه المعانى جالت فى خاطرى .. ربما بوضوح أقل ، ولكنها لابد وأن تكون قد عبرت إلى وجدانى فألقت فيه غير قليل من القتامة .

* * *

دخلنا سراى عابدين ،بملابسنا العادية . وكنت ، على وجه خاص . لم أغير ثيابى منذ الصباح ، ولم استرح ولو لبضعة دقائق . وتناولت طعاما خفيفا عند الظهيرة ، ولم أحصل على نصيب من النوم بعد الظهر — كعادتى — يعيننى على مواصلة النشاط حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، كما حدث ، ومن هنا ، فاننى حينما دعيت إلى « حلف اليمين » تصورت أن لو أن الملك المعزول « فاروق » استطاع أن يخترق الحجب . وأن يرانا — ويرانى أنا بصفة خاصة — فى « سترة بيضاء » تثنى قماشها وترهل ، لطول ما جلست وسرت بها نحو خمس عشرة ساعة كاملة .. دون انقطاع ، لفجع . اذ أصبح « القصر الملكى المقدس »

يستقبل وزراء فى ثياب كثيانى . وهو الذى لم ير سوى وزراء فى ملابس (الردنجوت) والنساء فى أجمل ثياب السهرة . بل لعل خدم القصر ، فى هذه اللحظة ، كانوا أكثر اناقة منا . وأحق منا بالوزارة .. اذا قيس الأمر بالثياب ، وبالمظهر !!.

* * *

انتشر زملائى الوزراء فى قاعات القصر ، يتجاذبون أطراف الحديث .. وتركونى أكتب خطاب تأليف الوزارة إلى « مجلس الوصاية » الذى كان مكونا من أحد الأمراء – سمو الأمير محمد عبد المنعم – ومن أحد كبار الساسة فى العهد السابق للثورة – الدكتور محمد بهى الدين بركات (باشا) الأستاذ الأسبق بكلية الحقوق ، ثم رئيس مجلس النواب ، فرئيس ديوان المحاسبة ، وواحد من أغنى أغنياء مصر – واخر ضابط سابق بالجيش ، لم يبلغ فى سلم رتبه أكثر من رتبة العقيد (القائمقام) – وهو السيد محمد رشاد مهنا – وقد كان هناك إلى جانب خطاب تأليف الوزارة المعبر عن سياستها ، وثائق أخرى تعد ، وتجهز ، صبرت على إعدادها ، ثم أدينا اليمين ، وتلقينا التهانى وانصرفت إلى بيتى وقد أوشك النهار على الطلوع ، بينما رأسى يكاد ينفجر من التعب الجسمانى ، والجوع ، والتوتر العصبى ، وعدم الرضا .. وعبثا حاولت النوم فى تلك الليلة حتى كاد الفجر أن يشرق . فغفوت على أريكة ساعة أو بعض ساعة ، استقبلت بعدها يوما .. بل أياما مشحونة بالحركة . وبالكلام وبالأحاديث ، والمقابلات ، وبالرجاءات . وبالانتقادات .. الخ .

* * *

واخيرا .. انعقد مجلس الوزراء برئاسة اللواء محمد نجيب ..

وقد كانت جلسات مجلس الوزراء فى أول الأمر ، هادئة .. ليس فيها ما يستحق أن يذكر . فلامناقشات حادة ، ولا خلافات عنيفة . وقد أضفى عليها الرئيس محمد نجيب غير قليل من طيبته ، وانسانيته ، ولطفه ، ولا زلت أذكره « وغليونه » إما فى فمه .. وإما بين يديه يحشوه بالدخان وهو يتكلم ثم ينصرف بعد قليل من بداية الجلسة ، وعصاه وعدد كبير من الكتب ، والصحف والمجلات تحت ابطه . وقد كان من حظى أن أجلس على الطرف

الاخر من طاولة الاجتماعات فى المجلس . اذ أبى زميل لى كان يعمل فى سراى عابدين ، قبل الثورة .. واستمر فيه بعدها – أبى إلا أن يضعنى فى ذيل الوزارة . فقبلت دون مراجعة .. لأن التقدم ، والتأخر « البروتوكول » لم يشغلنى ولو للحظة . وكان من نصيبى أن أحدد للسادة الوزراء الراغبين فى الكلام ، دورهم فى الكلام . ولما كنت قائما بأعمال (الإعلام) ، لأن « الاذاعة » اسندت الى ، فقد كان من واجبى أن ألخص ما يجرى فى المجلس من مداولات ، وأن أذيع ما انتهى اليه من قرارات .

وعلى الرغم من هدوء جلسات مجلس الوزراء ، إلا انها كانت طويلة طولا لم يعهده مجلس وزراء ، لا فى مصر ، ولا فى غيرها !! فقد كانت تبدأ الساعة العاشرة صباحا ، أو الحادية عشرة ، وتستمر حتى ما بعد منتصف الليل . وقد عبرت إحدى الصور الكاريكاتورية عن هذه الظاهرة الجديدة . فصورت أحد الوزراء صاعدا درجات سلم منزله ، وفى يده حذاؤه حتى لا يوقظ زوجته فتعرف فى أية ساعة متأخرة عاد إلى بيته .. كأنه كان فى سهرة محرمة !!.

وقد ترتب على هذه الجلسات الطويلة أن عددا من الوزراء كان يستغرق فى النوم أثناءها !! وكان المرحوم اسماعيل القبانى وزير المعارف (التربية والتعليم) لا ينام فقط .. وإنما يسمع له « شخير » عال .. وهذا لا يغض فى أنه كان عالما فاضلا ، ومواطنا شجاعا .. يدافع عن رأيه وكرامته بلا هوادة .. وقد كان الرئيس يحتاج فى بعض الأحيان إلى ايقاظ الوزراء من نومهم ، ليأخذ آراءهم فى المسائل المعروضة .. ولهذا أصبح من فكاهات المجلس المتداولة ، عبارة قلتها مرة ، وهى : « الموافق من حضراتكم يصحى .. » بدلا من « الموافق يرفع يده » !! لم يكن السهر مقصورا على جلسات مجلس الوزراء ، وإنما شمل لجانه الفرعية .. وفى إحدى اللجان – وكانت برئاسة المرحوم جمال سالم – سهرنا حتى الصباح تماما لمناقشة قانون المرور ! ولكن مندوبى الصحف الذين ناموا على مقاعد مبنى مجلس الوزراء ، كانوا يظنون أن هذه اللجنة تبحث مسألة من أخطر مسائل الدولة . فلما خرجنا لنستقل السيارات إلى منازلنا ، كان منظر هؤلاء الصحفيين ، اشبه بصرعى ميدان قتال .. فمنهم من انكفأ على وجهه على منضدة إلى جواره . ومنهم من تمدد على ظهره . ومنهم من افترش أرض المجلس ، وراح فى نوم عميق وهادىء !! ولما وصلت إلى ميدان « العتبة الخضراء » العريق .. وقد طار النوم من عينى من فرط الاجهاد العصبى ، رأيت فى السماء

نورا ساطعا يكتب بحروف فى لون بين الأزرق والأخضر .. كلمة « يارب » ! فخيل الى أننى أحلم ، أو أن سهر الليل أتعب أعصابى فجعلنى اتخيل مالا وجود له ، فهتفت مخاطبا سائق السيارة : « ياحاج عبد العزيز : ألا ترى ؟ » . فقال الرجل بهدوء : « خير » .. قلت : « ألا ترى أن السماء قد اضاءت بلفظ الجلالة .. إنها ظاهرة لها دلالتها » . فضحك الرجل – وكان قد اعتاد أن يمر من هذا الميدان كثيرا فى مثل هذه الساعة ، فى طريقه إلى بيته – فقال : « هذا اعلان بنور الكهرباء ، عن محل رجل يهودى اسمه ديارب » .. فضحكت من نفسى طويلا .

وفى هذه الليلة الطويلة .. كان يتخلل مناقشاتنا بعض الدعابات وتبادل الفكاهات . وقد قال لى المرحوم جمال سالم ، فى مرة من هذه المرات التى كنا نضحك فيها ، ان ما يقوله أحد الأعضاء فى التعليق على مادة من مواد القانون الذى كنا نناقشه يذكره « بقصة البربرى » . فلما سألته : « وما هى هذه القصة ؟ » . قال : « سأرويها لك بعد أن ننتهى من مناقشة هذه المادة » .

وطالت المناقشة حتى استنفدت ساعة وبعض ساعة . فلما فرغنا منها ، استنجزت « جمال سالم » وعده ، وطالبته بأن يحكى لى « قصة البربرى » التى وعدنى بها ، فقال متسائلا : « أى بربرى !؟ ماهم البرابرة كتير » !!. وكان هذا الرد كفيلا بأن ننفجر فى الضحك وأن نكف عن العمل بعد ذلك ، اذ ثبت من سؤالى .. ومن جوابه ، اننا لم نعد صالحين للاستمرار فى العمل .

* * *

وقد كانت هذه السهرات سببا فى اشاعة أن « وزراء الثورة » متقشفون .. وذلك لملابسة غير مقصودة . فقد حان موعد الغداء يوما ، فاقترح أحد الوزراء أن نطلب بعض (الطعمية) والجبنة ، والخيار ، (وساندوتشات الفول المدمس) . من قبيل التغيير من جهة ، وتيسيرا على موظفى مجلس الوزراء الذين كلفناهم بإحضار الطعام ، من جهة أخرى !! فالتقشف لم يكن مقصودا ، ولا هو مر بخاطر أحد . فلما سئم الوزراء من الطعام الواحد ، وطلبوا أنواع اللحوم المشوية ، كانت تعليقات الناس: « إن الوزراء الذين بدأوا بالطعمية والفول المدمس – خداعا للجماهير ، واستجلابا لحسن ظنها – كشفوا عن حقيقتهم ، وأكلوا الفاخر من اللحوم ، والفاكهة ، والفطائر !.

ولم يخل الحال فى مجلس الوزراء من مصادمات صغيرة ، منحت الجلسات مذاقا حاميا . من ذلك : أن المرحوم الدكتور عباس عمار ، عاتب زميله اسماعيل القبانى لأنه لم يرق أحد أقاربه الأقربين – وكان من كبار موظفى وزارة المعارف – إلى وظيفة وكيل وزارة . وكان الظن أن المرحوم القبانى سيرد على هذا العتاب الهادىء بأحد الأعذار التقليدية التى يرد بها الناس ، عادة ، فى مثل هذه المواقف . ولكن الوزراء فوجئوا بالأستاذ القبانى يرد على زميله قائلا : « اننى لم أرق قريبك لأنه منافق .. » ووجم الدكتور عباس – رحمه الله – واستمر القبانى يقول بهدوء :

« إن الناس تظن أننى محسوب على الدكتور طه حسين وأن له أفضالا على ، وهذا غير صحيح » .. ثم قال القبانى : « ولما كنت أعرف أن قريبك مدين ، فعلا ، للدكتور طه حسين ، ولأنه يعلم أن بينى وبين الدكتور طه خلافا فى الرأى ، فقد ظن أن تبرأه من الولاء لطه حسين سيكسبه عطفى ، فدعانى هذا الموقف إلى الاشمئزاز . وقلت له : « لماذ تقول لى هذا .. أنا أعلم أن للدكتور طه أفضالا عليك ، ولا داعى لإنكارها .. فإن هذا لن يقربك الى .. ولن ترقى فى عهدى » .

وقد كان هذا القول تجديدا فى مناقشة الوزراء . وفعلا لم ينل هذا الموظف الكبير خيرا فى عهد « القبانى » ، وإن كان قد عوض عن ذلك فى العهود التالية حتى وصل إلى منصب الوزير !!.

* * *

ومن هذه المواقف الحادة ، أن منصبا كبيرا ذا خطر خلا من شاغله . ودار البحث فى مجلس الوزراء حول الأشخاص الذين يصلحون لشغله ، فرشح لذلك اثنان كانا – بطريق الصدفة المحضة – من الأصهار الأقربين إلى أحد الوزراء . بل كان أحدهما والد زوجته مباشرة . بينما كان الثانى ابن عمها ، فإذا بهذا الوزير يعترض على الترشيح ، ولا يكتفى بالاعتراض . وإنما يسوق لاعتراضه اسبابا ، فوالد زوجته – فى رأيه – لا يصلح (لأنه دساس) !! وقالها – بالصعيدية – « مقلبجى » – بالجيم المعطشة – أما الثانى .. « فلا يصلح لأنه (ساقط المروءة) . وقد بلغ من سقوط مروءته ، انه تحاشى زيارة عمه ، لما علم أنه محل سخط احدى الوزارات الحزبية قبل الثورة . بل كان يتحاشى أن يتبادل معه التحية

فى الطريق » !!.

والغريب أن هذا الكلام كله نقل إلى الرجلين ، فجاء احدهما يسألنى عن صحة ما دار فى المجلس بشأنه . فقلت له : « ألا تعرف يا سيدى أن افشاء مداولات المجلس جريمة ؟ » فقال : « سأرفع دعوى تعويض على الوزير الذى سبنى وسآتى بك إلى المحكمة لتشهد ، لأنى أعلم أنك لا تكذب » . فقلت له : « إن القانون — يحمينى من أداء اليمين ، ومن الإفضاء بما دار فى جلسات مجلس الوزراء » .. فقال وهو ممرور : « وتقولون ثورة ؟ » ! .

* * *

لقد كان قلبى معه . وكنت شديد الاعجاب به ، عظيم الرغبة فى أن يشغل ذلك المنصب الذى كان يليق به . ولكن الوزراء تأثروا ، غاية التأثر ، بشهادة زميلهم من ذوى قرباه ، وعدوا ذلك دليلا على أننا فعلا نعيش عهدا ثوريا .. اذ قال أحدهم ، ونحن منصرفون .. وكأنه يعرف الحقيقة : « لا يليق أن تنقل الخصومات العائلية وأحقادها ، إلى مجلس الوزراء » !!.

* * *

وحدث ذات ليلة ، أن دار الحديث فى مجلس الوزراء فى شأن شغل منصب (شيخ الأزهر) . فرشح أحدهم « فضيلة الشيخ الخضر حسين » لشغل هذا المنصب ، وكان « الشيخ الخضر » رجلا فاضلا ، وعالما واسع العلم ، ترك اثارا أدبية ، وفقهية ، ودروسا فى الأخلاق الإسلامية ترفعه إلى مصاف الأئمة الصالحين ، والدعاة المرشدين . ولكن الرجل كان يعانى ، منذ صباه ، شللا يظهره أكبر من سنه ، ويبدى عجزه عن الحركة والكلام . ولكن ذلك المظهر لم يكن يمثل الواقع فى كثير أو قليل . فقد كان الرجل حاضر الذهن ، شجاعا قادرا على أن يقرأ ، ويكتب ، ويدرس .

وقد رأى مجلس الوزراء أن يوفد ثلاثة من الوزراء إلى بيت « الشيخ الخضر » ، ليروا ما اذا كان فى حالة صحية تسمح له بتولى هذا المنصب الجليل . وكنت واحدا من هؤلاء الثلاثة . وقد خرجنا من مبنى مجلس الوزراء سيرا على الأقدام إلى منزل فضيلة « الشيخ

الخضر » ، عليه رحمة الله ، وتعقب الصحفيون خطانا ، ونشروا لنا صورة كتبوا تحتها : « ثلاثة من الوزراء يخرجون من المجلس .. بحثا عن شيخ للأزهر »!.

والشيخ الخضر تونسى الأصل ، وقد حكمت عليه محاكم الاحتلال الفرنسى فى تونس بالموت . فلجأ إلى بعض البلاد العربية . ثم ألقى عصا التسيار بمصر . وباشر فيها نشاطا تربويا ، وتثقيفيا ، وإرشاديا عظيم النفع . فكثر مريدوه ، وكانت له آثار قلمية على أعلى ما يكون التأليف الإسلامى .. فكرا ، وحسن أسلوب ، وبساطة عبارة ، وصدق لهجة . ولم أعرف من شيوخ الأزهر الذين عملت معهم ، أثناء اشرافى على شئون الأزهر – بوصفى وزيرا للدولة – أو بعد تلك الفترة ، رجلا يحمل استقالته فى جيبه ، وكأنه المؤمن الذى لا ينتقل من مكان إلى مكان إلا وقد حمل كفنه معه ، كما رأيت « الشيخ الخضر » .. ولم يسمح الرجل لنفسه أن يساير الحكومة ،ولا أن يردد كلامها ، ولا أن يخاصم خصومها . ولكن مظهره جنى عليه .. فحرم البلاد منه ، ومن عمله وفضله .

* * *

وقد كان مرد أكثر ما يقع من حدة فى المناقشة داخل مجلس الوزراء ، إلى أسلوب المرحومين الأخوين « جمال سالم »و« صلاح سالم » الحاد ، والصارخ . وقد وهب الله كليهما قدرة خاصة على البيان ، والمناقشة ، والجدل والسخرية مما يقوله مناظروهم ان لم يعجبهم ، وقد كان (صلاح سالم) – إن طال عمره ، واتسعت له الفرصة – مهيأ لأن يكون خطيبا متقنا لفنون القول . أما المرحوم (جمال سالم) .. فكان محدثا بارعا ، يلتقط بسرعة المعلومات التى تلقى اليه فى مختلف الأمور .

وقد حدث أن وقع بينى وبين المرحوم « جمال سالم » أكثر من تصادم فى مجلس الوزراء .. ولعل مما ساعد على وقوع هذه المصادمات ، أننى ورثت « الأخوين سالم »فى وزارتى المواصلات والارشاد القومى . وقد كانت مصادفة عجيبة . فقد وليت وزارة المواصلات من « جمال سالم » ، رحمه الله ، ثم عاد هو فتولاها بعدى . وكذلك جاء المرحوم « صلاح سالم » ، بعدى فى وزارة الإرشاد ، ثم عدت فتوليتها بعده !!.

ولما دب الخلاف بين الرئيس محمد نجيب والضباط الشبان – وعلى رأسهم المرحوم جمال عبد الناصر – استحال مجلس الوزراء إلى حلبة صراخ عنيفة . وكان الصراخ يتسرب

من قاعة الاجتماعات إلى الخارج ، فيسمعه الصحفيون وموظفو المجلس .. من ذلك الصراخ أن الرئيس نجيب ابدى يوما رأيا معينا فى أمر من الأمور فاعترض عليه « جمال سالم » . فحسمها الرئيس نجيب ، وقال : « هذا أمر متفق عليه بينى وبين جمال عبد الناصر » . فانتفض « جمال سالم » وصاح صارخا فى وجهه : « هى عزبة أبوكم أنتم الاثنين ؟! طيب ما دمتم متفقين ما تسيبونا نروح بيوتنا .. هاالله .. هاالله باس اتفقنا .. أنتم فاهيم ان احنا دلاديل .. » وتصاعد هياج « جمال سالم » .. واحتمى الرئيس نجيب بغليونه .. وبصمته .. ينفث الدخان من أولهما ، ويقيه الثانى من كلمة ، أو اشارة ، تزيد الهياج اتقادا .

* * *

وذات يوم .. زار الرئيس نجيب وحدة من وحدات الجيش . وتحدث هناك عن ضيقه باجراءات الكبت التى تعانى منها البلاد . وقال : « انه يؤمن بوجوب اطلاق الحريات . وبلغ أمر ذلك لحديث زملاءه الضباط . فلما وصل الرئيس نجيب إلى قاعة مجلس الوزراء ، وقبل أن يجلس .. وقف جمال سالم وصاح فى وجهه : « أهلا وسهلا » « بميرابو » .. ازيك « ياسى ميرابو » .. حرية .. حرية ايه اللى انت عايزها ..؟ » .

وأسرع « صلاح سالم » فانضم إلى أخيه فى الهجوم على « نجيب » .. ولم يتوقف صياح الأخوين إلا بعد وقت غير قليل !!.

وكان الدكتور محمود فوزى ، فى جميع هذه الجلسات الصاخبة ، والهادئة معا ، صامتا لا يتكلم .. ولا يبدى رأيه فى شيء .. ولا يحدث حتى زملاءه الجالسين إلى جانبيه !! وفى ذات ليلة ، نظر جمال سالم إلى الدكتور فوزى وهو غارق فى صمته سابح فى أفكاره .. وقال له : « يابختك يا دكتور فوزى بأعصابك .. ولا انت هنا .. ما تدنيش شوية من أعصابك دى وتاخذ نص عمرى » !! .

وكان للرئيس جمال ، رحمه الله عبارات تقليدية يكررها فى المجلس ، ويضحك عليها ، كما كانت له تقاليد يحافظ عليها .. وأول هذه التقاليد أن يأتى متأخرا عن موعد افتتاح الجلسة ساعة ونصف ساعة ، أو ساعة على الأقل . وذات يوم – وكان عبد الناصر قد أعلن أن هناك اجتماعا فى اليوم التالى فى الساعة السادسة – سألة كمال الدين حسين : « ستة باريس

يعنى ستة .. والا سبعة ؟ » . فضحك « عبد الناصر » و قال : « لا ياكمال . ستة يُعنى ثمانية » . وضحك بطريقته الخاصة .

وكان من « عباراته التقليدية » أن يسأل المرحوم الأستاذ أحمدحسنى وزير العدل كلما عرض على المجلس قانون : « وأين الخطاب المسجل المصحوب بعلم الوصول ؟ » . فقد لاحظ رحمه الله ، أن كل قوانين وزارة العدل فيها نص فى مادة ما من مواد هذه القوانين يلزم المواطنين بإرسال إخطار « بخطاب مسجل مصحوب بعلم وصول » . فإذا خلا قانون من هذا النص ، داعب الرئيس جمال وزير العدل قائلا : « جرى ايه فى الدنيا .. هذا قانون بلا (علم وصول) ، هل يستقيم ؟! » .

وكان يطلق على الموظف الصغير الذى يملك أن يعطل أى أمر صادر من سلطة أعلى ، بوسائله البيروقراطية ، اسم : « عبد السميع افندى » .. وكان جميع ضباط الثورة . قد حفظوا هذا الاسم ، وجرى على ألسنتهم . فأصبح « عبد السميع افندى » نظير (المصرى افندى) فى الصور الكاريكاتورية فى صحف مصر ، ولكنه رمز على الموظف المصرى الصغير البارع فى التعطيل ، والإرجاء ، والتسويف .

وكان – رحمه الله – يروى ، أحيانا ، بعض فكاهات غير مضحكة ، ثم يكون هو أول من يضحك عليها . من ذلك ما قاله من أن مؤتمراً عقد للنظر فى النحل ودراسته ، فقدم الانجليز بحثا فى طبائع النحل ، وقدم الفرنسيون بحثا فى الحياة الجنسية للنحل ، وقدم الألمان بحثا فى تحليل عسل النحل ومركباته ، أما المصريون فقد صاحوا : « النحل ياهوه » !.

وقد عاتبته يوما على هذه الفكاهات التى يروجها ضد المصريين خصومهم .. مع أن المصريين القدماء ، كتبوا عن النحل ، وعسله ، وفوائده ، منذ الاف السنين . فقال : « يا سلام على الحزب الوطنى ، مش تخلى الناس تضحك وحيخليهم يقولوا بحق : النحل ياهوه » .

* * *

وعندما كنا نناقش دستور ١٩٥٦ ، داعبته مرتين ، مداعبة استدعاها الحديث ، فرفض رفضا باتا أن يضحك على كليهما ، لأن الأولى فيهما تمسه . ولأنه لم يتنبه إلى موضع الفكاهة فى الثانية .. فضايقه ذلك !.

وقد كانت مناسبة المداعبة الأولى ، نصا واردا فى دستور ١٩٥٦ ، يقول:« إن وفاة رئيس الجمهورية تثبت بأغلبية اصوات مجلس الأمة » . فعارضت فى النص على أساس « أن الوفاة واقعة مادية لا تثبت بأصوات النواب ، وإنما الذى يثبت هو اعلان خلو منصب الرئيس فقد يكون الرئيس مخطوفا أو مأسورا » ..وطال الجدال فى هذه النقطة بينى وبينه ، فقلت له : « على كل حال أنا موافق ، لأنه اذا لم (يصوت) النواب عند وفاة رئيس الجمهورية ، فمتى يصوتون !؟ » . فزم الرئيس شفتيه مستاء ، وقال : « طيب يا سى فتحى » !..

وفى المناسبة الثانية – فى جلسة أخرى – احضر الرئيس معه الدستور « الصينى » واثنى عليه ، فقلت له : « ولكنه سهل الكسر » . فغابت عنه النكتة وقال : « سهل الكسر .. لماذا ؟ » .

فقلت له : « لأنه صينى » . فعقد ما بين حاجبيه ، وفكر قليلا .. فلما ادرك النكتة ، اشاح بوجهه .. وأبى أن يضحك !.

الفصل الرابع

عبد الناصر وقناة السويس

فى السادس والعشرين من يوليو ١٩٥٦ ، وفى ميدان المنشية بالأسكندرية ، أعلن جمال عبد الناصر ، فى اجتماع شعبى ضخم ، أمتلأ به الميدان الفسيح المترامى بألوف المصريين ومئات الأجانب . « أنه أمم قناة السويس » : وكان هذا الاعلان زلزالا حقيقيا فى عالم السياسة الكبرى الذى يديره ويشرف عليه ، ويستأثر باصدار القرارات فيه ، ونقضها ، جماعة تحيط بها هالات الرصانة ، والأهمية ، والعظمة ، من أمثال : « تشرشل » و« ايدن » و« ايزنهاور » . فلقد كانت قناة السويس – منذ ولدت – « لعبة الكبار جدا » .. كانت لعبة بريطانيا ، وفرنسا ، وروسيا ، وبروسيا ، والنمسا ، وتركيا ، فما الذى حدث حتى يجرؤ شاب لم يكمل الأربعين من عمره ، ورئيس دولة لم يخرج آخر جندى من جنود الاحتلال البريطانى من أرضها إلا منذ أقل من شهرين – وبالضبط يوم ١٨ يونية ١٩٥٦ – ما الذى حدث حقا حتى يجرؤ هذا الشاب ، على أن يطأ بقدمه هذا الحرم المقدس ، ويقول انه انتزع من أيدى أكبر القوات فى الدنيا هذا المرفق الحيوى الذى ولد وسط الأزمات ، وعاش مصدرا للأزمات الدولية ، وتضخم واغتنى ، وعظم أثره أيضا بالأزمات الدولية ؟!!.

وصل النبأ إلى رئيس وزراء بريطانيا ، مستر إيدن ، بينما كان يحتفى « بعجوز السياسة العربية – البريطانية » – نورى السعيد – فكاد فنجان القهوة يسقط من يده ، وانفض الحفل فى وجوم . وذهب كل من المضيف والضيوف إلى حال سبيله فى هم شديد ، كأنهم قد فقدوا جميعا الاباء والأبناء ، والأخوة والأخوات ، والثروة والجاه !!.

وبعد أن ذهب الروع عن ساسة أوربا ، خيل اليهم أن انتزاع القناة من أيديهم ، وبقرار لم يسمعوا بمثله من قبل ، ومن شاب لم يطل عهده بالمسرح الدولى ، سيكون « لعبة » من أمتع لعب السياسة التى باشروها فى تاريخ حياتهم الطويل . قالوا – بعضهم لبعض – « إن هذا الشاب يعبث ، وقد آن الأوان للتخلص منه ، واراحة العالم من عبثه الذى لن ينتهى » !! حاولوا أن يستعيدوا قناة السويس بكل طريقة متاحة لهم . بالتهديد ، وبالوعيد ، فلم ينجحوا .. بالمؤتمرات الدولية .. ففشلوا . بالمظاهرات البحرية ، فلم ينضم اليهم فى تدبيراتهم أحد . وعلى ذلك لم يبق أمامهم إلا الحرب !!.

ولم يحل وقار بريطانيا وفرنسا ، وكونهما دولتين شابت رأساهما فى تدبير أمور السياسة .. دون أن تعلنا الحرب على مصر . ويأمراها ، ويأمرا اسرائيل فى الوقت نفسه ، بأن تبتعد

جيوش كل منهما عشرة كيلو مترات عن قناة السويس !!.

والعجيب أن « جمال عبد الناصر » ، لم يفزع من كل هذا ، ولم يصدق أن بريطانيا وفرنسا يمكن أن تشتركا معا فى حرب ضده ، وأن الخطر الوحيد الذى يعتبر احتماله قويا ، هو أن تشن اسرائيل الحرب على مصر . وكان يعتقد أن مصر كفء لها . ولا خوف من حرب معها . ولم يقل « جمال عبد الناصر » هذا الكلام بلسانه .. بل قاله بفعله ..

كان مجلس جامعة الدول العربية منعقدا فى القاهرة ، وأزمة قناة السويس فى بدايتها . وأقام « جمال عبد الناصر » حفلة عشاء لوفود الدول العربية فى هذا الاجتماع .. واختار « استراحة الهرم » التى كان الملك السابق فاروق قد أقامها لنفسه على مقربة من « الأهرام » و« أبى الهول » .. وبعد العشاء .. جلس الأعضاء يطلون من ربوة الأهرام العالية على القاهرة ، وأنوار شوارعها ومسارحها تتلألأ ، وتنتظم عقودا باهرة . وهبت نسائم الصحراء الرقيقة الباردة فأحالت الجلسة حلقة سمر لطيفة .. ولكنها لم تطل ، اذ كان أعضاء الوفود حريصين على أن يستمتعوا بليالى القاهرة لحسابهم ، وعلى مزاجهم وبقى « عبد الناصر » ، مع عدد من وزرائه يسمر .. ويضحك .. ويداعب .. وكان معاونوه ، يترددون عليه ، ويهمسون فى أذنه بأشياء ، فيستمع جيدا للحظات ، ويعقد حاجبيه « كعادته » ، ثوانى .. ثم يعود إلى مرحه .. وأخيرا لاحظ أن الوزراء يودون أن ينصرفوا ، فقال : « يبدو أن الجلسة طالت علينا .. اتفضلوا .. فسيذهب كل منكم إلى بيته ، أما أنا فسأذهب وحدى إلى مجلس قيادة الثورة فى الجزيرة .. فعائلتى فى الأسكندرية وبيتى يملؤه النقاشون والمبيضون » ..

وذهب كل منا إلى داره وهو لا يدرى أن « عبد الناصر » قد تلقى ، هذه الليلة بالذات ، أخطر الأنباء .. وأكثرها ازعاجا ..

● الأسطول البريطانى .. يتقدم !..

من ذلك .. نبأ تقدم الأسطول البريطانى إلى ميناء الأسكندرية « على شكل مروحة » . وكان معاونو « عبد الناصر » يبدون دهشة ممزوجة باحتجاج على أنه يتلقى هذه الأنباء بأعصاب باردة ، وبمزاج حسن ، وأنه لا يود أن يفض هذه الجلسة (غير المهمة) ، ليتلقى تفاصيل هذه الأنباء ، ويدرسها ويمحصها ، ويصدر فيها قرارا .. لقد أعلن « عبد الناصر »

(هذا السر) بعد ذلك بشهور ، عندما انتهت أزمة القناة كلها . وبدأت الحملة السياسية التى أعقبتها . وقد اذاع عبد الناصر (هذا السر) . ليبين للعالم ، كيف أنه استبعد تماما ، ونهائيا . أن تهبط بريطانيا وفرنسا إلى مستوى هذا العبث الصبيانى وأن يشركا معهما اسرائيل فى مؤامرة حقيرة ، لم يجرؤوا - حتى اليوم - على الاعتراف بأنهم اشتركوا فى تدبيرها !!.

ولكن حدث بعد ذلك ، ما بدد اطمئنان « عبد الناصر » ، وبدله بالسكينة جزعا . فقد أقدمت بريطانيا وفرنسا على غزو مصر دون أن يقيما للأمم المتحدة ولا للرأى العام العالمى ، أى وزن !! ولم يقفا عند حد التهديد بانزال جيوشهما على أرض مصر . بل ذهبا إلى أبعد من ذلك ، فأنزلا هذه الجيوش بالفعل .. ثم اتضح أن للدولتين العظيمتين خطة كاملة للاستيلاء على القناة ومدنها ، وأن هذه الخطة درست تماما إلى حد أن الحليفتين طبعتا أوراق « بنكنوت » مصرية مزيفة ، بطبيعة الحال ، لتوزيعها فى بور سعيد والأسماعيلية والسويس ، وما حول هذه المدن - لا ليشتروا البضائع والسلع ومواد الطعام فقط ، بل ليشتروا أيضا الذمم والرضاء السياسى !! هكذا توهم البريطانيون والفرنسيون . فهم لا يعرفون ، للأسف ، أخلاق العرب والشرقيين .. اذا وجدت على رأسهم قيادة تقودهم إلى ميادين شرف حقيقية .

● .. وفاروق جاهز !!.

بل إن الخطة كانت أوسع من ذلك بكثير .. فقد دخل فى تفاصيلها أن يستعد « فاروق » لتنقله بارجة انجليزية إلى مصر ، أو على الأقل هذا ما أذيع بعد ذلك .

وخيل « لعبد الناصر » أن كل أحلامه قد طارت فى الهواء . وإن جهاد ست سنوات فى سبيل اقامة نظام وطنى جديد قد تهاوى وتبخر .. ولكنه بقى يؤمل .. فقد أرسل إلى السفير الأمريكى وإلى السفير الروسى ، يسأل كلا منهما : ماذا سيكون موقف بلديهما من هذا الغزو ؟! هل سيكون مجرد « الفرجة » .. والاكتفاء بالاعلان من الاحتجاج ، والاشمئزاز ، والرفض ؟!.

وذهب السفير الأمريكى بوعد أنه سيتصل بحكومته ، ثم يعود . ولكنه لم يعد لا بخير ولا بشر ..

أما السفير الروسى فقد كان أكثر صراحة .. اذ قال : « إن وقوفنا مع مصر معناه دخول الاتحاد السوفيتى فى حرب عالمية ثالثة . ولا أحسب أن الاتحاد السوفيتى مستعد ، الآن لدخول مثل هذه الحرب . والقرار فيما أفضيت به إلى .. الان ، لا تصدره إلا الزعامة السوفيتية فى أعلى درجاتها والزعامة السوفيتية بطيئة فى مثل هذه الأمور ، غاية البطء ، لأنها عادة تدرس كل التفاصيل . والتفاصيل ، فى مثل هذه المواقف ، معقدة ، وكثيرة ، وتأتى من مصادر مختلفة ، وقد تتناقض هذه المصادر بعضها مع بعض !!. وترك « عبد الناصر » وحده ..!

● قبل أن تتأزم الأمور ..

ولكن حدث ، قبل أن تتأزم الأمور ، أن افتتحت شركة مصر للطيران خطا جويا جديدا بين القاهرة وروما .. ووجهت الدعوة إلى الوزراء ليشتركوا فى افتتاح هذا الخط فى اليوم المحدد . وقالت الدعوة « انه ان لم يتيسر للوزير المشاركة فى يوم الافتتاح ، فالدعوة مفتوحة وكانت « مصلحة السياحة » – انذاك تتبعنى بوصفى وزيرا للارشاد القومى فبدا لى أن سفرى إلى روما ، فى تلك الفترة ، هو عمل سياسى جيد .. فالمناسبة التى أسافر فيها هى مناسبة حقيقية وغير مفتعلة ، وهى مناسبة معلومة لجميع أطراف السياسة العالمية إذا اهتمت بها هذه الاطراف – وسيكون فى وسعى أن اتصل بدوائر السياسة فى روما تحت ستار « أنى وزير فنون وسياحة » وبالفعل ذهبت إلى « عبد الناصر » ، بعد جلسة من جلسات مجلس الوزراء وقلت له : « اننى سأسافر إلى روما بقصد الوقوف على جلية الموقف الدولى وروما مكان جيد للاستطلاع .. فقد كانت ميالة إلينا – نسبيا – فى مسألة القناة ، وهى غير مشاركة فى وقائع الحرب ضدنا ، وبهذا تفتح مكانا هاما للاتصالات » .

انصت « عبد الناصر » إلى هذا الكلام ، ولاح على وجهه أنه قد سره أنى فكرت فى هذا ، وتناولنا بعض التفاصيل إلى أن ودعنى متحمسا . وتمنى لى التوفيق . والأمر الذى قد يحسن أن اذكره ، أننى لم الاحظ عليه انشغال بال ، ولا توقعا لشر . ولذلك كانت حماسته مصدرها سروره باهتمامى بالتطورات وموقف مصر عموما . وليس احساسه بضرورة مثل هذه الرحلة أو بالحاجة إلى القيام بأى استطلاع كان .

وسافرت إلى روما ، وأعلنت – حسب الخطة الموضوعة – أننى اتِ لإجراء العديد من

الاتصالات الثقافية ، والفنية ، ولتنشيط الحركة السياحية بين مصر وإيطاليا والوقوف على وسائل الدعاية السياحية فى إيطاليا التى يبلغ الدخل السياحى فيها رقما هائلا .

وتلقفت وكالات الأنباء هذا التصريح ، واذاعته فى أربعة أركان المعمورة وكأنها تقول : « مفهوم .. أنت آت لغرض . ولكنك تعلن عن غيره » !.

وفى اليوم التالى لوصولى — تلقيت نبأين . أحدهما « فكاهى » ، والثانى يرى مدى اتساع الفرص ، وتعددها أمام الساسة الذين يريدون أن يعملوا فى الساحة الدولية ، ويخرجوا من دورهم إلى العالم الفسيح .

أما النبأ الفكاهى .. فخلاصته أن « الملك السابق فاروق » بلغه نبأ وصولى إلى روما .. كان « فاروق » قد عاش أيامه الأخيرة فى مصر ، وليس لديه إلا هم واحد ، هو أننى « سأقتله » !!. وقد بلغ من شدة ايمانه بهذا الوهم أنه صرح به لرئيس وزرائه (نجيب الهلالى باشا) عند قيام (نجيب باشا) بأداء اليمين الدستورية بمناسبة تأليف اخر وزارة قبل قيام الثورة ، اذ كان من شروط (نجيب باشا الهلالى) أن يفرج عنى — وكنت معتقلا — تنفيذا لحكم مجلس الدولة : فقال الملك وهو يستقبل رئيس وزرائه : « تفرج عن فتحى رضوان .. بس اياك ما يموتكش » — والعهدة فى هذه الحكاية ، على (فريد زعلوك باشا) . أحد وزراء نجيب الهلالى — الذى رواها لى بنفسه ..

المهم أن « فاروق » بلغه أننى وصلت روما — فخيل اليه أنه ليس لمجيئى إلى هذا البلد إلا هدف واحد فقط . هو أن أشرف على تنفيذ حكم الموت فيه . ففر من روما . ومعه حراسه الشراكسة .. فقلت يومها : « ما أكثر ما فى الحبس من مظلومين » !!

أما الأمر الثانى : فهو أن « جنرالا » سابقا فى جيش إيطاليا ، اسمه الجنرال « كوستا » طلب — عن طريق السفارة المصرية فى روما — أن يقابلنى ، فحددت له موعدا فى فندق « المتروبول » الذى كنت أقيم فيه . وقد أفضى إلى هذا « الجنرال » الذى تبينت أنه فاشستى عريق ، ومتحمس ، بأن لديه معلومات تؤكد أن بريطانيا وفرنسا تعدان العدة لحملة عسكرية ضخمة ضد مصر .. وأن بريطانيا ، بالذات انتهزت فرصة تأميم مصر لقناة السويس ، وقررت أن تستعيد جميع الأراضى التى فقدتها فى الشرق العربى بسبب السياسة

الأمريكية ، وعلى وجه التدقيق بسبب سياسة « دالاس » التى يقرها « ايزنهاور » ويباركها .
ولما كان « الفاشيست الطليان » لا يعرفون لهم ، انذاك ، أى سنة ١٩٥٦ — عدوا ، وأنهم لم يعرفوا لهم ، فى الماضى أيضا ، عدوا إلا بريطانيا ، فإنهم يودون أن يبلغوا مصر فى شخصى ، أنهم مستعدون أن يحاربوا معها ، وأنهم قادرون على أن يضعوا فى خدمتها « كتيبة كاملة » مجهزة بالأسلحة الحديثة والجيدة ، ومدربة أحسن تدريب ، ولن يكون هذا إلا مجرد بداية .. وأن الحرب اذا طالت . فستجد مصر مثل هؤلاء المتطوعين من فرنسا وألمانيا وغيرهما ..

وراح الجنرال الايطالى يدلل على أن الحرب واقعة لا محالة ، وأنه مستعد لأن يوافينى بالكثير من الأدلة والتقارير .. وشكرته على حماسته .. ولم أرد أن أذهب معه فى الحديث إلى أبعد من هذا المدى ، اذ كانت تعوزنى الأجهزة التى تستطيع أن تطلعنى على اتصالات هذا « الجنرال الفاشيستى » ودوافعه ..

ولما تقابلت مع أعضاء السفارة المصرية ، ودار الحديث حول توقعاتهم — كانوا جميعا متفائلين ، ما عدا المستشار العسكرى « محمد شكرى » الذى أصبح ، فيما بعد ، سفيرا لمصر فى كندا ، فقد قال لى ، قاطعا وجازما : « إن بريطانيا تحضر للحرب لا محالة ، فإن ما تنفقه فى تحريك قطع أسطولها ، ليس بالقليل ، والدول لا تنفق الملايين على مظاهرات بحرية .. فهذه — بالقطع — استعدادات للحرب ، وليست مظاهرات للتهديد » .

وعدت من روما .. بعد ما سمعته من هذا وذاك ، ومما قرأته ، ومن الاتصالات الأخرى السريعة ، وقد تعجبت أن منها ما كان مع مجرد أمين لمتحف فى الفاتيكان ، الذى انحنى حينما رأى أن رباط حذائى قد فك ، وأننى كدت أتعثر فيه ، وقال — وهو منحن وبصوت خافت جدا : « سيدى الوزير .. استعدوا ، الحرب قادمة لا محالة .. » ثم اعتدل .. وبسط قامته ، وقدم لى بطاقة ، وقال فى أدب جم : « اكسلانس .. اذا كان لا يزال لديكم وقت فى روما وترغبون فى زيارة أخرى للفاتيكان ، فهذا هو رقم تليفونى ويمكن لسكرتيركم أن يتصل بى ، فسأكون سعيدا اذا استطعت أن أقدم لكم خدمة » .

وفهمت الأشارة جيدا .. ولكن عجبت أن يكون هذا كلام موظف فى الفاتيكان .. أيكون « فاشستيا » هو أيضا ؟!.

وعدت إلى القاهرة ...

وسمعت وأنا لا أزال فى المطار بشيئين : فقد أخبرنى أمين الوزارة أن الوزير السابق « صلاح سالم » كتب فى « جريدة الشعب » التى كان يرأسها ، مقالا قال فيه : « أين ذهب وزير الارشاد القومى فى هذه الأزمة المستحكمة .. لعله ذهب إلى روما ليصلح بين (جينا لولو برجيدا) وبين (صوفيا لورين) » !.

ولم أغضب لهذه الاشارة الجارحة . بل لقد سرنى حقيقة أن أرى شيئا من الحيوية قد دب فى الصحافة . ولكن الذى أغضبنى ، حقا ، أننى علمت ، فى اليوم التالى ، من أحد زملائى وأصدقائى الوزراء ، أن « عبد الناصر » جاء إلى جلسة مجلس الوزراء التالية مباشرة لسفرى . وسأل : « أين وزير الارشاد القومى ؟ » .

وما كدت أسمع هذا الكلام . حتى فار الدم فى رأسى . وذهبت اليه فورا فى مكتبه ، وقلت له :

– هل قرأت مقالة صلاح سالم عنى ؟

فقال ، بعد أن سرح لحظة :

– عرفت بها قبل نشرها ..

وأضاف :

– بل قبل كتابتها ..

قلت له :

– ذلك يعنى أن سيادتك أوحيت له بها ..

– لا ..

ولم أنتظر أن يكمل تعليقه ، فقلت له :

– ياسيادة الرئيس .. لقد سافرت إلى روما بعد أن استأذنتك ، وبعد أن اتفقنا على الغرض من هذا السفر . فقال :

– ولكن المدهش أنك أعلنت عندما وصلت إلى روما أنك قادم اليها لأمور فنية !..

فقلت له بصوت عال :

– وهذا ، بالضبط ، ما كنا اتفقنا عليه ..

وأعدت عليه ، وبالحرف الواحد ، ما كنت قد قلته له قبل سفرى .. فلاذ بالصمت . ثم استعان بسيجارة ، وراح يشد الأنفاس منها بشدة كعادته .. ثم أخذ يهز ساقه – وكانت هذه علامة من علامات عصبيته ..

وبعد فترة صمت بيننا – قلت له :

– المهم .. فلننس ، الان ، فتحى رضوان ، ونتحدث فيما هو أهم من هذا بكثير ..

فأدار رأسه نحوى ببطء شديد ، وقال :

– خير ..

فقلت له :

– انني بت الان ، أميل كثيرا إلى الاقتناع بأن الحرب قادمة حتما .

فنظر إلى نظرة طويلة صامتة ، ثم لوى شفتيه ، وقال :

– جائز ..

ثم سارت الأمور فى تعاقبها وتواليها مندفعة .. ومحمومة ..

الفصل الخامس

غاندي يمنع عبد الناصر من السفر إلى لندن

كانت أولى برقيات التأييد التى تلقتها قيادة الثورة فى صباح يوم الثالث والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩٥٢ ، هى البرقية التى أرسلها المرحوم الدكتور رشوان فهمى ، استاذ طب العيون بجامعة الأسكندرية ، فرأى « جمال عبد الناصر » أن من حق هذه الجامعة ، بسبب هذه البرقية ، أن يخصص لها يوم ٢٦ من يوليو من كل عام ، ليكون يوم الجامعيين ، ويوم الأسكندرية ، ويوم عزل الملك فاروق فى وقت واحد . واستقر هذا التقليد ، فلم يأت يوم ٢٦ يوليو فى أية سنة ، إلا وقصد قائد الثورة مدينة الأسكندرية ، والقى فيها خطابا سياسيا فى المساء ، بعد أن يكون قد زار جامعة الأسكندرية فى الصباح .

ولم يحدث ، فى يوم ٢٦ من يوليو سنة ١٩٥٦ ، أى خروج على هذا التقليد . فقد توافد الوزراء على مدينة الأسكندرية فى انتظار خطاب المساء التقليدى .. وكانت الحكومة فى طريقها إلى الاشتراكية ، فقد أغلقت البورصة التى كانت تمارس اعمالها فى مبنى قديم وعريق بأكبر ميادين أكبر موانى مصر ، وأعنى به ، « ميدان المنشية » الذى يطل عليه تمثال « محمد على .. مؤسس الأسرةالمالكة » التى انتهى وجودها فى يونيه سنة ١٩٥٣ .. بعد عام من النزاع المملوء بالريب وبالشكوك .

ولكن الوزراء تلقوا ، على غير العادة . دعوة لأن يذهبوا إلى منزل جمال عبد الناصر فى رمل الأسكندرية ليخرجوا معه إلى ميدان المنشية حيث يلقى خطابه من شرفة مبنى البورصة التى أغلقت ابوابها وفضت أعمالها . وتصور الوزراء أن الدعوة يتفق ظاهرها مع باطنها .. أو أنها لا باطن لها .. فالطبيعى أن يجتمع الوزراء مع رئيسهم ورئيس الجمهورية .. وأن يذهبوا جميعا فى موكب واحد . فإذا كان ذلك لم يحدث فى الماضى ، فلا بأس من أن يدخل على أسلوب الاحتفال يوم ٢٦ من يوليو شىء من التغيير . ولم يكن للرئيس عبد الناصر فى الأسكندرية بيت لقضاء فصل الصيف فيه، لذلك استأجر قصرا فى حى الرمل . وقد شاءت الصدفة أن يكون هذا القصر هو نفس القصر الذى كان يشغله الرئيس إبراهيم عبد الهادى ، أحد رؤساء الوزارات قبل الثوره ورئيس الهيئة السعدية فى الوقت نفسه ، واحد كبار الساسة الذين حاكمتهم الثورة وقضت عليهم احدى محاكمها بالموت ، ثم عادت فخففت الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة ، ثم أطلق سراحه بعد أن اختفى الساسة القدامى من ميدان الحياة العامة اختفاء كليا مؤثرين السلامة والعافية ، وكأنهم ادركوا أن الدنيا تغيرت فعلا ، وأنه لم يعد لهم فى هذه الرواية السياسية الجديدة التى تختلف

فى الشكل والتفاصيل عن روايات العهد الملكى .. دور يلعبونه . ولم يدر بخلد احد من الوزراء ، انهم سيسمعون نبأ يعد من اخطر انباء القرن العشرين كله ، لأنه يتصل بأخطر شريان مائى ، وأهم طريق للتجارة الدولية ، ألا وهو « قناة السويس » .

وتجمع الوزراء .. وكل منهم فى حالة عادية ، فلم يكن فى الجو الداخلى ، ولا الخارجى ، ما يدعو إلى الانقباض أو التوجس . وجاء « جمال عبد الناصر » ليأخذ مكانا فى البهو الطويل الضيق الذى انعقد فيه اجتماع الوزراء غير الرسمى . وبدأ يتكلم ، فاستمع اليه الوزراء وغيرهم من الضباط وكبار الموظفين الذين تقضى عليهم وظائفهم أن يشهدوا هذا الاجتماع .. ولكنه ما كاد يكمل جملتين من حديثه إلا وأدرك الوزراء أن هذا الاجتماع الذى بدا عاديا وبريئا .. انما هو اجتماع له ما بعده .. أما ماذا يكون بعده ؟ فأمر لا يعلمه إلا الله . فقد أعلن « عبد الناصر » للوزراء انه اعد وثائق تأميم قناة السويس ، وانه سيعلنها بعد خطبته . وقال ان « دالاس » وزير خارجية الولايات المتحدة قد بالغ فى الاساءة إلى مصر ، حينما أعلن رفض تمويل مشروع السد العالى ، مقرونا باعلان سوء حالة الاقتصاد المصرى وعجزه عن النهوض بهذا المشروع .

ولا يخالجنى ادنى شك فى أن الوزراء وجميع الذين كانوا فى ذلك البهو ، قد شملتهم سعادة غامرة ، عندما سمعوا هذا الاعلان الخطير . فقد كانت « قناة السويس » بماضيها الحافل بالمآسى ، وكانت شركتها القائمة على أرض مصر والمستغلة لمياهها « قرحة ملتهبة » فى جسم مصر ، يشعر كل مصرى لها بالألم والعار ، ولا أظن أن احدهم استطاع أن يتخيل أن هذا التأميم سيجر ما جره على مصر ، وعلى الثورة كلها ، من اعلان حرب دولية ضد مصر ، وإنزال الأساطيل البريطانية والفرنسية العتيدة جيوشها على أرضنا فى بور سعيد ، ثم زحفها فى طريقها إلى القاهرة ، متآمرة فى ذلك مع اسرائيل ، وكأنها ند لهما ، فى القوة والمكانة ، ودون أن يشعر قادة الدولتين الكبيرتين بالخجل !!.

● **هل تشعرون بالذعر ؟!**

ولكن الغريب أن « جمال عبد الناصر » ترك جميع الحاضرين من وزراء ، وغيرهم ، واتجه بوجهه نحوى وسأل : « هل شعر احدكم بالذعر .. هل شعرت يافتحى بالذعر ؟ » ..

وصعد الدم إلى رأسى . فقد شعرت باهانة بالغة ولا مبرر لها من هذا التساؤل ،

أو السؤال . فلعلى كنت الوحيد بين الحاضرين الذى كتب عن تأميم قناة السويس قبل الثورة . ونشرت فى صحيفة « اللواء الجديد » عنوانا بعرض الصفحة : « تأليف لجنة وطنية لدراسة تأميم قناة السويس » على أنى كنت قد فعلت شيئا اخر بوصفى وزيرا للارشاد القومى ، ومشرفا على الاذاعة .. فقلت للرئيس جمال : « ولماذا أنا الذى أشعر بالذعر ؟.. لقد اذعنا طوال الشهر الحالى ، مسلسلة اذاعية بعنوان (اسماعيل المفتش) ذكرنا فيها المصريين بمأساة بيع ١٧٦ الف سهم من أسهم قناة السويس كانت تملكها مصر ، وقد باعها الخديوى اسماعيل بمبلغ أربعة ملايين جنيه لحكومة بريطانيا ، استدانها « اللورد دزرائيلى » من يهودى مثله هو « اللورد روتشيلد » ، دون استئذان مجلس الوزراء » .

فقال عبد الناصر : « سيقولون ، فيما بعد ، انك كنت تمهد لقرار التأميم » فقلت : وأنا لا ازال اشعر بحدة الغضب : « لقد اصدرنا كتيبا بعنوان : — أضواء على قناة السويس — نقدنا فيه ، بشدة ، ما تروجه دوائر الغرب من أن مساهمة مصر فى حفر ، واعداد ، وتنفيذ مشروع قناة السويس كان بالايدى العاملة الرخيصة فقط ، واثبتنا أنه كان فى اوراق وملفات حكومة مصر دراسة كاملة من الناحيتين الهندسية والطبوغرافية لمشروع حفر قناة السويس تمت فى عهد محمد على ، وساهم فيه المهندسون والمساحون المصريون مساهمة علمية ذات شأن » .

فسرح « عبد الناصر » بخاطره ، وقال : « وأين هذه الدراسة ؟ » فأجبته : « عندنا فى مصر ، وقد عرضناها للبيع وراجت كثيرا » . فقال : « حسنا ، ارسل لى واحدة منها فقد نحتاج إليها فى المستقبل .. » ثم نظر إلى الاخرين ، وقال : « هل لدى احدكم تعليق أو سؤال ..؟ » . فقلت : « عندى أنا » .. وقبل ان يرد « عبد الناصر » قلت له : « أنا فاهم من كلام سيادتك الان ، انك تنوى أن تقول انك أممت قناة السويس ردا على كلام (دالاس) واهانته لنا ، واعتدائه على سمعة اقتصادنا » .. فتجهم « عبد الناصر » وقال مندهشا : « اذن .. ماذا تريدنى أن اقول ؟ » . فقلت مندفعا : « قل كل شىء دون أن تربط تأميم القناة بسحب الغرب تمويله لمشروع السد العالى » .

لكن عبد الناصر ضاق بهذا الكلام ، وقال : « غريبة .. وماذا فى هذا ؟ » . فقلت له : « إن ربط الأمرين معا — وان كانا فى الواقع متصلين — له معنيان ، وكلاهما سيىء .. فاعلاننا بأننا أممنا قناة السويس لأن دول الغرب سحبت تمويلها للسد العالى ، فيه اضعاف

لحقنا فى التأميم ، فقناة السويس مرفق مصرى ، وشركة قناة السويس هى شركة مصرية ، وخاضعة للقانون المصرى ، وعلى ذلك ، فحقنا فى تأميم الشركة ، واخضاع المرفق للادارة المصرية المباشرة ، إنما هو من حقوقنا المطلقة . هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، فإن تصريحنا بأننا نؤمم قناة السويس ردا على امريكا وانجلترا وفرنسا .. معناه أننا نتخذ من (قناة السويس) التى تخدم الملاحة ، والتجارة الدولية ، وسيلة لعقاب وتأديب الدول التى نختلف معها . وهذا سيتيح للدول الأعداء أن يتخذوا من هذا (الاعلان)مادة للتشهير بنا ، وتخويف العالم من ادارتنا لقناة السويس التى تتأثر بنوازعنا ، وربما بنزواتنا القومية » .

وإلى هنا كان صبر « عبد الناصر » قد نفد . وخيل اليه اننى اريد أن أملى عليه اتجاها معينا .. فقام وهو يلوح بذراعيه مسرعا تجاه دورة المياه وهو يقول : « أنا عارف ماذا سأقول .. سأغسل وجهى أولا » .

وخرج « عبد الناصر » مبتهجا ، واثقا من نفسه ، سعيدا بأنه سيطلع على العالم بما سيهزه ، وبما سيجعل اسمه على كل لسان .. فى الشرق .. وفى الغرب .. على السواء .

* * *

والغريب فى الأمر ، انه قبل هذا اليوم بأيام قليلة ، كنت قد أعددت مذكرة لعرضها على مجلس الوزراء ، ولم يكن لى أى فضل فى التفكير فى اعداد هذه المذكرة . فقد حدث أن المرحوم المهندس طراف على ، وزير المواصلات السابق ، ومندوب مصر لدى شركة قناة السويس أو ممثلها فى اللجنة الهندسية التابعة لمجلس ادارة الشركة ، مر على فى مكتبى فى وزارة المواصلات ومعه احدى الصحف البريطانية ، وفيها نبأ منقول عن جريدة « هندوستان تايمز » الهندية – وهى صحيفة ذات نفوذ كبير فى الهند لاتصالها بأكبر دوائر المال فى بريطانيا والولايات المتحدة – وقد تضمن هذا النبأ أن شركة قناة السويس ، قد فرغت من اعداد عدد من المشروعات التى تهدف إلى توسيع القناة وتعميقها ، وتزويدها بجهاز جديد للإشارات الكهربائية ، إلى جانب مشروعات لمساكن للعمال فى الشركة والموظفين . وقال لى المرحوم المهندس « طراف على » : « إن اقدام شركة القناة على هذه المشروعات الضخمة والمكلفة ، قاطع الدلالة على أن الشركة تطمئن إلى أن امتيازها لن ينتهى فى سنة ١٩٦٨ .. أى بعد ١٢ سنة فقط » ..

وبالفعل ، اعددت مذكرة بهذا المعنى ، واوشكت أن اطلب من سكرتارية مجلس الوزراء توزيعها على الوزراء للتداول فيها . ثم عدلت المذكرة ، ثم عدلت ، نهائيا ، عن تقديمها .. ذلك لأنى استصوبت ألا يكون لتفكيرنا - نحن - فى مستقبل القناة أى اثر فى أوراقنا. حتى لاتنتبه الشركة ، ودوائر الاستعمار المؤيدة لها ، لما نعده من مشروعات مضادة ، واثرت أن احدث « عبد الناصر » وحده فى هذا الشأن ، فحدثته وسلمت له الصحيفة التى سلمنى اياها المرحوم المهندس « طراف على » . ولكن « عبد الناصر » استمع إلى الأمر بغير اكتراث ، وتسلم الصحيفة بقدر كبير من اللامبالاة ، ولولا الحياء الذى كان صفة من ابرز صفاته . لما مد لى يده ليأخذها . أكان هذا تمثيلا ، امعانا فى التكتم واخفاء نواياه ؟ أم أن الأمور لم تكن قد اتضحت فى ذهنه ، بعد ، فكان الكلام فى « قناة السويس » لا يبعث على النشاط ، ولا الاهتمام ؟!.

• قنبلة .. شديدة الانفجار !

وصلنا إلى شرفة مبنى البورصة السابق ، ووقف جمال عبد الناصر يتكلم بأسلوبه الذى تميز به خلال ثمانى عشرة سنة ، والذى كان مزيجا من « العربية الفصحى » ، فى مطلع الخطبة . وفى الفقرات الافتتاحية لاجزاء الخطاب ، وفصوله الرئيسية ، ثم بعد ذلك « العامية المطلقة » ، مع ميل إلى التكرار والاطالة . ولكن الجماهير ، لا فى مصر وحدها ، بل فى بلاد العرب كلها شرقا وغربا ، احبت هذا الاسلوب . لم يكن فى وسع أى عربى ، حتى رعاة الأبل فى قلب الصحراء ، أن يعرف أن « عبد الناصر » يخطب ، ثم يمنع نفسه من أن يدير مؤشر « الترانزستور » .. إلى اذاعة مصر .. ليسمع وينتشى ، وان لم يفهم احيانا بعض الذى يسمع .

وجلست فى الصف الذى يلى « عبد الناصر » ، اجيل النظر فى الميدان الفسيح - ميدان المنشية - وقد امتلأ حتى حوافيه بالناس ، صفوفا صفوفا ، وهبت نسمات من البحر العريق ، بحر الحضارات ، والثقافات ، والرسالات .. بحر العرب ، والروم ، والرومان ، والعثمانيين ، والأتراك .. واخيرا ، « الأنجلو سكسون » ، و« الفرنجة » .. ولم يكن هذا البحر يبعد عن الميدان إلا امتارا . وأخذت اتأمل هذه الجموع الحاشدة ، التى لا تدرى شيئا عن المفاجأة المذهلة التى يخبئها لهم « عبد الناصر » ، والتى سيلقى بها بين صفوفهم وكأنها

قنبلة شديدة الانفجار .

وراح عبد الناصر يروى مواقف دول الغرب من مشروع السد العالى ، وما قاله له (اوجين بلاك) مدير البنك الدولى . وقال انه كان يرى فى (اوجين بلاك) صورة (فردناند دليسبس) . الذى احتال على (سعيد باشا) - والى مصر - حتى استصدر منه « فرمان »أو مرسوم امتياز فتح قناة السويس سنة ١٨٥٤ ، مع ما فيه من شروط مجحفة بمصر . وأوجه الشبه بين (اوجين بلاك) و(دليسبس) ليست قوية إلا من حيث أن كلا منهما يمثل الغرب الطامع فى أموالنا ، وثرواتنا ، ومركزنا الدولى ، فى حرصه على اخضاعنا لنفوذه ، واذعاننا لأوامره ، وكراهيته لاستقلالنا وازدهارنا ونمونا .

وكرر « عبد الناصر » اسم (بلاك) فى تلك الخطبة التاريخية حقا ، ولما كان (بلاك) بالانجليزية ، معناه (أسود) بالعربية ، فإن بديهة « أم كلثوم » - فيما يسمية المصريون (القفش) - أى اصطياد اللمحات الطائرة ، هدتها إلى القول ان : « عبد الناصر خللى ليلة امريكا بلاك فى بلاك » أى أنه خلى ليلتهم سوداء !!.

واخيرا .. وصل عبد الناصر إلى النقطة التى أعلن عندها القرار الجمهورى بتأميم قناة السويس ، وما كاد يقرأ اللفظ الأول من عنوان القرار الجمهورى ، حتى اصابت الناس هزة عنيفة .. لا فى الميدان وحده ، بل فى كل بيت من بيوت مصر ، بل فى كل بيت من بيوت العالم العربى .. بل فى الشوارع ، والأزقة ، وفى السيارات المنطلقة بأقصى سرعة ، فى كل حدب وصوب ، وطريق ودرب ، ومعهم اجهزة الاستماع .. لقد رأيت الناس دفعة واحدة ، وبلا سابق اتفاق ، يقفزون فى الهواء ، ويرتفعون عن الأرض صدقا .

ومضى زميل الصبا .. المرحوم المهندس محمود يونس .. مضى ومعه عدد من اعوانه المهندسين والضباط إلى مبانى ومكاتب وورش ومخازن شركة قناة السويس العالمية ، ليضع عليها الأختام ، وليجعلها أمانة ووديعة لدى عدد من الحراس المصريين من رجال الجيش والشرطة ، وكانت الصدمة التى عانى منها مديرو الشركة الفرنسيون الذين عاشوا حياتهم فى مصر - دولة فى قلب الدولة - يأمرون وينهون ، ولا راد لأمرهم ، ولا معقب على نهيهم - كانت الصدمة التى عانوا منها يومئذ ، صدمة للنظام الاستعمارى كله ، وللغرب المتأله ، والمتغطرس ، والمتعالى ..

ودارت حرب الاذاعات ، والمقالات ، والتصريحات ، إلى جانب حرب المقاطعة والحصار الاقتصادى ، وحرب الأعصاب التى كانت الاساطيل والجيوش ، أداتها .. ولم يجد خصوم مصر شيئا يروجونه ضدها ، وضد نظام الحكم فيها .. إلا أن « عبد الناصر » لم يؤمم القناة إلا لأنه أحس « بطعنة موجهة » إلى كبريائه ، حينما سحب « دالاس » تمويل مشروع السد العالى .. مبررا ذلك بأن المشروع أكبر من طاقة وقدرة مصر المالية ، لأنها مفلسة تقريبا .. ومعنى ذلك أن ادارة مرفق قناة السويس ، عملية خاضعة ، لمزاج « عبد الناصر » ، أو أى رئيس يخلفه فى مصر . ومعنى هذا أيضا ، أن بقاء قناة السويس فى يد المصريين خطر على مصالح العالم المشروعة التى لا خلاف عليها .. واتخذوا من تصريحات « عبد الناصر » يوم ٢٦ يوليو دليلا وسندا .

ولعل « عبد الناصر » تذكر ، فى ضوء حرب الاذاعات هذه ، ماكنت قد قلته له ..

• قصة الذئب .. والحمل !

ولكنى لا أتصور أن الموقف كان سيتغير كثيرا ، لو أن « عبد الناصر » لم يجعل التأميم عقابا لدالاس والغرب على موقفه من مشروع السد العالى .. « فقصة الذئب والحمل » ، كانت ، وستبقى ، الوصف النموذجى لعلاقة الأقوياء والضعفاء .. اذ ليس المهم مبرر الاتهام ، فالاتهام يقع أولا .. ثم يبحث له عن مبرر !!.

ولكن .. احتاج « عبد الناصر » ، عندما احتدمت المعركة السياسية ، إلى أن يستشير مجلس وزرائه فى واقعة محددة ، هى : هل يسافر إلى لندن ليعرض على الرأى العالمى موقف مصر من قناة السويس وحرصها على سلامة ، واستقرار ، واستمرار الملاحة العالمية وازدهارها .. وكان ذلك فى إبان الدعوة التى اعلنتها بريطانيا ، والتى كانت الغاية منها طرح تصرف مصر على الدول التى وقعت على معاهدة حياد قناة السويس ١٨٨٨ — وكان عبد الناصر تواقا إلى أن يسافر إلى لندن ، حيث « بؤرة التآمر السياسى » ضد مصر ، وحيث عاصمة الدعاية السياسية لقضية انتزاع قناة السويس من مصر ، وكان عبد الناصر شاعرا بثقة بالنفس عظيمة ، أوحت اليه بأنه سيكون قادرا ، اذا ما وصل إلى لندن ، وحوله هالة الشهرة العالمية والضجيج الذى صاحبه منذ خمس سنوات ، أن ينتزع شخصه صورة (هتلر) الحديث ، التى الصقت به ، من اذهان البريطانى العادى ، الذى سوف يراه انسانا بسيطا ، تهمه

مصلحة بلده ، ولكن دون أن يدمر مصالح الآخرين ، ويعمل على رخاء مواطنيه ، دون أن يلقى بالعالم فى اتون الحرب ، وبذلك يكسب تأييد الرأى العام البريطانى أولا .. فتأييد الرأى العام العالمى ثانيا ، وينزع الفتيل من القنبلة التى أعدها باحكام « انطوانى ايدن » رئيس وزراء بريطانيا ، ودهاة السياسة العالمية الذين هم ، فى الآغلب الأعم ، يهود ذوو أنياب زرقاء ، يحسنون الدس ، والوقيعة ، والتآمر الدولى .. ومن هنا ، كان السؤال المطروح على مجلس الوزراء هو : « هل يسافر عبد الناصر إلى لندن أم لا يسافر ؟ » .

وتكلم كثيرون ، ولكن بدون أن يكون كلامهم حاسما ، فقد احس الوزراء أن « عبد الناصر » تواق لأن يسافر ، واثق من نتائج سفره ، وفرح بهذه الجولة التى اتاحها له تطور الأحداث ليجرب سحره على مستوى عالمى ، وكان هذا الاحساس وحده كافيا لأن يتحفظ المتكلمون .

• .. وتكلم الدكتور فوزى !!

وتكلم الدكتور محمود فوزى ، وعلى النقيض مما يقوله عنه خصومه ، ويروجونه بكل وسيلة ، بأنه رجل يؤثر السلامة ، ويفر من مواقف المسئولية ، ويخفى رأيه ارضاء لصاحب السلطة ، مستعملا أسلوبا (لولبيا) فى التعبير عن الرأى – على النقيض من هذه الصورة الثابتة .. كان محمود فوزى يومذاك ، حاسما .. فقد أعلن ، وبلا تحفظ ، أنه ضد سفر رئيس جمهورية مصر إلى لندن .

وحمدت الله على هذا القول القاطع ، ثم اتجه « عبد الناصر » الى – وكانت العلاقات بيننا يشوبها فتور لسبب نسيته تماما – وقال بأسلوب خال من الود : « ورأى الأستاذ فتحى » ؟

ولم أكن فى حاجة إلى أكثر من هذه الدعوة المتحفظة لاندفع قائلا : « يأبى الله ورسوله .. » .

وعقد عبد الناصر ما بين حاجبيه وقال : « ماذا تعنى ؟ » فأجبته : « المسلمون يقولون هذا القول عن كل ما هو حرام » .. فقال ، وقد تحسن مزاجه قليلا : « يعنى السفر إلى لندن حرام ؟ » .. قلت : « بالتأكيد » .. واضفت : « لقد عشنا ندير امورنا فى لندن ، وتفرض علينا المعاهدات و(الفرمانات) منها ، أو من باريس ، أو من استانبول .. إن

المعاهدة التى حددت مركز مصر الدولى ، والتى ابرمت بعد حروب محمد على مع تركيا ، اسمها معاهدة (ترابيا) لأنها عقدت فى ضاحية فى استانبول بهذا الاسم .. فإذا كان موضوع قناة السويس لابد أن يناقش هذه الأيام ، فليناقش فى مؤتمر تدعو اليه مصر ، ويعقد فى القاهرة ، وتحدد له حكومة مصر جدول الأعمال .. إن مجرد سفر رئيس جمهورية مصر إلى لندن ، هو نصف الطريق إلى الاعتراف بشرعية موقف بريطانيا وفرنسا غير الشرعى ، ولن ينقذنا هذا السفر من شيء .. فهو ان اعتبر ملاينة منا وملاطفة ، اغراهم بالعدوان ، وإن اعتبر تحرشا ومخاشنة ، اعلنوا أن مصر تتحدى العالم .. » .

• ولم يسافر عبد الناصر

وزام « عبد الناصر » ورفع الجلسة .

ولكنه لم يسافر .. وليس ذلك لأنه اقتنع بما قلته أنا ، أو بما قاله غيرى .. فقد أخبرنى « صلاح سالم » بأن الذى ثنى عزم « عبد الناصر » عن السفر هو ما قاله له السفير الهندى ، من أن « غاندى » حينما سافر إلى لندن سنة ۱۹۳۷ – وكانت الكتب التى كتبها الانجليز ، والأمريكان ، والألمان ، والفرنسيون ، عنه وترجمت إلى الانجليزية ، قد بلغت المئات .. وكانت الصورة التى رسمتها له تلك الكتب قد اظهرته بأنه التجسيد الحديث للسيد المسيح .. ومع ذلك فان جرائد ومجلات الدوائر الاستعمارية نجحت فى أن تجعل منه « بهلوانا » .. وبدلا من أن يبدو للجمهور البريطانى سياسيا ، متقشفا ، زاهدا .. سلاحه المحبة ، والدعوة إلى الاخاء الانسانى ، اتخذت هذه الصحف من عريه مادة للسخرية به ، وترويج الدعايات عنه ، وسرد الوقائع غير الحقيقية والملفقة . وضاع سحر « غاندى » غير المنكور ، وانطفأت اضواء شهرته الساطعة .. وعاد مهزوما ، مغلوبا على أمره !!.

* * *

ولقد اشفق « عبد الناصر » من أن يصل إلى هذه النتيجة ، وقد نبه إلى الفارق العظيم بين قدرة « غاندى » فى استعمال الانجليزية .. حديثا ، وكتابة ، وخطابة ، وبين قدرته هو فى هذا المجال .

ولكن .. الحمد لله ، فإن « عبد الناصر » لم يسافر .

• عاصفة .. من ناحية السودان !

وللمرة الثالثة .. عرض مجلس الوزراء موضوعا سياسيا . ولكن .. على غير ارادة « عبد الناصر » ، فقد كان المجلس مجتمعا فى قصر القبة ، وكان من بين الوزراء نائب وزير لشئون السودان هو المرحوم عبد الفتاح حسن (احد الضباط الذين تعاونوا فى موضوع السودان مع مجلس القيادة) .. وفى خلال انعقاد المجلس ، تبادل « عبد الناصر » مع المرحوم عبد الفتاح حسن بعض العبارات بصوت منخفض ، اذ لم تكن الغاية اشراك المجلس فى الموضوع . ولكن هذا « الهمس الجانبى » طال بعض الشىء ، مما احوج طرفيه إلى رفع الصوت قليلا ، قليلا ، حتى أصبح من الممكن أن يسمعه سائر الأعضاء ولا سيما الذين كانوا قريبين من موضع الرئيس فى الجلسة ، وكنت من هؤلاء ، ففهمت أن الأمر يتناول موقعا صغيرا على البحر الأحمر على الحدود المصرية – السودانية .. لا ادرى اذا كان اسمه (رأس علم) أو (علبة) – ولكنه ، على كل حال ، فى هذا الموضع . وفهمت أن السودانيين يعتقدون أن هذا الموقع سودانى ، وأن الجانب المصرى يعارضهم فى هذا الأعتقاد ، وأن الأمور تأزمت بين الطرفين حتى كاد الموقف يشتد ، فقد ارسلت حكومة السودان قوة عسكرية . وكان رأى « عبد الناصر » أن يتشدد المصريون مع السودانيين ، وأن يقابلوا القوة العسكرية السودانية بقوة تفوقها . فقلت – متداخلا فى الحديث بغير دعوة من أحد : « المفهوم أن فى السودان انتخابات ، والانتخابات بطبيعتها موسم للمزايدات ، والهاب الموقف على الحدود المصرية السودانية الجنوبية فى هذه الفترة ، سيدعو جميع الأحزاب إلى التسابق فى اظهار التمسك بهذا الموقع ، وستكون حماسة الأحزاب الموالية لمصر ، اشد من حماسة الأحزاب المعادية ، لأن نقطة ضعف الأحزاب الموالية أنهم يجاملون مصر على حساب السودان ، ولهذا ، فأنا اقترح أن نهدىء الأمور على الحدود ما استطعنا ، ما دامت القوة السودانية لم تصل إلى الموقع المتنازع عليه ، فيبقى الأمر على حاله حتى تنتهى الانتخابات ، ونحل المشكلة بالتفاهم » . فرد على : « عبد الناصر » قائلا : « بل العكس هو الصحيح ، فإن الأحزاب الان تخشى جميعا أن تغضبنا حتى لا نتدخل فى الانتخابات ضدها .. وهذه الخشية ستجعلنا اقدر على الظفر بما نطلب .. » وعدت اشرح وجهة نظرى بتفصيل أكبر .. واستمر الأخذ والرد فترة، ثم انتهت المناقشة إلى أن صدرت اوامر « عبد الناصر » للمرحوم عبد الفتاح حسن ، بأن يتناول الموضوع بحزم .

وفى اليوم التالى ، علمت أن القوة المصرية التى أمرت بالتقدم ، وجدت نفسها أمام قوة سوادنية ضخمة ، وأن الإصرار من جانب مصر ، لم يكن له إلا نتيجة واحدة هو أن يقوم بين مصر والسودان نزاع مسلح ، أى حرب - مهما تكن صغيرة - إلا أن احدا لم يكن يدرى عاقبتها ، لو أن نارها اندلعت .

وتراجعت مصر .. وسط صراخ ، وتهديد من جميع الأحزاب السودانية وفى مقدمتها الأحزاب الاتحادية الموالية لمصر والمحبة لها .

ولما اعلنت هذه النتيجة لعبد الناصر ، اكتفى بقوله : (هارد لك) ولكن النتيجة ، فى جملتها ، كانت سارة ، فقد ضبط « عبد الناصر » نفسه ، وكبح جماح غضبه .. ومرت العاصفة بسلام .

الفصل السادس

غاب أخطر قرار في تاريخ ثورة ٢٣ يوليو

مضت الأيام .. « وجمال عبد الناصر » شديد الاطمئنان إلى أنه من المستحيلات أن تدخل بريطانيا فى حرب ضدنا ، فقد كان يرى أن (مقامها) !! يمنعها من أن تخوض فى قتال مع مصر ، كما أن حنكة رجالها ، وتمرسهم بشئون السياسة ، سيحول بينهم وبين أن يتورطوا فى حماقة كحماقة غزو مصر ، فى وقت تغير فيه الرأى العام العالمى ، ونشأت فيه الأمم المتحدة ، واشتد عود الاتحاد السوفيتى ، خصم الغرب العنيد ، والمتربص لأخطاء هذا الغرب .. للتنديد والتشهير بها ، وللإفادة والكسب منها .

ولكن الحرب ، مع ذلك ، وقعت .. وكانت بريطانيا — التى تآمرت ، بليل ، وبلا أدنى حياء ، مع فرنسا وإسرائيل — هى « قائدة حرب السويس » !.

وادلهمت الأمور ، وساد الظلام ، وأطبقت جحافله على « جمال عبد الناصر » حتى أحس بالحاجة إلى عون الأطباء ، وقد سمعت — نقلا عن المرحوم الدكتور أنور المفتى — أنه قال : « لقد انهار ايدن ، فاعملوا أقصى ما فى وسعكم لكيلا أنهار مثله » كما سمعت — نقلا عن الدكتور أنور المفتى أيضا — أن من بين المواضع التى كان يشكو « عبد الناصر » ، رحمه الله ، منها أثناء هذه الأزمة : ألما فى عنقه من الخلف ، وألما على جانبى الفم ، فعلل له الطبيب سر الألمين بأن العنق فيه « عصب الانتباه والتحفز » ، وأنه — لفرط انتباهه ، وتيقظه ، وترقبه فى تلك الأيام العصيبة — أحس بهذا الألم الذى ظهر عندما ضعف الجسم وقلت مقاومته . أما الألم الذى كان يحس به فى الموضعين الواقعين على جانبى الفم ، فقد نشأ من دوام الابتسام ، أو التظاهر به . فلما اعتكف « جمال » خلال الأزمة ، واسترخت عضلات الفم — كان لابد لهذا الألم من أن يظهر .

ساد اليأس كل ما حول « عبد الناصر » . فقد اضطر أن ينقل أسرته وأولاده إلى إحدى « الفيلات » التى كانت مملوكة لأحد أمراء البيت المالك ، بعيدا عن مصر الجديدة . وقد سمعته يقول لزكريا محيى الدين : « الناس تود أن تخرج من القاهرة ، فسهلوا لهم سبل الخروج » .

فى هذه الأثناء كانت مصر ، بصفة عامة ، هادئة .. غير منزعجة ، وغير متطيرة .. ولم يفكر أحد فى الانقضاض على الحكومة . بل لم أسمع ألفاظ شماتة فيها ، كتلك الشماتة التى أعلنت عن نفسها ، وبشدة .. وصراحة .. بل وبضراوة ، فى أعقاب حرب ٦٧ .. وقد أمطرت هذه الشماتة سيلا عارما من النكات المصرية الذائعة الصيت التى لا تدع محرما ،

ولا محترما .. ولا صاحب مكانة ، أو قداسة ، إلا وتعبث به ، وتصوره كما يحلو لها فى خيالها . نزولا على مبدأ « القافية تعذر » .. وهو مبدأ شعبى معروف .

وعلى الرغم من أن عبد الناصر كان متماسكا .. إلا أن هذا التماسك كان يكلفه الكثير مما يصعب على أحد غيره احتماله ، ومما أحوجه ، فى النهاية إلى دواء الطبيب ونصائحه . وقد ذهب ، عليه رحمة الله ، إلى الجامع الأزهر ليخطب هناك ، فكان – كعادته – هادئا ، لا يبدر منه قول ، ولا إشارة ، تنبئ عما فى داخله من احتراق وتوتر .. وارتجل – على طريقته الخاصة – خطبة تجمع بين العامية والعربية الفصحى ، كانت نبرته أعلى ، وحماسته أشد ، وكانت نظرات عينيه يتطاير منها لمن يدقق – شرر الغضب ، والضيق والقلق .

وقد استطاع « عبد الناصر » ، فى تلك الخطبة ، أن يقول لجمهور المصلين ، ولجماهير مصر . والعالم العربى . والعالم كله ، إن ما ضربته طائرات بريطانيا وفرنسا على أرض المطارات المصرية ، إنما هو طائرات هيكلية .. قال ذلك ، وهو يعلم أنه لم يبق ، فى مطارات مصر كلها ، عشر طائرات تستطيع أن تحلق فى سماء القاهرة – دع عنك سماء سيناء – ولا شك أن تصريحا كهذا ، لابد وأن يكلف قائله جهدا عصبيا خارقا للطبيعة .

.. كان طبيعيا أن نفكر فى المصير الذى توشك مصر أن تؤول إليه ، فهناك جماعات من المصريين ، تختلف نزعاتهم وميولهم وأهواؤهم .. منهم من كان يؤمل فى أن يعود إليه ما فقده من مال ومكانة ، ودور بارز فى توجيه الأمور .. ولكنه يؤثر الحذر ، والاتئاد ، لأن مصر – مهما كانت الأمور – تواجه أعداء خارجيين . وكلهم أعداء تقليديون لها . وقد عاشت مصر عصرها تكرههم ، وتندد بهم ، وتهتف بسقوطهم وتجهر بعداوتهم .. ومن هنا ، لم يبد على هذه الجماعة ، قط ، أنهم ينتوون الحركة ،أو أنهم يفكرون فى انتهاز الفرصة .

ولكن .. كان هناك فريق اخر ، رأى أن مصر مهددة بالخراب ، وبالرجوع إلى الوراء خطوات وخطوات .. فقد تدخل جيوش بريطانيا وفرنسا ، وربما جيوش اسرائيل ، القاهرة وربما فكر هؤلاء المعتدون أن يعيدوا النظام القديم . وربما تركوا للفتنة المجال لكى تنطلق فتعيث فى مصر فسادا ، ليكون تأديب مصر على أيدى المصريين أنفسهم ، فإن وقع خراب ،

ونهب ، وسلب .. كانت أيدى الانجليز والفرنسيين ، وحتى اليهود .. بريئة منه !!.

هذه الجماعة – تداولت ، فى هدوء وخلوص نية ، وانتهت إلى أن أفضل الحلول لهذه الأزمة أن يتنزل عبد الناصر عن الحكم ، ومعه زملاؤه أعضاء مجلس قيادة الثورة ، واعوانهم واتباعهم ، وأن ينادى بالرئيس السابق محمد نجيب رئيسا مؤقتا للجمهورية ، ليدخل مع الغزاة فى مفاوضة الغاية منها : الا يدخل الغزاة القاهرة ، وألا يتقدموا فى زحفهم . وأن يضمن لجمال عبد الناصر و اخوانه معاملة محترمة ، وخروجا آمنا من مصر ، هم وزوجاتهم وعائلاتهم ، ومن يرغب فى اللحاق بهم ، ثم احترام ما تم من اجراءات الثورة واصلاحاتها .. وفى مقدمتها النظام الجمهورى .. والإصلاح الزراعى .

ولم تجد هذه الجماعة التى لم أعلم ، حتى اليوم ، ممن كانت تتكون – لمجرد كسل فى السؤال – رجلا منحته السماء شجاعة قلب الأسود ، سوى سليمان حافظ – نائب رئيس الوزراء فى حكومة الرئيس محمد نجيب . ووزير الداخلية ووكيل مجلس الدولة من قبل – ولست استبعد ، الآن أنه كان من بين أعضاء هذه الجماعة الدكتور عبد الرزاق السنهورى ، القانونى العربى الأشهر ، ورئيس مجلس الدولة فى أوائل عهد الثورة ، والدكتور بهى الدين بركات الذى كان رئيسا لمجلس النواب ولديوان المحاسبة فى العهد الملكى .

توكل سليمان حافظ – كعادته – على الله ، وطلب موعدا من مكتب عبد الناصر ، ليأخذ رأيه فى هذه المحاولة ، ولكن عبد الناصر رفض أن يحدد له موعدا لأنه – أى عبد الناصر – لم يكن يملك – فى تلك الظروف – من الوقت ، ولا من الأعصاب ، ما يسمح له بأن يلقى رجلا كسليمان حافظ .. هادىء الأعصاب إلى حد البرود ، بطىء الكلام نوعا ، عميق التحليل للأمور والألفاظ . ولم يكن عبد الناصر ليتصور أن وراء سليمان حافظ شيئا ذا بال يخرجه هو من الأزمة .. فأحاله إلى زميله عبد اللطيف البغدادى ..

وذهب سليمان حافظ إلى البغدادى بنفس الهدوء الذى ذهب به إلى الملك فاروق ظهر يوم ٢٦ من يوليو سنة ١٩٥٢ ، حاملا له وثيقة التنزول عن العرش .. ولا شك أن ذهاب سليمان حافظ إلى قصر رأس التين فى ذلك اليوم ، وهو ينتعل حذاء أبيض ، وبنطلونا رماديا ، وجاكتة من التيل الأبيض ، ويتأبط وثيقة نزول الملك عن العرش ، كان أشبه شىء بطفل

وديع يدخل برجليه إلى عرين الأسد ، ليعبث بشواربه ، أو يشده من ذيله .

فقد كان قصر رأس التين هو قصر الملك .. كان فى كل ثنية ، وحنية من ثناياه ، وحناياه ، جندى مسلح من الحرس الملكى ، أو موظف من الخاصة الملكية ، يمكن أن يدفعه حقده على الثورة ، وولاؤه للملك ، إلى القضاء على سليمان حافظ بضربة واحدة ، وبأى وسيلة كانت .. وما من راء . ولا سميع ، ولا شاهد .

بنفس هذا الهدوء .. ذهب سليمان حافظ إلى عبد اللطيف البغدادى ، ورشف فنجان القهوة الذى قدم له ، وأخذ يدخن سيجارته المصرية الرفيعة والمتواضعة ووضع ساقة النحيفة ، فوق ساق ، وقال بطريقته : « أيوه .. يا أخ عبد اللطيف .. عاوزك تسمع كلامى لآخره ، وتفهم أنى جئت من أجل المصلحة العامة .. مصلحة البلد كلها ومصلحتكم أيضا .. » .

واستمع البغدادى لاقتراح سليمان حافظ حتى نهايته . ثم قال له فى حدة : « لولا أنك فى بيتى لطردتك » .

ولم يرد سليمان حافظ أن يشعر بالاهانة ، ولم يغضب لها ، ولم يفقد حلمه ، وانما أعاد الكلام بنفس الهدوء ، وكرر العرض ، ثم خرج ، لا تطرف له عين ولا يهتز فيه عصب .

إن الحكم الوطنى الخالص على هذا التصرف — من جانب رجل عاش حياته وعقيدة الحزب الوطنى تملأ قلبه ، وتملك عليه زمام نفسه — لابد وأن يكون حكما قاسيا — وإن كانت بواعث سليمان هى انقى ، وأطهر البواعث — فقد كان ، ولا شك ، مشفقا على بلاده من عواقب هذه الغزوة التتارية الصليبية . ولكن الحزب الوطنى يؤمن بأن حظ الوطن ، دائما ، أن يكون مستعدا لملاقاة الشدائد ، وأهوال الصراع مع العدو .. فإن فى ذلك — اخر الأمر — النجاة ، وان بدت خطة محفوفة بالمخاطر ، وبعيدة عن الحكمة .. وايضا عن المرونة السياسية .

وخطأ اقتراح سليمان حافظ كائن فى أنه — أولا — يعزل قائد المعركة ، واركان حربه .. بينما المعركة لا تزال دائرة ، ثم انه — ثانيا — يحقق للأعداء — على قذارة مؤامراتهم ، ونذالة عدوانهم — غرضا من أهم أغراض الغزوة ، وهو اسقاط عبد الناصر .. تأديبا له ، ولجميع

الوطنيين على طول العالم العربى وعرضه .. ثم هو – ثالثا – يظهر مصر وكأنها قد أخذت المبادرة لاسقاط قادة الثورة ، وذلك إضعاف شديد لمركز المفاوض المصرى ،اذا جرت مفاوضات فيما بعد .

ولقد كان من حق عبد الناصر ، بلا شك ، أن يقبض على سليمان حافظ وعلى من أوفدوه . وكان من حقه ، بلا شك ، أن يحاكمهم محاكمة سريعة بتهمة الدعوة إلى الهزيمة . ولكن عبد الناصر ، فى تلك الفترة ، كان أضعف من أن يقدم على شىء من هذا .. ولعل أعظم ما أضعفه ، أنه كان يرى الخطر محدقا به من كل جانب وربما جال فى خاطره أنه قد يحتاج ، غدا إلى مثل هذه الوساطة المرفوضة الآن .

زال الخطر .. وتدخلت الولايات المتحدة ، فى الأمم المتحدة ، لتضع حداً للغزو الانجليزى – الفرنسى – الاسرائيلى .. وذهب ايزنهاور رئيس الولايات المتحدة ، بنفسه ، إلى مقر الجمعية العمومية ليدمغ الحملة البريطانية – الفرنسية – الاسرائيلية بأقبح النعوت .. وتململت لندن وباريس .. ولكنهما أدركتا أن زعيمة الغرب تعمل فى نهاية الأمر ، لصالح الغرب – رغم المنافسات داخل المعسكر الغربى – وأن هذه الحماقة ، يجب أن تنتهى على وجه أو آخر ، وأنه اذا ترك الباب مفتوحا فى هذه الأزمة . فإن أول من سيدخل من هذا الباب المفتوح هو الاتحاد السوفيتى . واطمأن عبد الناصر على مكانه رئيسا لمصر ، وزعيما لشعبها .. وعندئذ تذكر أن سليمان حافظ جاء ، فى هذه المحنة ، يعرض ذلك العرض الذى يمكن أن يتلخص فى كلمتين : عبد الناصر يذهب .

والقى القبض على سليمان حافظ . وزج به فى المعتقل ، بينما أنا عضو فى الوزارة لا أدرى من ذلك قليلا ولا كثيرا .

حتى كان مساء أحد الأيام ، ورن التليفون فى منزلى ، وكانت المتكلمة ، سيدة قالت أنها شقيقة سليمان حافظ .. فتبادر إلى ذهنى على الفور خاطر غاية فى السوء . فقد اشفقت أن يكون سليمان حافظ قد فارق دنيانا ، اذ لم يحدث أن كلمتنى شقيقة سليمان من قبل .. واستمعت اليها ، وعلمت أنها عاتبة على ، لأن سليمان حافظ فى المعتقل .. بينما أنا فى الوزارة . واحسست بألم ، وباهانة معا : صحيح – يعلم الله – أننى لم أكن أعلم .. ولكن عدم علمى ، هو شىء فى مثل سوء علمى و سكوتى .. فأقسمت لها بأن عهدى بهذا

الذى تقوله ، هو اللحظة التى تخاطبنى فيها . وقلت لها : « اطمئنى يا سيدتى سليمان حافظ سيفرج عنه بعد غد على الأكثر .. وإلا فسترينني خارج الوزارة » .

وانتويت أن يكون شاغلى الوحيد فى اليوم التالى ، هو العمل للافراج عن سليمان حافظ .. ولكننا دعينا للذهاب من منازلنا إلى مطار القاهرة لنستقبل ضيفا ما . وذهبت إلى المطار ، وأنا أكاد أكلم نفسى فى الطريق بصوت عال : « كيف حدث هذا ؟.. أوصلت الأمور إلى هذا الحد .. وكيف ؟ » .

وهكذا .. إلى أن وصلت إلى المطار ، وهناك بحثت عن زكريا محيى الدين ، فلما وجدته ، اسرعت اليه متجهما .. فقال : « خير ..؟ » قلت : « لم يبق خير .. » فضحك زكريا وقال متسائلا : « ليه .. ليه ؟.. » فقلت له : « سليمان حافظ معتقل منذ مدة .. » فقال – بهدوئه التقليدى –: « اه .. ألم تكن تعرف ..؟ » قلت : « وكيف أعرف ؟.. أما كان الواجب أن نخطر على الأقل باعتقال رجل كسليمان حافظ ، كان وزيرا للداخلية مثلك ، ونائب رئيس الوزراء ، واقترن اسمه بسقوط الملك » ..

عندئذ – روى زكريا محيى الدين ما حدث من سليمان حافظ .. وكانت هذه الرواية أول ما صافح أذنى فى هذا الصدد .

والحق صعقت . ورحت ، كمن يهذى ، أردد : « سليمان فعل هذا .. فعل هذا بالضبط .. لكن سليمان لا يؤمن بهذه الأساليب » .

وأفقت من الصدمة ، وتمالكت جأشى ، وقلت لزكريا ، فى عبارات غاية فى الايجاز . « لو أنكم قبضتم على سليمان حافظ وأطلقتم عليه ، وعلى من معه النار فى ميدان من ميادين القاهرة ، لبكيت عليه طول حياتى .. ولكن لما لمتكم أبدا .. فمصر كانت فى حرب ، ومثل هذه الدعوة من رجل مثله ، استهزام مرفوض ، وخطر على معنوية الشعب والجيش معا . أما وقد مرت الأزمة . وخرج الأعداء ، وزالت مبررات القرار الاستثنائى ، فإن اعتقال سليمان حافظ يصبح شيئا من قبيل النكاية ، أو الثأر السياسى ، الذى لا يجوز من رجال مثلكم مع رجل مثله . لاتحرجنى يا أخ زكريا وأطلق سراح سليمان حافظ » .

وكان زكريا محيى الدين كعهدى به .. منطقيا ، وحسن التقدير ، فما لبث أن أفرج

عن سليمان حافظ .

وفى المساء ، أتصلت بشقيقته لأطمئنها ، وكم كانت فرحتى اذ قالت لى : « سليمان فى منزله » .

ومضت أيام .. وأيام ، التقيت بعدها بسليمان حافظ وقلت له : « بلغنى أنك كنت عاتبا على اذ قصرت فى حقك » .. فقال : « ابدا .. من قال ذلك » قلت : « شقيقتك » .. فقال بهدوئه الساخر : « ليس لى أخت » .. فهتفت : « كيف ؟. كيف وهى التى اخبرتنى باعتقالك ، ولامتنى على تقصيرى » .

فقال : « هى انتحلت هذه القرابة لتكلمك » .. فقلت : « على كل حال .. لقد عملت عملا مشكورا » .

ولابد لى هنا من أن أذكر ملاحظتين تتعلقان بحديثى ذاك مع زكريا محيى الدين :

● الأولى : أن زكريا أراد أن يدلل على أن سليمان حافظ رجل حقود فقال : « تصور يا فتحى أنه يكتب إلى مدير المعتقل «سيد مدير المعتقل أرجو أن ترسلوا لى وزير الداخلية .. يعنى أنه يسمى مدير المعتقل – وهو ضابط صغير – سيدا ، ويجردنى أنا من هذا اللقب » .. فقلت له : « هذا من حقه . فمدير المعتقل موظف يؤدى واجبه ، وهو لم يعتقله .. أما أنت فزميل سابق له .. ثم أنت المسئول عن اعتقاله » .. فضحك زكريا .. وقال : « نهايته .. سليمان لا يخطىء أبدا » .

●أما الملاحظة الثانية : فهى عبارة قالها وزير شهد حديثى مع زكريا ودفاعى عن سليمان وقولى له : « إن ما يقطع بحسن نية سليمان ، وبوطنيته أنه جاء اليكم .. اليكم أنتم ، وأبدى الاقتراح فى حجرة مغلقة .. فهو لم يقف على قارعة الطريق ، أو فى ناد ليشرح اقتراحه .. هذه ليست مؤامرة مع أحد » .. فإذا الوزير المدنى – ولاتنس أنه كان زميل سليمان حافظ فى مدرسة الحقوق منذ أربعين سنة سابقة على هذا الحديث – يقول « سليمان حافظ لا يقدم على مؤامرة ، وانما يحرض غيره .. ويختفى » .. فصرخت فى وجهه – رحمه الله – أهذا دفاع .. أم تأييد للاتهام ؟!!.

ولا تزال فى جعبة أحداث تلك الفترة ، حادثة طريفة لم اسمع بها من قبل ولم يسمع بها

على ما أظن أحد ، وقد وصلت إلى علمى فى الصيف الأسبق فقط ، حينما اشتد الحديث ، واتسعت دائرته ، حول موت المشير عبد الحكيم عامر .. وهل مات مقتولا .. أم منتحرا .. وهل مات بالسم أم بغيره .. وذكر ، فيما ذكر ، اسم صلاح نصر وسمومه .. فبهذه المناسبة تحدث عبد اللطيف البغدادى إلى الأخ الدكتور نور الدين طراف فقال : « عندما تبين أن الانجليز والفرنسيين ، فى خريف سنة ١٩٥٦ ، مصممون على الزحف إلى القاهرة ، وأن الجيش لم يعد فى مقدوره رد عاديتهم عن العاصمة ، وأن الوساطات الدولية وقرارات الأمم المتحدة لم تجد . وبدأ المستقبل مظلما شديد الحلوكة .. فقد صلاح سالم آخر قطرة من معنوياته وتماسكه ، واقترح أن يتناول أعضاء مجلس قيادة الثورة سما زعافا سريع المفعول لكيلا يقعوا فى يد الانجليز والفرنسيين والأسرائيليين ، فيتخذوا منهم فرائس للانتقام والتشفى ، وينتهزها أعداء الثورة – من كل صنف ونوع – فرصة ليثأروا لأنفسهم من أولاد وبنات وذوى قربى عبد الناصر وأخوانه . ووافق الحاضرون جميعا ، على هذا الاقتراح .. ولم يحل دون تنفيذه إلا غياب البغدادى الذى لم يكن حضر ذلك الاجتماع .. فأرسلوا إلى صلاح نصر ليجهز السم المطلوب وإلى عبد اللطيف البغدادى ليبدى رأيه فى الاقتراح .. وفى خلال البحث فى الأمرين معا .. جاءت الأنباء من نيويورك .. بما لا يدع مجالا لمثل هذا اليأس القاتل ..

الفصل السابع

يوم وقعنا ميثاق الوحدة مع سوريا

كان ذلك فى اليوم الحادى والثلاثين من يناير سنة ١٩٥٨ . وعلى الرغم من أن اخر شهر يناير ، أول شهر فبراير ، فى القاهرة ، يعتبر من شهور البرد ، إلا أن ذلك اليوم كان مشمسا ، ودافئا ، كأنه من أيام الخريف الجميل فى مصر ، الذى يعادل أيام الربيع فى أوربا .
وكان اجتماع مندوبى الدولتين والشعبين : مصر وسوريا .. فى قصر القبة ، فى ضاحية غير بعيدة عن قلب العاصمة ، وتوافد المندوبون إلى حديقة القصر الجميلة ، وهى الحديقة التى أنشأها الخديو اسماعيل منذ قرن أو يزيد . وقد وقفت فى شرفة الدور الأول من أدوار القصر ، انظر إلى المندوبين السوريين يتقدمون نحو القصر فى خطى بطيئة ، وليس على وجوههم أى أنفعال ، فلاهم فى فرح ولا هم فى حزن ، ولا هم فى توجس .. كأنهم مستسلمون لقدر غير واضح . وقد بدا لى من خطى « صبرى العسلى » – بصفة خاصة – أنه لا يجد فيما يجرى .. أو فيما بعد ، ما يدعو إلى الأبتهاج والنشاط ، وأنه لو استطاع أن يمنع وقوع هذا الذى يجرى .. لما تأخر !!.

أما الجانب المصرى .. فقد كان فى حال اخر . كان القلق ، وانشغال البال ، والحيرة ، هى المشاعر السائدة . وفى حجرة من حجرات القصر سمعت « على صبرى » يقول لأخر : « لقد وضعونا فى مأزق » .. فقد قال السوريون انه إن لم تتم الوحدة ، سقطت سوريا فى يد الشيوعيين .

ولعل من طرائف التاريخ أن الذى كان يقول ذلك ، هو الضابط الذى قيل فيما بعد ، انه السياسى الذى وقع عليه اختيار الأتحاد السوفيتى ليقود السفينة المصرية – أى سفينة سياسة مصر !! أما أنا .. فقد كان لى أزمة خاصة بى ، فقد ترددت فى أن ألبى الدعوة إلى « اجتماع القبة » لسبب لا يمت بصلة إلى موضوع الأجتماع ، أى إلى موضوع الوحدة المصرية السورية ولا لأى أمر إخر يتصل بالرجال الذين اجتمعوا فى هذا المكان .. سواء كانوا من الفريق المصرى أو من الفريق السورى ، بل لأمر آخر وقع بالصدفة فى اليوم السابق لهذا الأجتماع . ولذلك ، لقد بادرت « عبد الناصر » حينما سألنى : « ما رأيك فى موضوع الوحدة؟ » قائلا :

– رأيى أنه ما كان يجب على أن أحضر اليوم .

ففهم « عبد الناصر » أن هذا الرد معناه أنى معترض على الوحدة إلى حد النفور من مجرد

الاجتماع المخصص لتوقيع مراسمها . ولكنى أضفت قائلا :

– كيف يمكن أن ألبى الدعوة لهذا الاجتماع ، وهو مقصور على الوزراء وأنا لم أعد وزيرا ؟.

فعقد عبد الناصر ما بين حاجبيه ، وهو يكاد يقول لى « إن المناسبة تسمح بالمزاح » . ولكنى لم أدع له فرصة للاستفسار . فقلت له :

– لقد أصدرت أمس قرارا جمهوريا بعزلى .

واسترسلت فى الكلام :

– تذكر سيادتك أننى اقترحت إدخال تعديل على « قانون المؤسسات العامة » لأن القانون القائم يضمن « للمؤسسات العامة » استقلالا تاما عن الوزير ، وهذا الاستقلال هو ركن من أركان نظام هذه المؤسسات خارج مصر ، ولكن الأوضاع الدستورية فى مصر لا تسمح بهذا الاستقلال ، لأن الوزير هو المسئول عن تسيير وزارته ، فإذا حللنا هذه الوزارة إلى مؤسسات ، وجعلنا كل مؤسسة دولة قائمة بذاتها ، لايملك الوزير عليها سلطانا ، كانت مسئولية الوزراء عبثا لا معنى له ، وانعدمت وسيلة مراقبة ومساءلة هذه المؤسسات .. ولذلك فأنا أريد أن أضيق نطاق تدخل الوزير فى توجيه أعمال المؤسسات بتقرير حقه فى الأعتراض المحدد المكتوب على قرار بعينه يصدره مجلس ادارة المؤسسة .. فإن تمسك المجلس – ممثلا فى ثلثى أعضائه – بالقرار محل الأعتراض ، تحمل الوزير المسئولية ، وأصبح واضحا أن قراره كان محل معارضة من المجلس . وهذا يجعل الوزير حذرا فى الإصرار على رأيه ، ويبقى المسئولية الوزارية فى حدودها .. واذكر أن هذا النظر من جانبى كان يحمل موافقة من سيادتك ، ومن مجلس الوزراء ، ومن لجان مجلس الأمة المختصة . وقد أرسلنا التعديل بقرار جمهورى منك إلى المجلس ، وتحدد لنظره جلسة . إلا أننى فوجئت بالأمس وأنا فى المجلس ، بأن قرارا جمهوريا آخر صدر منك بسحب القرار الجمهورى الأول الذى وافق على التعديل الذى اقترحته . لم أسمع بهذا القرار يا سيادة الرئيس ، ولم يخطرنى به أحد . ولم أعرف ما الذى دعا اليه .. ومعنى ذلك أن سياستى ، أو تصرفاتى ، ليست محل موافقتك ورضاك ، وأننى حصلت – بطريقة ما – على هذه الموافقة .

وهنا نفد صبر الرئيس جمال . وكان مهموما ، مشتت البال ، وقلقا فى هذه المناسبة ..

مناسبة الوحدة التى فاجأته على غير توقع ، وأربكته ، وغيرت مساره .. فقاطعنى بشىء من الحدة :

— ألم توافق أنت على سحب تعديلك ؟. ألم يكن القرار الجمهورى الثانى محل مناقشة بينك وبين « فهمى » ؟.

فأجبته متسائلا :

— فهمى .. وما شأن فهمى ؟ (« وفهمى » هذا هو المرحوم محمد فهمى السيد ، زوج بنت شقيقة السيدة الفاضلة حرم الرئيس عبد الناصر — وكان فى ذلك الحين ، مستشارا بمجلس الدولة . وكان قد أصبح « ممثل الرئيس » فى مجال القانون والقانونيين . وكان كل ما يتم من تعيين للقضاة والمستشارين وتعديل فى القوانين واصدار لها — من عمله) . ولما كان قانون المؤسسات العامة من وضعه ، فقد اعتبر أن اجراء تعديل فيه ، من غير موافقته .. أو على الأقل استئذانه ، اعتداء على اختصاصاته وسلطاته ولذا ، فإنه حينما علم بالتعديل الذى أدخلته على ذلك القانون ، ذهب إلى الرئيس جمال وأفهمه أن هذا التعديل يعنى هدما للمؤسسات العامة من أساسها .. فقال له الرئيس جمال : لا تصدع رأسى .. اذهب إلى فتحى رضوان وناقش الأمر معه ، وما تنتهيان إليه إعملا به ، وسأصدر من القرارات ما ينفذ ما تتفقان عليه .

لقد كان الواجب على (فهمى السيد) أن يأتى إلى . ولكنه خشى أن يصارحنى بما قام به من وراء ظهرى . وكان يعلم أنه لن يستطيع أن يصمد فى الجدل معى فى هذه القضية . ولهذا ، ذهب إلى المرحوم أحمد حسنى ، وزير العدل — وقتئذ — واستعداه على ، وحصل منه على موافقة على رأيه . ثم ذهب إلى الرئيس جمال وقال له : « لقد اتفقنا »!.

وظن الرئيس جمال ، عليه رحمة الله ، أن (اتفقنا) هذه تنصرف إلى ، وإلى « فهمى » .. فلما أطلعته ، ونحن فى قصر القبة على الحقيقة ، وفهم أن صهره لم يفاتحنى فى هذا الموضوع اطلاقا ، نسى موضوع الوحدة ، ونسى القلق الذى كان يساوره ، وجرى ناحية عبد اللطيف البغدادى ، وكان ، إبانئذ رئيسا لمجلس الأمة ، وسأله :

— ألا يمكن سحب القرار الجمهورى الخاص بقانون المؤسسات والمتضمن العدول

عن تنقيح هذا القانون ؟.

فقال له « بغدادى » :

– لقد نفذ السهم .. فالمجلس وافق على السحب فى جلسة أمس كما أخبرك فتحى رضوان .

وعاد إلى الرئيس جمال كاسف البال ، حزينا ، كأن موضوع الوحدة قد فشل ، وتهاوى قطعا على الأرض . وأمسك بيدى ، (ولعبد الناصر ، فى فترات الصفاء النفسى ، عادة الأمساك بيد أصحابه ، أو ضيوفه ، أو من يود مجاملتهم) وعندها يحس من أمسك « عبد الناصر » بيده بأن « تياراً » من العطف ، والود ، والمحبة قد سرى إلى يده هو – أمسك « عبد الناصر » بيدى بهذه الطريقة الودود. المؤثرة ، وقال :

– أرجوك إنس هذا ، فأنا اليوم فى حاجة إلى صفاء عقلك .. وأقسم لك أن « فهمى » افهمنى أنه اتصل بك ، وتحدث اليك طويلا ، وحصل على موافقتك وماذا أفعل .. وهذا هو حال الناس ؟!..

وجذبنى « عبد الناصر » ، نحو قاعة الاجتماع . وكان قد أرسل يدعو « فهمى السيد » ، الذى جاء وقد علا وجهه اخضرار ، وبهتت شفتاه ، فبادره عبد الناصر :

– ألم تقل لى أنك تفاهمت مع السيد فتحى رضوان :: .

وقبل أن ينطق « فهمى » – رحمه الله – أشار عبد الناصر اليه بأصبع مرتعشة من شدة الغضب قائلا : « اذهب .. ثم التفت الى ، وقد زالت من فوق وجهه علائم الغضب وقال :

– المهم الان ما هو رأيك فى الوحدة ؟.

فقلت له على الفور :

– الوحدة ، فى ذاتها ، ليست محلا لاعتراضى .. ولا يمكن أن تكون محلا لاعتراضى ، وإنما الاعتراض قائم على ملابساتها ، هل الظروف فى سوريا مواتية ؟.. هل الظروف فى المجال العربى تسمح ؟.. هل الظروف فى مصر تأذن ؟.

فالتفت الى ، رحمه الله ، بكل وجهه ، وقال :

– وبما رأيك أنت .. هل هذه الظروف كلها تسمح ؟.

فقلت :

– النظرة العجلى لا تكفى مطلقا . وهذه الخطوات الضخمة لا تتم إلا بتمهيد طويل ، فقاطعنى :

– لو سبق هذه الخطوة تمهيد ، لما تمت فى جيلنا .. وأنا معك فى كل ما تقول . ولكن .. هذا هو قدرنا . فلقد رفض السوريون رفضا باتا أى تأجيل ورفضوا منحنا فرصة نتنفس فيها ، نفكر .. وقد قبلت .. وقلت ، هى خطوة قررها الله لنا فلنتوكل .. وليكن ما يكون .

وهنا بدت على وجهه علائم قلق خفيفة جعلتنى أشفق عليه ، وقد كان بودى ، لو استطعت ، أن أضمه إلى صدرى واعانقه طويلا ، وأن أقبل جبهته ، فقد قدرت مقدار ما يعانيه فى هذه اللحظة . وأردت أن أسرى عنه ، فقلت :

– إن ما يحدث لك الان ، لم يحدث من قبل لرجل آخر فى التاريخ .. ربما حدث شيء مشابه « لبرنادوت » .. فشرد بذهنه وقال :

– من يكون برنادوت ؟.

قلت :

– إنه رأس الأسرة المالكة السويدية ، وقد كان ضابطا مثلك .. وكان طويلا كطولك ، وقد احتاجت السويد إلى ملك ، فأرسلوا بعثة إلى فرنسا للبحث عن ملك ، فوقع اختيار البعثة على (جنرال) من جنرالات نابليون ، كان طويل القامة ، حسن تقاطيع الوجه ، وكان رجلا من القلائل الذين كانوا يعارضون نابليون ولا يخافون منه . وذهب الجنرال برنادوت ليتوج ملكا على بلد لم يسبق له أن زارها ، ولم تكن معلوماته فى الجغرافيا ، بصفة عامة ، جيدة ، فكان ما يعلمه عن السويد أقل من القليل .

وضحك عبد الناصر ضحكة صادقة ، وقال :

– تبدو خالى البال ، مستعدا أن تقص القصص . المهم ما رأيك فى الوحدة ؟.

فاسترسلت فى الحديث .

– أنت غدا ستكون رئيس دولة سوريا . وأنت لم تضع قدمك فيها ، ولا تعرف الكثير عنها .. ولم تفكر ، من جانبك ، فى هذه الخطوة ، اذن – هى ارادة الله ، كما قلت ، فلنتوكل عليه .

وترك رحمه الله يدى قليلا ، ووضعها على كتفى ، وقال :

– اذن أنت لست قلقا ؟..

فأجبته :

– مواجهة الجديد تستدعى القلق ، وتدعو إلى التردد . ولكن بعد المواجهة ، يهدأ الأنسان . اسمع ياسيادة الرئيس ، بجانب الوحدة ، المصريون زراعيون ، فى دمهم ما يدعو إلى الاستقرار ، والمحافظة ، وكراهية الحركة .. والسوريون تجار .. ميالون للحركة ، قليلو الاستقرار ، فلعل هذه المواجهة ، تنقل إلى المصريين بعض خصائص السوريين .. فى أول الأمر سيشكو التجار المصريون من شدة منافسة التجار السوريين . ولكن ستحصل المزاوجة ، وسيصعب علينا أن نعرف من المصرى ومن السورى . فالتجار السوريون أمثال « الشوربجى » .. و« حلاوة » .. و« الحلبى » .. و« الحلبونى » تزوجوا من مصريات واصبحوا هم أنفسهم مصريين يقولون عن أهل سوريا : « هؤلاء الشوام » !..

فضحك « عبد الناصر » وبدا أن نفسه « انبسطت » وأن قلقه خف ، وقال لى :

– صلاح البيطار قال لى : يا سيادة الرئيس الإنسان عند نزول البيسين (حوض السباحة) يخاف من الماء ، فإذا قفز اليه زالت صدمة المجازفة فقلت له : يا أخ صلاح ، أنا خايف ألا يكون فى حوض السباحة ماء أصلا .

وجذبنى ، رحمه الله ، واتجه إلى قاعة الاجتماعات . وهو أحسن حالا ، وأكثر استبشارا ، وجلس على رأس المائدة ، وكان أول ما قاله ، موجها الحديث إلى الرئيس شكرى القوتلى رئيس جمهورية سوريا أنذاك : « الناس فى مصر بتقول أن التجار السوريين سيغزون البلاد » .. فقال الرئيس شكرى القوتلى : « لقد خلصتم من اليونانى ، والطليانى .. وسيطلع لكم السورى » .. وضحك الجميع .

ثم دار الكلام ، بعد ذلك حول « الوزارة المركزية » . و« الوزارة المحلية » أو « الأقليمية » ، فأقترحت فى هذا الصدد أمرا ، وذكرت فى أثناء عرضه نظام « البريذيوم » فى الأتحاد السوفيتى ، فإذا بجمال عبد الناصر يتصدى لى ، ويفند رأيى ويقول : « فتحى رضوان عايز (يخمنا) . المسألة دى فيها (خم) .. » ولفظ (يخمنا) هو لفظ دارج لم يستعمل فى مصر إلا حديثا ، ومعناه « يستغفل » .

ولست أذكر ، الآن ، تفاصيل اقتراحى ، ولا حتى جوهره .. ولكن الذى أذكره أنى يومها لم أرد بما قلت إستغفالا لأحد .. ولا أحسبنى جاوزت الصواب .

انتهى البحث فى الجلسة الموسعة التى ضمت أعضاء الجانبين المصرى والسورى والرئيس عبد الناصر والقوتلى إلى تأليف لجنة لصياغة بيان الوحدة . وقد شكلت اللجنة من « على صبرى » .. ومنى .. ممثلين للمصريين ومن « عفيف البزرى » .. و « صلاح البيطار » ممثلين للسوريين ، واتفقنا على أن نجتمع فى المساء لنضع البيان .

ولقد كانت كتابة بيان ، من عشرين سطرا ، أو ثلاثين ، عملا شاقا ، حتى لقد كاد الفجر يطلع علينا ، ونحن ما نزال نضع كلمة ونحذفها ، ونقرأ سطرا ثم نلغيه . وشعر « على صبرى » بالسأم ، ثم بالتعب .. فقام وقال « افعل معهم ما شئت . فأنا موافق ، سلفا ، على ما ستوافقون عليه » .

وبعد قليل شعر العضوان السوريان بالتعب فقاما ، وتركا لى مهمة اعداد البيان ، على أن نقرأه فى الغد صباحا قبل الاجتماع الشامل عند الظهيرة .

كان الاتفاق ، قبل انفضاض اجتماعنا ، ان نلتقى فى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى . ولما كانت الثامنة ، وجدتنى لم أحظ فى الليلة السابقة إلا بنحو ثلاث ساعات من النوم ، وأحسست بأن رأسى تدور ، فتمهلت قليلا ، وحاولت أن أنبه نفسى بحمام ساخن وبعض الاسترخاء ، ثم وصلت إلى قصر القبة فى الساعة التاسعة وفى جيبى مشروع البيان ، وأنا ساخط عليه لأنى لم أشعر بالحرية وأنا اكتبه لكثرة ما سبق بالأمس فى اللجنة الرباعية ، من جانب السوريين ، من تحفظات . وكم كانت دهشتى أنى لم أجد أحدا منهم .. مع أنى كنت أصعد درجات سلم الدور الأول فى قصر القبة ، وأنا أكاد انكفىء على وجهى ، خوفا

من أن يطول انتظار باقى الأعضاء لى . وقد بقيت وحدى اتثاءب واتمطى ، حتى جاوزت الساعة العاشرة فاجتمعت اللجنة الثلاثية – لا الرباعية – لأن « على صبرى » لم يحضر .. حتى كان الاجتماع الموسع .

ولقد حدث أثناء انعقاد اللجنة الثلاثية ، وكان معنا بعض الموظفين المصريين فى رياسة مجلس الوزراء ، وفى وزارة الخارجية ، أنْ دفع باب الحجرة التى كنا نجتمع فيها برفق ، وظهر من خلف الباب الدكتور محمود فوزى وزير الخارجية المصرية . فلما رآنا أغلق الباب بسرعة ، وكأنه أتى أمرا إدا (مستنكرا) !!.

كانت هذه الحركة من جانب الدكتور محمود فوزى كافية لأن تثير « عفيف البزرى » – وكان ، على ما أذكر ، قائد الجيش ووزير حربية سوريا – فقد صرخ : « كيف .. كيف سيدى ! وزير الخارجية المصرية يتحرج من أن يدخل علينا وأن يسألنا إلى ما وصلنا ، ويمنحنا بعض توجيهاته ، أليس ذوبان بلده فى كيان أكبر عملا من أخص خصائص الخارجية . ما بيصير هذا » .

فرد عليه « البيطار » : « ولكن الدكتور فوزى يعلم أن المجتمعين شكلوا لجنة رباعية لوضع البيان ، فلا يجوز له أن يقحم نفسه على هذه اللجنة » .. فأثار هذا الرد ، « البزرى » أكثر مما أثاره تصرف الدكتور فوزى ، وعلا صوته وقال : « لجنة .. لجنة .. لجنة سيدى ما فى اللجنة سر على عضو فى الاجتماع الأكبر ، ولا عليه ، وهو وزير الخارجية . تأليف اللجنة هو إجراء عملى فقط .. ولكن هذه الخطة ، خطة البعد عن مواطن المسئولية ، وإيثار العافية والصمت ، هى عيوب فى كبار رجالنا الفنيين ، وهذا ما أغضبنى » .

* * *

كان ذلك داعيا لأن نترك البيان لفترة غير قصيرة لمناقشة شخصية الدكتور فوزى ، وقد انضم الينا فى الحديث الموظفون الفنيون الذين كانو معنا فى الحجرة وقد بدأوا الحديث أول الأمر على استحياء ، ثم لما اطمأنوا إلى أن أحدا لم يمنعهم .. أفاضوا فى الحديث عن أسلوب الدكتور فوزى وخطته . وذكروا أنه ترك وزارة الخارجية للسيد حسين ذو الفقار – وكيلها – وأنه تقريبا لا يأتى إلى مكتبه ، وأن سكرتيره الخاص نقل فى احدى حركات

التنقلات دون أن يعرف الدكتور فوزى !! فضلا عن أن يستأذن فى ذلك ، وأن السفير حسين غالب رشدى – وكان سفيرا لمصر فى اسبانيا – خرج ذات يوم من لدى وزير الخارجية ، الدكتور فوزى ، بعد أن سمع منه ثناء جما على عمله ، ووعدا بأنه سينقل ، فى الحركة القادمة ، إلى مكان أفضل من أسبانيا فإذا به يفاجأ بأنه فصل من السلك السياسى كله !!.

وقال آخر : « إن هذا شأن كبار الدبلوماسيين .. فإن (تاليران) عمل مع الثورة الفرنسية .. ومع نابليون ومع ملكية البوربون بعد سقوط نابليون » . وهنا صاح صائح من السوريين قائلا : « تاليران كان قادرا على الاحتفاظ بمركزه لدهائه ، ومرونته ، وتكيفه . ولكنه كان شخصية فعالة تبدى رأيها ولا تصمت وتكافح وتداور وتناور » . وبالغ أحدهم فى الحملة على الدكتور فوزى فقال : « أنه يأبى أن يحمل ساعة فى يده أو جيبه لكى لا يسأله أحدهم كم الساعة ، فيضطر إلى الأجابة » !!.

وذكر ثان أنه سمع من أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة أنه لا يذكر أنه سمع صوت الدكتور فوزى ، ولذلك فهو لا يعرفه .

وقال ثالث : « من الغرائب أن الكثيرين يحملون على سياسة عبد الناصر الخارجية ، ويسمونها بالحماقة والإندفاع وعدم التخطيط والسطحية .. ومع ذلك ، يتحدثون ، فى نفس الوقت ، عن كفاءة وعبقرية الدكتور فوزى وزير الخارجية ، وهو إما أن يكون واضع هذه السياسة الخارجية . فيتحمل وزرها .. وإما أن يكون لا رأى له فى سياسة بلاده الخارجية فينتفى – أساسا – القول بكفاءته وبراعته والمعيته » .

ووجد الأعضاء صعوبة فى العودة إلى أصل الموضوع .

* * *

ولما انعقد الاجتماع الكبير – تلوت البيان . فاقترح الرئيس القوتلى أن نضمنه معنى أن الوحدة السورية المصرية ليست سوى بداية ، وأنها مفتوحة لمن عداهما من الدول العربية إلى الأنضمام لها فى وحدة أو اتحاد . فضمنا هذا المعنى إلى البيان .. ولقد هزتنى كثيرا تحية

الرئيس القوتلى لى .. اذ قال ، قبل أن أتلو البيان : « نحن عارفون بقدرتك على الافاضة . وقد كتفناك .. وأنت لا تحب القيود » .

وانفض الاجتماع ، وتبادلنا التهانى ..

ثم .. كان ما كان .

الفصل الثامن

عبد الناصر واختيار الرجال

ليس أشق على أى رئيس دولة ، من اختيار رجاله الذين يعملون معه ، وينفذون أوامره ، ويقترحون عليه الأفكار والمشروعات ، وينصحونه .. أو ينقدون قراراته عند الأقتضاء . فإذا وفق الرئيس إلى اختيار الرجل الصالح والمناسب ، فإن « بطانة » الرئيس المقربة اليه ، والمحببة إلى قلبه ، قد لا تقبل هذا الرجل ، لأنها ترى فيه ما يهدد امتيازاتها ، ويشاركها فى حب الرئيس ، فتفعل المستحيل لتمنع تعيينه . واذا صمد الرئيس للمؤامرات حوله ، وعين الرجل الصالح الذى اختاره ، فقد تطارده « البطانة » بعد ذلك ، وتضع فى طريقة العراقيل والعقبات ، حتى يفر من وجهها نجاة بنفسه . واذا صمد فى وجهها ، رأى نفسه ، اخر الأمر ، غير قادر على أن يعمل شيئا . وقد يرى « الرجل الصالح » أن خير وسيلة لبقائه هى أن « يفسد » . وأن يخضع لاوامر البطانة والحاشية ذات النفوذ !! ثم يكتشف الرئيس أن الرجل الذى ظنه « صالحا ومناسبا » .. لا هو « صالح » .. ولا « مناسب » ! و« الصلاح » كلمة مطاطة ، وغير متفق على معنى محدد لها . فالرجل الصالح كأستاذ فى الجامعة .. قد لا يصلح لعمل سياسى . والصالح فى رئاسة مؤسسة كبرى .. قد لا ينجح فى إدارة وزارة صغيرة ، فكثير من قادة المعارك ، وعباقرة الحروب ، فشلوا فى إدارة الدول .. والحديث طويل .

فى السابع من سبتمبر سنة ١٩٥٢ – تقررت أقالة الرئيس « على ماهر » من رئاسة الوزارة التى أسندت اليه يوم ٢٤ يوليو سنة ١٩٥٢ ، والثورة لا تزال فى يومها الأول ، وقد كنت أنا صاحب اقتراح هذه الأقالة . فقد كانت عقلية على ماهر « عقلية ملكية » .. وكان الرجل – بكل مكوناته وخلفياته – أبعد الناس عن أن يمثل ثورة شابة خلعت الملك الذى قام هو نفسه بالاسراع فى اجراءات اجلاسه على العرش !.. وكان الذين حول « على ماهر » – ومنهم بعض وزرائه – ممن لا يرقون كثيرا عن مستوى الشبهات . ولم يتمتع العديد منهم بالكفاءة التى ترشحهم لتولى مناصب الوزراء فى حكومة كان عليها أن تنهى الملكية ، وأن تدخل فى صراع سياسى واجتماعى ، ضد جميع أفكار ، ومبادىء ، وتقاليد المجتمع القديم الذى كان « على ماهر » واحداً من صانعيه ، وواحدا من كبار ممثليه !!.

استجاب أعضاء مجلس قيادة الثورة لاقتراحى ، وتأثروا به ، وأوفدوا أثنين من أعضاء المجلس هما : « أنور السادات » .. و« جمال سالم » إلى « الرئيس على ماهر » فطلبو اليه أن يستقيل .. فاستقال .

وكنت قد أقترحت على مجلس قيادة الثورة ، أن يسندوا رئاسة الوزارة إلى قانونى كبير هو « سليمان حافظ » .. وكان يشغل ، أنذاك ، منصب وكيل مجلس الدولة — وهو الهيئة القضائية المختصة بمراجعة تشريعات الدولة ، وبالحكم فى القضايا المرفوعة ضدها . وقد كان « سليمان حافظ » — بحكم منصبه هذا — يعمل مستشارا خاصا لرئيس الوزراء .. أيا كان اسم هذا الرئيس .. وبهذه الصفة ، اتيح له أن يشارك فى المداولات الخاصة باجراءات عزل الملك فاروق ، واعداد وثيقة نزوله عن العرش . وقد اشرت فى موضع سابق من هذا الكتاب ، إلى المجازفة العظيمة التى أقدم عليها حينا تأبط مظروفا — ظهر يوم السبت الموافق ٢٦ من يوليو ١٩٥٢ — وذهب إلى « قصر رأس التين » ليقابل « ملك البلاد » .. ولم يكن فى هذا المظروف سوى وثيقة تنازل هذا الملك ذاته الذى كان يحكم مصر حتى تلك اللحظة ، دون أن يجرؤ رجل من رجالاتها الكبار أن يراجعه بصراحة .. ولو بكلمة !.

ذهب « سليمان حافظ » إلى « قصر رأس التين » . وكان الملك فاروق قد لجأ إليه فارا من « قصر المنتزه » الذى كان الجيش قد حاصره . وكان « قصر رأس التين » متصلا بالبحر .. وله ميناء خاص به ، ييسر لمن يكون فى القصر أن يستقل زورقا أو طرادا وينطلق فى البحر الواسع . ولم يكن الصراع بين الملك والضباط الشبان الذين ثاروا ضده قد حسم .

ولم تكن القوى الدولية التى اعتادت أن تتصرف فى شئون مصر ، وتتصارع حول الأستئثار بالسلطان فيها ، قد أعلنت ، بصراحة ، ماذا تريد لمصر . ومن هنا كان دخول « سليمان حافظ » إلى الملك فى قصره .. وحوله حرسه المدجج بالسلاح ، والحاشية التى تحب الملك — بمثابة الدخول إلى « عرين الأسد » حقيقة لا مجازا . ولكنه رجل لا يعرف الخوف ، اشترك فى العمل السرى ضد الأحتلال البريطانى .. وحلق فوق رأسه الأتهام فى قضية مقتل « السردار » البريطانى التى أتهم فيها « أحمد ماهر » .. و« النقراشى » .. وكاد يعلق فى حبل المشنقة ، لولا أن الله قيض له ظرفا أنجاه من هذا المصير . وهو رجل هادىء لا يغضب .. واذا تكلم فى مسائل القانون ، راح يفتت المشاكل تفتيتا .. بمنطق بارد وصارم ، وواضح وضوحا عجيبا كأن فى رأسه ، وعلى لسانه ، مصباحا كاشفا .. يطارد الغامض ..ويبسط الصعب !.

وكان ترشيحى لسليمان حافظ ليتولى رئاسة الوزارة ، قائما على ثلاثة عناصر تؤهله لهذا

المنصب الخطير فى تلك الحقبة التى لم تشهد مصر مثلها ، منذ أقيل الخديوى اسماعيل سنة ١٨٧٩ .

● أولهما : وطنيته .. واشتغاله بالمسائل العامة . وتضحياته ، وشجاعته فليس هو رجل قضاء لا يتجاوز اهتمامه ، وممارسته ، ودرايته نص القانون وملفات القضايا .

● وثانيا : مكابدته لمشكلات الحكم من خلال فتاواه للحكومة فيما يصادفها من أزمات وما تقترحه من تشريعات .

● وثالثا : نزاهته .. وزهده فى المال ، وفى الجاه ، وفى السلطان .. وبساطة حياته ، وتحرره من التقاليد التى تحكم امثاله ..

ولم أدخل فى حسابى ، وأنا ارشحه ، أن هذا الزهد سيغلبه ! وأنه سيفر من رئاسة الحكومة — وهو أمر لا يتصور وقوعه فى تلك الفترة من مصرى سواه — اذ لم يكن فى مصر من لا يرى نفسه صالحا لرئاسة الوزارة .. وحتى لتولى عرش البلاد مهما كانت كفايته قليلة .. ومكانته ضئيلة!!.

كان سليمان حافظ قد قدم ، فى يومين متتالين .. وفى أقل من شهر وبعض شهر ، دليلين على أنه رجل قد لا يضارعه أحد من مواطنيه .

● الأول : حينما حصل من الملك على توقيعه بالنزول عن العرش ، وكأنه يطلب من هذا توقيعه الملك على صك بعشرة جنيهات ..

● والثانى : حينما جاءت اليه الرياسة منقادة فى عهد جديد ، ومع شبان ما يزالون فى ريعان عمرهم .. ومهما قيل فى وطنيتهم ، وشجاعتهم ، فإن خبرة الحكم كانت تنقصهم .. فأباها .

واتفق على أن يعقد مجلس القيادة اجتماعا للنظر فى تشكيل الوزراة الجديدة . والعجيب أننا التقينا — سليمان حافظ وأنا — على غير موعد فى مبنى ادارة قضايا الحكومة . فقد رأيته يسير فى دهليز من دهاليزها فى بذلته البسيطة المكونة من بنطلون رمادى وسترة من التيل بيضاء اللون .. وينتعل حذاء أيض بنعل من الكاوتشوك المعروف فى مصر باسم « الكريب » ..

وكأنه لا يمت بصلة إلى الرجل الذى كان ، بالامس ، يلعب دورا من أكبر أدوار تاريخ مصر الحديث ، ألا وهو إنزال آخر ملك من ملوك مصر من فوق عرشه ، فى أعرق ملكية استمرت ستة آلاف سنة متصلة . لم تنقطع يوما واحدا ! وحيانى سليمان حافظ .. ثم قال :

— « أخذ باقتراحك .. فوزارة على ماهر أقيلت ، وعرضوا على الوزارة فاعتذرت عنها » . فصرخت : « لماذا تعتذر ؟! إن الوزارة هذه المرة ليست تشريفا .. إنما هى مجازفة بالحياة ، واستهداف لمخاطر أكثر من الموت ، وعبء ينوء تحته أقوى الرجال » .. فقال ، وكأنه لا يسمع : « الوزارة بعد عزل الملك ، أصبحت فى حاجة إلى شخصية أكبر منى . أنا لا أحد يعرفنى فى مصر ، ولا خارجها . وشهرة الحاكم ، فى ظرف ما ، عنصر من عناصر أهليته للحكم .. المهم أننا سنجتمع ظهر اليوم بمجلس قيادة الثورة بكوبرى القبة ، وأنت مدعو للمشاركة » .

* * *

وفى الساعة الثانية عشرة ، أو بعدها بقليل ، كنت فى مجلس قيادة الثورة . هذا المبنى المكون من دورين فى شارع الخليفة المأمون ، والذى اعتدت أن أمر به فى سيارتى الصغيرة (هيلمان) فى اليوم الواحد أربع مرات : اثنتين فى الصباح .. واثنتين فى المساء .. دون أن التفت اليه ، ودون أن أعرف ماذا فيه .

وكنت قد دخلت هذا المبنى ، قبل ذلك اليوم ، ثلاث مرات . مرة فى يوم الجمعة السابق على هذا الأجتماع . ومرة فى يوم السبت . ثم مرة فى يوم الأحد .. وفى اليوم الأول تقابلت ، لأول مرة ، مع ضابط شاب فى رتبة صاغ (رائد) . ولم يكن هذا الشاب سوى عضو مجلس قيادة الثورة (المرحوم عبد الحكيم عامر) .. وفى المرة الثانية .. وفى المساء .. قابلت (المرحوم قائد الجناح جمال سالم) .. وفى المرة الثالثة التقيت بمجلس القيادة مجتمعا .. باستثناء اثنين هما الرئيس محمد نجيب الذى لم يكن قد ضم بعد لهذا المجلس والمرحوم جمال سالم الذى كان يرفض الاتصال بالمدنيين ، أو الاستماع إلى ما يقولون !!.

وفى هذا اليوم ، كان يجرى أول تشكيل وزارى من نوعه .. فقد عانت مصر ، منذ احتلها الانجليز سنة ١٨٨٢ . وكانت لعبة الوزارة والوزراء وتشكيل الوزارات واقالتها ،

مقصورة على الملك وعدد من رجال قصره ، يكون أبرزهم أحيانا رئيس ديوانه ، واحيانا ناظر خاصته ، واحيانا وكيل ديوانه أو كبير أمنائه .. واستمر الحال يتدهور حتى أصبح (أحد خدمه) الذين يعينونه على ارتداء ثيابه وخلعها ، هو صاحب الكلمة الأولى فى اقامة الوزارات وخلعها أيضا .. أما خارج القصر .. فقد اقتصرت أسماء الوزراء على نحو ثلاثين اسما من جميع الأحزاب ، يتناوبون الجلوس على مقاعد الوزارة ، ويسقطون منها ، ويعودون اليها ، وكأنهم أحجار (الدومينو) ، تتغير أماكنها من رقعة اللعب ، ولكنها هى لا تتغير أبدا .

وفى ذلك اليوم .. كان يشتغل بالحكومة وبنائها ، ضباط صغار لا يزيد عمر أكبرهم عن الثانية والثلاثين ، اذ ولدوا جميعا ، بين سنتى ١٩١٨ و١٩١٩ . ولم يكن فى وسع أحدهم ، قبل الثورة ، أن يخاطب وكيل وزارة ، أو أمينا عاما فيها ، إلا وهو مشدود القامة ، محييا تحية عسكرية .

وكان الوزراء الذين يدعون للحكم ، جددا ، شبانا صغارا ، فى أولى درجات السلم السياسى .. وموظفين قريبين من أعلى السلك الأدارى . ولكنهم بعيدون ، كل البعد ، عن السياسة ، والوزارة ، والحكم .

* * *

دخلت القاعة التى كان يشغلها رئيس مجلس قيادة الثورة ، لارى فيها مشهدا عجيبا . أناس مدعوون للوزارة ، وعلى وجوههم من علائم الخوف والفزع ، ما لم يعل وجه مصرى دعى للوزارة من قبل .

فقد تصوروا أنهم مقبوض عليهم . اذ أن الدعوة التى وصلتهم لم تبين لهم لماذا دعوا إلى « مجلس قيادة الثورة المخيف » . وبعضهم أدرك أنه مرشح لتولى منصة الحكم . ولكنه أشفق من هذه الدعوة ، فالملك لم يكن قد غادر البلاد إلا منذ أقل من شهرين . وأمور السياسة لا تستقر على حال . وقد يعود الملك إلى مصر ، فيعتبر من تولى أمور الحكم ، استجابة لدعوة الثورة .. متمردا ، وخائنا . وقد يساق إلى المشنقة .. بوصفه ثائرا ، وخارجا على مليكه . وفى أحسن الظروف قد يودع السجن . وإن هو خرج منه .. فنصيبه

التشرد والجوع . ثم .. من يضمن أن الأعتذار عن دخول الوزارة ، لن يفسر بأنه رفض للتعاون مع الثورة ؟. وقد تستقر هذه الثورة أو يطول عمرها . فيكون هذا الرفض مخاصمة لها تعرضه للمكاره والتضييق !!.

ولقد رأيت أحد المرشحين متجها إلى القاعة ومن خلفه ضابط من الشرطة العسكرية .. و« المرشح المسكين » يتلفت حوله ، وكأنه يطلب الغوث والنجدة ولما رآني – وكان يعرفني – هتف بأسمي ، واندفع نحوى .. ولولا الحياء لالقى بنفسه على صدرى !!. ولكن المرشحين الذين سبق لهم أن شاركوا فى الحكم ، قبل الثورة ، دخلوا القاعة هادئين ، وعلى وجههم قرار ظاهر مقروء :

(نحن لن نشترك فى هذه الوزارة .. لاننا لا نتفق مع مبادئها .. وفى مقدمتها : الأصلاح الزراعى ، وتناول الأمور بروح ثورية تقلب عاليها سافلها) .. وكان فى مقدمة أصحاب هذا القرار : محمود محمد محمود . والمهندس حامد سليمان . ومريت غالى .. وإبراهيم بيومى مدكور . وكان من المعتذرين صاحب شخصية غريبة لا تعرف بواعثها ولا تطمئن إلى مفاجأتها .. ذلك هو « الباشا » حفنى محمود – شقيق صاحب المقام الرفيع محمد محمود (باشا) رئيس حزب الأحرار الدستوريين – حزب الارستقراطية المصرية ، وقد انتهى به الأمر إلى أن يكون نصيرا للسلام ، وصديقا للشيوعيين ويساريا ، بعد أن عاش حياته يدبر المقالب المضحكة فى أصدقائه واعدائه على السواء . ولو دخل (الباشا) .. حفنى محمود الوزارة .. لكان وجوده فيها مددا لروح جديدة من العبث المقرون بالجد .. والجد الممزوج بالعبث ، الذى كانت الحياة المصرية فى أشد الحاجة اليه ، لوضع حد لركودها الذى طال نحو ربع قرن .. منذ أجهضت ثورة ١٩١٩ .

* * *

رأيت فى ركن من هذه الحجرة ، المرحوم « جمال سالم » ، يناقش تارة فى هدوء وأخرى فى صراخ .. الأستاذ عبد الجليل العمرى الذى دخل الوزارة فى نفس اليوم ، وزيرا للمالية .. وكانت له شروط بشأن الحد الأقصى للملكية الزراعية ، وما يحق للمالك الزراعى أن تملكه زوجته وأولاده ، وما يتصرف فيه بالإيجار لصغار المزارعين .

وكان « جمال سالم » يرفض هذه الشروط ، ويحاول أن يزحزح « العمرى » عنها ولما لم ينجح ، سمعته يقول له : « أنا قابل شروطك لا اقتناعا بها ، ولكن حرصا على معاونتك واشتراكك في الوزارة » .

وخارج القاعة .. كان هناك مندوبون للأخوان المسلمين الشباب . أذكر منهم المرحومين « منير دلة » ، و« حسن العشماوى » . وكانا صهرين . اذ كان أولهما زوج أخت ثانيهما . وكان حسن العشماوى نجل محمد العشماوى (باشا) الوزير الذى تعلمون ، قبل الثورة ، مع الأخوان المسلمين . فأصبح من كبار رجالهم ، وإن لم ينضم رسميا اليهم . ولكن قيادة الثورة رفضت أن تأخذ أحدهما ، ولا كليهما ، للوزارة . وفضلت عليهما مرشح المرحوم حسن الهضيبى مرشد الأخوان المسلمين ، وهو المرحوم أحمد حسنى وكيل محكمة النقض أنذاك .. وشهدت هذه القاعة مشهدا طريفا حقا . فقد كانت المداولات بين الضباط من جهة .. وبين المدنيين المرشحين للوزارةمن جهة أخرى — تسفر عن الأتفاق على اسم من الاسماء ، فيتعين أن يتصل به (رئيس مجلس قيادة الثورة) تليفونيا . ويدعوه للاشتراك فى الوزارة . فقام الرجل بهذه المهمة ، ودعا أشخاصا لم يسمع بأسمائهم من قبل ، للاشتراك فى الوزارة . فكان يتلقى الأسم ، ثم يطلب له صاحب الأسم على التليفون .. فإذا هم بالكلام .. نسى الأسم ، ويطلب أن يذكر به . فيذكر له وسط ضجيج القاعة ، فلا يسمعه جيدا فينادى من طلبه فى التليفون باسم « مغلوط » ثم يصحح له ، فيصححه بدوره .. وهكذا . والرجل على الطرف الأخر من التليفون ، مندهش .. لا يدرى من الذى يعابثه على هذه الصورة ، وهو يحسب أن الأمر مزاح كله . وهو فى واقع الأمر ، جد خالص !!.

كنت واقفا مع الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، وهو يروى حيرته بين معسكرات الأخوان المسلمين . فالشبان منهم لهم مرشحان . والشيوخ لهم مرشحان أخران ، فقلت له : « حبذا لو أخذت الشيخ أحمد حسن الباقورى » .. وكان « جمال » متلهفا على حل .. فسألنى .. وهو شارد الذهن : « من ؟ » فأعدت عليه الأسم . فعاد يسأل : « من ؟ » فلما أعدته عليه ، للمرة الثانية بدت عليه خيبة أمل . فقلت له : « الحقيقة . أنا بودى أن يكون من بين الوزراء أزهرى صاحب عمامة . فللأزهر ولاصحاب العمائم فضل على نهضة مصر الحديثة . فكان منهم الخطباء ، والشعراء ، والصحفيون ، والمفكرون . ولكننا درجنا على أهمالهم بلا مبرر . و« الباقورى » أزهرى مشتغل بالسياسة . وقد جره هذا الأشتغال

إلى المعتقل ، فقضى به وقتا غير قصير . وهو خطيب ، ومتحدث ومتطور .. وسيرى فيه الناس صورة جيدة للأزهرى » . فأجابنى : « إن أردت الحقيقة .. أنا أفضل أن يكون ممثل الأخوان هو « حسن العشماوى » .. فهل تعرفه ؟ » . قلت له : « أعرفه جيدا .. فقد تردد على فى مكتبى ، ووكلنى فى قضايا الأخوان ، وأعطانى فى يدى هذه مئات الجنيهات . وهو شاب ذكى وسيكون له بلا شك مستقبل سياسى ، ولا اعترض على ترشيحه للوزارة وإن كان لا يزال صغير السن جدا » فقال لى عبد الناصر على الفور : « اذن نأخذه ودعك من الباقورى » . فقلت له : « افعل ما تشاء .. فأنتم أصحاب الأمر ، وأنا لا أقول ما أقول إلا على سبيل الأقتراح » .

والعجيب أننى سمعت « عبد الناصر »يقول لى : « ولكننى أريد أن توافق على دخول حسن العشماوى الوزارة » .. فأدهشنى منه اصراره على طلب موافقتى .. فقلت له : « موافق » .. فسألنى : « وسحبت ترشيحك للباقورى ؟ »فزادت دهشتى .. وقلت له : « إن ترشيحى للباقورى أو لغيره ، هو مجرد اقتراح ، تأخذون به ، أو تدعونه كما يحلو لكم . ولست أرى تعارضا فى أن تأخذهما معا . فهما مرشحان جيدان » . فقال فى أسف : « بل لابد من أخذ أحدهما فقط . لأنى لا أستطيع أن أخذ من الأخوان المسلمين أكثر من اثنين .. ولا استطيع أن أخذ من فريق الشباب أكثر من واحد . وأريد أن يكون هذا « الواحد » هو العشماوى . ولكنك مصمم على ترشيح الباقورى » فقلت له : « وماذا يقدم تصميمى أو يؤخر .. فأنت الذى تختار الوزراء لا أنا » فهز رأسه وقال : « ليكن ما تريد . سنأخذ الباقورى » !!.

ومن غرائب التاريخ أنه لم يكد يمضى على هذا الحديث بضعة شهور ، حتى كان « حسن العشماوى » قد صار خصما عنيفا للثورة ، ولعبد الناصر بالذات .. وبلغت هذه الخصومة إلى حد أن اتهمته الثورة بتدبير انقلاب ضدها . وحوكم غيابيا . وحكم عليه بالموت !! فاضطر إلى اللجوء إلى الكويت ، وعاش فيها لاجئا .. وعلا مقامه هناك ، حتى توفاه الله وهو فى مقتبل العمر .

وفى ذات ليلة .. بعد تأليف الوزارة بشهور — انصرفنا نحن سكان مصر الجديدة من أعضاء مجلس الوزراء . الشرباصى ، وأحمد حسنى ، والباقورى ، وأنا — فركبنا معا عربة واحدة . وجاء ذكر « العشماوى » .. فقلت للباقورى : « لو أن ترشيح حسن العشماوى نفذ

يومذاك ، لكان معنا الان .. ولكنت أنت محكوما عليك ، ومطاردا ، وهائما على وجهك » .

ولم أكن قد ذكرت للباقورى ، حتى هذا اليوم ، شيئا عن ترشيحى اياه خشية أن يكون فى ذلك صورة من صور المن .

* * *

ولم ينته ترشيح الرجال ، واستبدالهم بغيرهم .. بل استمرت عملية الترشيح . فالذين رشحتهم ، فى ذلك اليوم ، وهم : سليمان حافظ ، والدكتور صبرى منصور ، والأستاذ فراج طايع ، والأستاذ حسين أبو زيد والشيخ الباقورى ، ثم فريد انطون .. بعد ذلك ، لم يبق منهم فى الوزارة – قبل أن يكمل عاما – إلا « الباقورى » الذى أثبت أنه سياسى .. وأنه يتمتع بمرونة وحسن حيلة . أما الاخرون فقد خرجوا من الوزراة تباعا . وكان ذلك طبيعيا فقد كانوا رجالا صالحين فى كثرتهم ، وعلى خلق عظيم . لكن لم يكن فيهم سياسى واحد .. والبقاء فى الوزارة – خصوصا فى أوقات الأزمات – يحتاج إلى قدرة سياسية . فلا تنفع الكفاءة الفنية وحدها . ولا ينفع الخلق القويم وحده . فالمرونة التى ترتفع أحيانا ، أو تهبط ، إلى المداورة ، ثم المنافقة وضبط النفس حتى لا يندفع السياسى إلى معارضة ومهاجمة كل ما لا يعجبه ، محتفظا بنفسه إلى الموقف الأكثر أهمية .. قد تتحول ، مع الزمن ، إلى « وصولية » تبرر كل خطأ ، وتؤيد الحاكم فى كل ما يقول ويعمل . ولكن الظروف ، وأيضا الحظوظ ، لهما دورهما ، وكلمتهما ، فيما يرفع الناس .. وفيما يهبط بهم !! فقد يكون الفرق بين دخول الوزارة ، أو دخول السجن ، بل صعود المشنقة ، مجرد حركة صغيرة ، أو دخول زائر غير متوقع ، أو تعطل خط تليفونى !.

ولدى على ذلك أمثلة كثيرة .. فمرشح حسن الهضيبى الأول للوزارة فى السابع من سبتمبر ١٩٥٢ ، كان هو الأستاذ كمال الديب ، محافظ الأسكندرية فى ذلك الوقت . ولكنه لم يدخل الوزارة ، لمجرد وجوده فى الأسكندرية يوم تأليف الوزارة . اذ كان « جمال عبد الناصر » حريصا على أن يتم تأليف الوزراة فى تلك الليلة .. وقد كان تأليفها ممكنا مع ادراج اسمه فى قائمة الوزراء وتأجيل (حلف اليمين) بالنسبة لكمال الديب إلى اليوم التالى !!.

وفى ذات الليلة .. عدت إلى بيتى .. وبينا أنا على السلم المؤدى إلى مكتبى فى المنزل . سمعت جرس التليفون ، فعدوت نحوه ورفعت السماعة فإذا المتكلم « جمال عبد الناصر » . وكنت ، انذاك ، وزيرا للمواصلات .. فسألنى : « هل تعرف الدكتور مصطفى خليل ؟ » فقلت له : « لقد مر على فى مكتبى بعد أن حددت له موعدا بناء على طلب الأخ زكريا محيى الدين ، الذى فهمت منه أنه صديقه وزميله فى نادى التجديف » . فضحك « عبد الناصر » وقال : « أنا عارف أن صداقتهما صداقة رياضية » . واسترسلت فى كلامى بعد هذه المقاطعة قائلا : « لقد جاء يعرض على فكرة ادخال نظام جديد اسمه نظام التحكم المركزى ، يغنى عن أزدواج الخطوط فى السكك الحديدية » ، فقال عبد الناصر : « وما رأيك فيه على العموم ؟ » فقلت له : « إن جلسة واحدة لا تكفى للحكم له أو عليه ، ولكن الأثر الذى تركه فى نفسى فى هذه الجلسة ، كان طيبا » . فقال عبد الناصر : « ومارأيك أن يمسك وزراة المواصلات (وكان لفظ « يمسك » من تعبير الضباط ، بمعنى أنه يتولى أمر وزارة أو منصب ما) . فقلت : « على خيرة الله » . فقال : « ايه .. مش موافق ؟ » فقلت : « أبدا .. كيف لا أوافق وأنا لم أجلس معه إلاّ عشر دقائق » .. فعاد « عبد الناصر » يسأل .. وفى صوته شيء من التردد : « يعنى رأيك إيه على العموم ؟ » فضحكت وقلت : « رأيى على العموم ، هو رأيى على الخصوص ، ففى الحالين لا أستطيع أن أحكم عليه » . فقال : « يعنى بلاش » . فاضطررت أمام هذا الألحاح أن أقول : « لا .. لا .. أبدا . ليس هناك ما يدعو إلى العدول عن ترشيحه . ولكن اذا كنت تريد أن أقول شيئا ، من ظاهر الأمور ، فإن مما يحسب له أنه مهندس سكك حديدية . وهو يدرس هذه المادة فى كلية الهندسة . فهو مختص بالمرفق الذى سيشرف عليه . ثم هو حسن العرض لفكرته . ومظهره يحمل على الأحترام ، أما ما قد يعترض عليه به فهو أنه ، أولا ، صغير السن ، وصغر درجته الجامعية ، فهو مدرس . ثم أن اقتراحه الخاص بالتحكم المركزى رفض بشدة من جميع مهندسى السكك الحديدية ، وقد يدفعه ذلك إلى اساءة معاملتهم . كما قد يحمله صغر سنه إلى الرغبة فى إقالة الموظفين الكبار فى السكك الحديدية والتليفونات ، والمرفقان لا يحتملان أن يحدث فيهما عملية كهذه . فقد أخرج منهما فى أول الثورة عدد من خيرة المهندسين لمثل هذا الاعتبار » فقال عبد الناصر : « خليه يدى لهم على رؤوسهم .. يستاهلوا » !. وكان « عبد الناصر » دائم الشكوى من مرفق السكك الحديدية ، ومن كبار موظفيها ، ويتمنى أن يتخلص منهم ، أو يضع لهم من يتولى تأديبهم !!.

ولكن هذه المكالمة انتهت بختام أراه مهما للغاية فى الدلالة على أسلوب اختيار الوزراء والرؤساء ، فقد قلت لعبد الناصر : « هل أخبرت باقى الزملاء بهذا التعيين الجديد ؟ » فقال لى مندهشا : « ولماذا أخبرهم ؟ » . فقلت له : « إن الوزير الجديد سيكون زميلا لباقى الوزراء ، وسيجرى بينهم تعاون حميم وقد يكون أحدهم يعرفه ، وقد تكون علاقة أحدهم به سيئة ،فكيف يتعاونان وزمالة أحدهما للأخر مفروضة على كليهما . ثم أن الوزراء أحق بأن يعرفوا التغيير الذى سيطرأ على مجلس الوزراء الذى ينتمون اليه ، ويعملون فيه ، بدلا من أن يقرأوه فى الصحف كباقى القراء » . فكان جواب « عبد الناصر » : « هل تتصور أن كلهم زيك .. السلام عليكم » .

وانتهت المكالمة .

واستمر ترك اختيار الوزراء وأشباههم من الرؤساء ، للمصادفات . من ذلك أنه عرضت علينا ، يوما ، مذكرة موقع عليها من « الدكتور عزيز صدقى » مع اقتران إمضائه بلقب (المستشار الفنى لرئيس الوزراء) فلما وقع نظر « جمال سالم » على هذا الوصف ، صرخ بأعلى صوته .. « ابن ال .. مين اللى عينه مستشارا فنيا لرئيس مجلس الوزراء ؟. » وكان رئيس مجلس الوزراء ، فى ذلك الحين ، هو اللواء محمد نجيب — فأعلن ،على الفور أنه لم يعينه ، ولم يستعن به فى شىء ، ولم يعرض عليه أى عمل .. أو أى تقرير من تقاريره . وأن أقصى ما سمعه عنه أن الصاغ مجدى حسنين — مدير مكتبه — قد ألحقه بمكتبه كمعاون له — أى لمجدى لا للرئيس — وأنه لم ير التدخل فيمن يختارهم مدير مكتبه لمعاونته فى عمله .

وعلق الوزراء على هذا الأسلوب من الالتصاق بمكاتب رئيس الوزراء والوزراء — بدون علم الوزير المختص ، وبدون موافقة المجلس أو صدور قرار بذلك — كل بما وفق إليه من كلام .. ونال « الدكتور عزيز صدقى » فى تلك الجلسة ، نصيب غير قليل من هذا الكلام . وبعد قليل .. لم يلبث « الدكتور عزيز صدقى » حتى أصبح وزيرا للصناعة ومقربا للرئيس عبد الناصر حتى أصبح — فيما بعد — رئيسا للوزراء !!.

وإليك مثل آخر .. على تعيين الكبار ، وتقريبهم ، وإبعادهم . ذهبت يوما إلى بيت الرئيس جمال بلا موعد . وسألت عن الرئيس ، فقال لى أحد الضباط العاملين فى مكتبه : « الرئيس موجود .. ولكن معه الدكتور عبد المنعم القيسونى » . فقلت له : « أرجو أن

تخبره بوجودى » . فتردد الضابط قليلا .. فقلت له : « قل للرئيس إنى موجود . فقد طلب أن أقابله ،ولو كان معه غيره » . كان هذا القول منى صحيحا . المهم أننى دخلت مكتب الرئيس ، فوجدت الدكتور القيسونى يعرض عليه أعمال وزارته ، وكان من بينها اختيار شخص يتولى أمر الحراسة على أموال الرعايا الفرنسيين والبريطانيين الذين هاجروا من مصر فى أعقاب حرب السويس سنة ١٩٥٦ . فرشح الرئيس جمال لهذا المنصب « الدكتور كمال رمزى استينو » — وكان « الدكتور استينو » وزيرا للتموين فى ذلك الحين . فاستفسر الدكتور القيسونى : « وهل سيترك ستينو الوزراة ؟ » . فقال الرئيس : « ولماذا يتركها ؟ » فقال القيسونى : « كيف يتفق أن يكون وزيرا فى الوزارة وزميلا لى ، ثم يتبعنى ، ويعرض على أعمال الحراسة ، أصدر له الأوامر ، وألغى أوامره ؟ » . فهز الرئيس جمال رأسه .. وقال : « وفيها آيه ؟ » .. فقال القيسونى : « هذا سيكون محرجا لى . فضلا عن أنه سيشل رقابتى على أعمال الحراسة .. اللهم إلا إذا ألحقت الحراسة برئاسة الجمهورية » فقال الرئيس جمال ، مستنكرا هذا الاقتراح : « وهل ينقصنى (قرف) جديد ؟ » .. ثم سأل : « ألا يوجد عندك وكيل وزارة من وكلاء المالية يصلح لأن يكون حارسا ؟ » .. فاعتذر « القيسونى » .. بأن أعباءهم فوق ما يطيقون . كنت طول الوقت ، ساكتا ولم أشترك فى الحديث برأى . إذ أن وجودى لم يكن مأخوذا فى الحسبان . ولم يكن موضوع الحديث موضوعا عاما يسمح لغير الوزير المختص ، أن يشارك فيه .. ولو بتعليق . ولكنى رأيت نفسى مضطرا لأن أقول شيئا . فقد سمعت ، عند أول مقدمى ، أن الدكتور مصطفى خليل ، وزير المواصلات ، غير مستعد للتعاون مع المهندس موسى عرفة وكيل وزارة المواصلات ، وأنه يطلب إقالته من منصبه أو نقله إلى وزارة أخرى . وأن المهندس موسى عرفة طلب نقله إلى وزارة الرى ، لأنه — أصلا — من كبار مفتشيها . إلا أن وزارة الرى اعتذرت عن قبوله بأنه ليس فيها منصب وكيل وزارة شاغر . فاقترح الرئيس جمال على القيسونى نقله إلى وزارة المالية فقال القيسونى مندهشا : « مهندس رى .. ماذا يعمل فى وزارة المالية ؟ » هنا قلت للرئيس : « لدى اقتراح لحل المشكلتين » . فقال متهللا : « وماذا هو ؟ » قلت : « يعين موسى عرفة حارسا على أموال الرعايا البريطانيين والفرنسيين فتحل بهذا مشكلة البحث عن حارس ، وتحل فى نفس الوقت ، مشكلة موسى عرفة نفسه الذى يراد إبعاده عن وزارة المواصلات ولا تجدون له مكانا » . بدا السرور الشديد على وجه الرئيس جمال ، وهنأنى طويلا على هذا الحل ووقف قائلا : « هل صدقتنى ان مجيئك نافع ؟ » .

وعلى ذكر القيسونى نفسه – أذكر كيف اختير لمنصب نائب وزير مالية فقد كنت جالسا مع الرئيس جمال فى مقر قيادة الثورة الكائن على شاطىء النيل الغربى بحى (الجزيرة) .. كان الدكتور عبد الجليل العمرى ، على ما أذكر قد شكا من كثرة عمله بوزارة المالية ، وطلب أن يعان بنائب وزير ، يحيل إليه بعض أعماله ، ولما كان عديل الرئيس جمال – أى زوج شقيقة حرمه – هو الأستاذ محمود فهمى رزق ، وكان موظفا كبيرا وقديما من موظفى البنك الأهلى .. وكان البنك الأهلى هو مستودع الكفايات الاقتصادية .. وكان أكثر موظفيه من الشبان المصريين الذين حصلوا على الدكتوراه فى الاقتصاد من إنجلترا أو أمريكا ، فقد رأى الرئيس أن يستعين « بعديله » فى اختيار واحد من شبان البنك الأهلى الممتازين . وجاء الأستاذ محمود رزق إلى مقر القيادة .. وتكلم ، كعادته ، بصوت خفيض .. وحياء شديد ، حتى لقد كنت أحاول التقاط ألفاظه بصعوبة ، مع أننى كنت أجلس إلى جواره تماما ، وكان خلاصة كلامه .. أن المفاضلة تقوم بين « الأستاذ عبد المنعم القيسونى » .. و« على الجريتلى » . وأنهما متقاربان على وجه العموم . وإن كان « الجريتلى » أوسع علما ، وأكثر شجاعة – أى أقل ميلا للمجاملة والمداراة – إلا أن « القيسونى » أكثر اختلاطا بغيره من موظفى البنك ، وأقل انطواء على نفسه .. وبعدا عن الناس فكانت (صفاته الاجتماعية) هذه ، هى العامل المرجح فى الاختيار .

* * *

ذات يوم ، كان السيد أمين شاكر – مديرا لمكتب الرئيس ، ومن المقربين إلى قلبه – ولكن حدث منه ما أغضب الرئيس عليه . فأقصاه عن مكانه . فاشتغل « أمين شاكر » بالتجارة ، وفتح مكتبا للاستيراد والتصدير أو شيئا من هذا القبيل . وراح يتردد على الوزراء لشئون عمله . فجاء الرئيس جمال إلى مجلس الوزراء وقال للوزراء : « أحب أن أقول لكم أن أمين شاكر صديقى .. وهو خفيف الظل وذكى .. ولكن علاقاته الآن لا تطمئننى . فأرجوكم لا تفتحوا له مكاتبكم ، ولا تقابلوه » .. ثم التفت إلى « الدكتور استينو » – بالذات – وقال : « ويا دكتور كال لا تعطه موعدا بعد ذلك أبدا » .

ولكن .. لم ينقض على هذا الحديث سوى شهور ، حتى استعاد « أمين شاكر » ثقة الرئيس .. ثم عين وزيرا للسياحة ، بعد أن قضى مدة غير قصيرة سفيرا لمصر فى بروكسل لدى مقر السوق الأوربية المشتركة !!.

وقد لا يكتمل الكلام عن الرجال إلا إذا ذكرنا مستشارى الرئيس جمال . فالناس كانوا يحكمون على الأمور من ظاهرها . فيظنون – مثلا – أن السيد حسن صبرى الخولى ، ممثل الرئيس الشخصى ، هو واحد من أقرب الناس إلى الرئيس ، ومن أكثرهم ترددا عليه ، واختلاطا به . ولكن الواقع كان أبعد ما يكون عن هذا التصور الذى له ما يبرره تماما . فقد قال الأستاذ حسن صبرى الخولى نفسه ، لصديق مشترك ، اعتاد أن يفضى إليه بمتاعبه : « هل تصدق أننى لم أر جمال عبد الناصر على انفراد ، خلال أكثر من عشر سنوات ، إلا مرتين فقط . وكانت مقابلتى له على هذه الصورة فى المرتين ، بناء على طلبى .. أما فيما عدا هاتين المرتين ، فقد كنت أقابله مع غيرى من الزائرين الكبار » ! .

وقد قال مستشار آخر للرئيس ، هو السيد حسنين ذو الفقار صبرى لنفس الصديق – وكان « حسين » قد نقل من منصب وكيل وزارة الخارجية إلى مستشار للرئيس فى الشئون الخارجية .. وكان قد انقضى على تعيينه بهذا المنصب أكثر من تسعة أشهر – « السؤال الوحيد الذى وجهه إلى الرئيس جمال هو سؤاله عن صحتى ، حينما التقينا ، على سبيل المصادفة ، فى حفلة زفاف ابنة أحد كبار الضباط . وأراد الرئيس أن يمر حول مائدة الشاى لسبب ، وكنت على قمة المائدة ، وكان المكان ضيقا ، فالتقى وجه الرئيس بوجهى فقال لى : « إزى صحتك يا حسين » .

وعندما اعتذرت ، فى أكتوبر ١٩٥٨ ، عن أن أكون وزيرا للثقافة والإرشاد القومى . فوجىء الدكتور ثروت عكاشة – وكان سفيرا لمصر فى روما – وهو يستمع إلى نشرة الأخبار من الإذاعة ، بأنه اختير وزيرا للثقافة ، دون أن يفاتحه فى هذا الأمر أحد !!.

الفصل التاسع

عندما يغضب عبد الناصر

كنت كما ذكرت من قبل – زاهدا فى العودة إلى وزارة الأرشاد القومى (الأعلام) سنة ١٩٥٦ ، على الرغم من أنى أنا الذى كنت قد دعوت إلى إنشائها ، وعانيت كثيرا ، حتى انتهى مخاض ميلادها ، ثم رأت النور ، ووقفت على قدميها ، وساقيها الصغيرتين .. تديرها الرياح يمينا ويسارا ، وتحاول أن تقلبها على وجهها ، ثم تنتزعها من جذورها الغضة اللينة !.

وقد بينت ، فيما سبق من القول ، سبب زهدى فى هذه العودة . فإن وزارة الأرشاد القومى (الإعلام) التى تشرف على الأذاعة ، وتعمل على انشاء التليفزيون ، وتدير المسارح والسينما ، وتتبعها مصلحتا الآثار والسياحة ، وتبسط ظلها على المتاحف القديمة والحديثة ، وتعقد الندوات ، وتطبع المجلات وتصدر الكتب والمسلسلات ، هى أكثر الوزارات جاذبية . فالفن جذاب .. « وسدنة الفن » من مطربات ، وممثلات وراقصات .. ومن يلحقهن من ربات الجمال ، وبائعات الفتنة ، والباحثات عن الشهرة ، والطامعات فى المال .. ومن وراءهن من الرجال ذوى المطامع والمآرب ، الذين يحسنون اكتشاف الطرق إلى أصحاب السلطة ، والنفوذ والمكانة – كل هؤلاء يأبون أن تكون الوزارة عملا جديا ، ولا أن تتأبى على أطماعهم ، وشهواتهم ،.. فإن استعصت عليهم ، أعلنوا الحرب على الوزارة ، وعلى وزيرها ، وعلى كل من بها ، وما يمت اليها .

ولكن هؤلاء – على ضراوة أساليبهم .. وعلى عدم تورعهم عن استعمال أى سلاح يحقق أطاعهم – كحشرات المنازل . ما يكادون يحسون بالنور قد أضاء ، ووقع الأقدام قد اقترب منهم ، حتى يفروا بسرعة خاطفة . فوزير الأرشاد القومى – أى وزير الفن والأذاعة والسياحة والطباعة – يجب أن يكون ثابتا فى مقعده ، مؤيدا بالسلطة ، محمى الظهر . ولما كنت أعلم أننى قادر على الظفر بالتأييد ، وبالسلطة الكاملة .. وأننى مهيأ - بطبعى – للمعارك – وإن دبرت خططها فى الظلام .. وأشرف على تدبيرها سفلة القوم واحط اللئام – شريطة أن أكون على أحسن العلاقات بصاحب السلطة الأول .. أى بالرئيس جمال عبد الناصر .

ولم أكن أشك فى مودة الرئيس لى ، ولا فى حسن ظنه بى ، ولا فى رغبته فى أن يقف معى ، وأن يدفع عنى .. ولكن بشرط ألا أختلف مع خطه السياسى ، والأساسى ، وألا أدخل فى معارك مع الذين يؤثرهم بحبه وثقته .

ولما كنت لا أضمن أن أحقق هذين الشرطين ، فقد أعتذرت لجمال عبد الناصر عندما رشحني لوزارة الأرشاد القومي . ولكنه أصر ، وأطال في محاولة التأثير على ، وكان في غير حاجة إلى بذل مجهود كبير لاغرائي . فقد كان بي ضعف حقيقي أمام هذه الوزارة . ولم أكن قد يئست بعد ، من أن تؤدى رسالتها على الصورة التي تخيلتها لها .

ولكن .. لم ينقض وقت طويل ، حتى تحققت كل مخاوفي ، ووقع بيني وبين عبد الناصر ما كاد يؤدى إلى قطيعة كاملة بيننا ، لولا أنه كان حريصا على استبقاء علاقتي به ..

لما عدت إلى وزارة الأرشاد القومي ، فوجئت بحقيقة لا يصدقها عقل . وجدتها « هيكلا عظميا » لا لحم فيها ولا شحم .. وربما ولا عظم أيضا !! لأني وجدت في الوزارة وكيلا لها ، يعني قمة موظفيها ، ثم موظفا فنيا واحدا .. في أدنى درجاتها !! وليس بينهما أحد سواهما ، فتصور « هيكلا عظميا » يتكون من الجمجمة ثم القدمين ، ولا شيء يربط بينهما . وكيف استقرت الجمجمة في الهواء .. وماذا كانت تفعل ؟! وفيم التصاق القدمين بالارض ؟!. وماذا كانا يعملان ؟!!.

الله وحده يعلم . وبالطبع لم تكن بالوزارة وحدة حسابية ولا وحدة ادارية تدير شئون الموظفين ، ولا شيء أخر يمت إلى ما تواضع عليه الناس في جميع بلاد الله لأقامة الوزارات والمصالح والدوائر الحكومية .

* * *

والسبب في هذا كله ، أن السيد وزير الأرشاد القومي السابق – المرحوم صلاح سالم – كانت تقع على كتفيه أعباء الدعاية في خارج البلاد ..وكان دائم التنقل من السودان إلى العراق .. إلى غيرهما .. وكانت الوزارة .. بمصوريها ، وصحفييها ، ومترجميها ، وفنييها ، تتبعه أينما ذهب . ولكي يواجه « صلاح سالم » الفراغ الناجم عن اتصاله بشئون السياسة العامة . أعطى استقلالا تاما للمصالح التي تتبعه ... وهي : الأذاعة ، والأستعلامات ، والمسارح . ونعم مديرو هذه المصالح بفترة كانت أسعد فترات حياتهم الحكومية .

فلما جئت إلى الوزارة .. فوجيء هؤلاء المديرون بأن مصالح أخرى كالسياحة والآثار قد انضمت اليهم ، وبأن الوزير قد كرس وقته كله لعمل الوزارة ، وبالتالي سيمارس كل

اختصاصات الوزير الممنوحة له بلا تزيد ولا استئثار بالسلطة .. ولكن أيضا بلا تفريط فيها ، ولا تنازل عنها ، حيث لا مبرر للتنازل .. ولا للتفريط ..

وكان ذلك ، أشبه شيء بالكارثة حلت بهم ، فكان لابد أن تواجه هذه الحالة الطارئة من جانبهم ، بمقاومة ايجابية ، وإلا دالت دولتهم ، وزالت سلطتهم .

وفى ذات يوم .. وجدت على مكتبى ورقة طويلة .. مكتوبة بخط عريض فتناولتها .. فإذا هى صحيفة احتجاج ، أو قل اتهام ، موجهة من أحد المديرين التابعين لى ، والمعروفين بالحذر الشديد فى كل خطوة ، والأحتياط التام فى كل كلمة يقولونها . وأعدت قراءة الصحيفة ، وأدهشنى أنها جاءت هكذا ، مفتوحة بلا مظروف ، كأن كاتبها أراد لها أن تعرف فى دوائر الوزارة ، وأن تتداول الألسنة ما جاء فيها .

ولقد تعودت فى مثل هذه الظروف ، ألا أصدر قرارا . بل أننى لا أدع نفسى تنساق مع الأنفعال الأول . لقد كان المطلوب أن أغضب ، ولذلك لم أغضب وكان المطلوب أن اتخذ قرارا ، ولذلك لم اتخذ قرارا !! بل لقد حدث أن اتصل بى هذا المدير الذى يطالب باعادة سلطات زعم أنها سلبت منه ، وباختصاصات انتزعت ، وكانت — كما قال — من حقه . ولعل اتصاله التليفونى بى كانت الغاية منه معرفة ما اذا كانت « الصحيفة » قد وصلتنى .. وما هو أثرها عندى .. فرآنى هادئا ، كأن لم يحدث شىء . ورددت عليه كالعادة ، وانتهى الحديث على وجه جعل السيد المدير يشك فى وصول خطابه الى . لذلك اضطر إلى أن يتصل بسكرتيرى الخاص ، ويسأله عما اذا كان الخطاب قد سلم الى ، فأخبره بأن ذلك هو ما حدث بالضبط . وأن هذا الخطاب كان أول ما قرأته !!.

وانتظر المدير العام ، والذين حوله من المديرين الاخرين ، يوما كاملا . وفى الليل الهادىء ، وبعد أن فرغت من عملى ، قر قرارى على أن انتدب « المدير العام » صاحب الخطاب إلى ديوان الوزارة ، وأن أحيل اختصاصاته إلى وكيل المصلحة التى كان يديرها ، وكان موظفا على درجة عالية من الكفاءة الفنية ، مع صفات خلقية لم تكن محل خلاف بين عارفيه .

واستدعى وكيل الوزارة « المدير العام » ، واعلنه أنه ندب للعمل فى ديوان الوزارة . فوقع النبأ عليه وقع الصاعقة . فقد كان يتصور أننى لن أجرؤ على المساس به ، وأن انتزاعه

من مكانه على رأس مصلحته – الذائعة الصيت الكبيرة القدر – أمر لا يخطر على بال . لأنى أول من يعلم أن هذه المصلحة هى أهم مصالح الدولة عند عبد الناصر وأن من الأقوال المتداولة أن « عبد الناصر » يتفاءل بوجود هذا المدير ، بالذات على رأس تلك المصلحة ! .

ونفضت يدى من هذه المسألة لأنى ، فى واقع الأمر ، لم أعدها أكثر من كونها « عملا عاديا » من أعمال الوزير .. فلقد كنت – وما أزال – أومن بأن من حق الزير أن يندب المديرين من أية جهة فى وزارته إلى أية جهة أخرى فى الوزارة ذاتها .. ما دامت المصلحة العامة هى غايته ، وأنه لا تعقيب على تصرفات الوزير وقراراته داخل وزارته ما دامت فى حدود اختصاصاته .. حتى ولا من رئيس الجمهورية ، ولكن « رئيس الجمهورية » كان له رأى خاص . فقد نجمت عن هذا التصرف الأدارى البسيط ، أزمة شديدة بينى وبين عبد الناصر .

والحق أن وقوع هذه الأزمة أدهشنى تماما . وكنت قد رأيت أن أطلع « عبد الناصر » على قرار الندب بخطاب كتبته بخط يدى ، وطويته داخل مظروف ، وأرسلته إلى مكتب الرئيس مع موظف من مكتبى .

وبدأت طلائع الأزمة .. ونذرها ، حينما ذهبت ، بعد صدور قرار الندب ، إلى ميدان الأوبرا بالقاهرة لأشترك فى تشييع جنازة أحد زملائنا الوزراء ، وهو المستشار جندى عبد الملك وزير التموين ، فقد توفى إلى رحمة الله وهو يشغل منصب الوزير . فلما دخلت السرادق .. وكان « عبد الناصر » يجلس فى صدره ، رأيته مكفهر الوجه .. فلم أتصور – ولو لجزء من الثانية – أن هذا الأكفهرار هو تعبير عن حزن « عبد الناصر » على (جندى عبد الملك) .. فقد كانت صلته به ضعيفة جدا ، وكانت مدة شغله للوزارة قصيرة . تأكدت أن هذا « الأكفهرار » شىء خاص بى : بعد أن رأيت زملائى الوزراء يجيئون تباعا ، ويتجهون إلى الرئيس يعزونه ، فيحسن استقبالهم ، فى حين أنه اشاح بوجهه عنى ، مما صرفنى عن تحيته .

ولما أنتهت الجنازة . وعدت إلى مكتبى ، عرفت أن السيد « جمال سالم » قد اتصل بمكتبى فى الوزارة مرارا . فلما تم الأتصال بينى وبين جمال سالم بدأنى بقوله :

– ماذا فعلت مع الزيس ؟.

فقلت له :

– خير .. لا شيء ..

فقال وهو يضحك :

– كيف لا شيء .. وهو غاضب منك أشد الغضب ، إلى حد أنى لم أستطع أن أذكر إسمك أمامه إلا مرة واحدة . فلما كررت اسمك ، صاح :

– أرجوك لا تسمعنى هذا الإسم ثانية ..

لقد كان مثل هذا الكلام جديرا – فى ظرف أخر – أن يبعث فى نفسى الغضب : أو أن يشغل بالى ..

ولكن ، لحسن الحظ ، ملأنى هذا الكلام برودا ، وأشعرنى بأن الموقف به من الهزل ما لا يصح معه الأنفعال . ولذلك ، دهش « جمال سالم » حينما سمعنى أقول له :

– على كل حال ، الدنيا لم تخرب بعد ، وفى وسعك أن تريح « الريس » من سماع اسمى ، وأن أريحه أنا أيضا من رؤية وجهى ..

فقال « جمال سالم » :

– ماذا تعنى ؟.

قلت :

– وهل لكلامى معنى أخر .. اعنى اذهب إلى بيتى . فقد آن لى أن استريح وأريح ..

ففاض « جمال سالم » رقة . ولطفا ، ومجاملة . والذين يعرفون « جمال سالم » . يعرفون أن الرقة ، واللطف ، والمجاملة ، ليست من صفاته التى تحضره دائما .. وإنما هو – فى الأغلب الأعم من الأحوال – ساخط ثائر ، بل عاصف قاصف ينال الناس من قبضات يده ، وصفعات كفه ، وركلات قدمه وقذائف لسانه الشيء الكثير . ولكنه حينما تصفو نفسه ، يصبح آية من آيات الرقة والوداعة والحرص الشديد على مشاعر الناس .

انتهى حديثنا على أن نلتقى فى نفس اليوم أو فى اليوم التالى بمكتبه بمجلس الوزراء ، وكان هذا المكتب ذاته هو مكتبى ، عندما كنت اشغل منصب « وزير الدولة » .

وتلاقينا وسألنى : « ما الحكاية » ؟.

فقلت له : الحكاية أتفه من أن تحكى . مدير عام يتبع الوزارة التى أديرها واشرف عليها ، أرسل يحتج على تصرفات لى ، فى خطاب مفتوح ، وكان بوسعه أن يتحدث إلى شفويا وشخصيا . ولكنه فعل ما فعل مدفوعا من آخرين من مديرى الوزارة – وبعضهم عسكريون – ولم أفعل أكثر من ندبه إلى ديوان الوزارة ، وليس هذا الإجراء جزاءا ولا عقابا .

وسألنى « جمال سالم » سؤالا عابرا : « وهل من حق الوزير أن يندب مديرا عاما لا يعين إلا بقرار جمهورى ؟ » .

فأجبته : « بأن ذلك من حقى بلا شبهة . ومع ذلك فقد تداولت ، بطريق الصدفة ، مع اثنين من الوزراء الزملاء .. أحدهما وزير قضى حياته موظفا متقلبا بين أدنى الدرجات إلى أن أصبح وزيرا .. والثانى هو وزير العدل ، المكلف بالسهر على تنفيذ القوانين وسلامة التشريع .. فأقرانى » .

وخيل إلى « جمال سالم » أن وساطته نجحت ، وأنه استطاع أن يصرف الغضب عن نفس « جمال عبد الناصر » . فأتصل بى ، مرارا ، ببيتى وكنت قد اعتكفت فيه . لا أرد عليه ولا على سواه . لأنى كرهت أن تقوم بسبب هذه المسألة التافهة ، منازعة .. وأن تستلزم المنازعة وساطة .

وأخيرا نجح « جمال سالم » فى أن يتصل بى . ولدهشتى ، وجدنى هادئا .. فإن فشله فى محاولة الاتصال بأحد كان يشعره بالإهانة وشعوره بالإهانة كان يدفعه إلى الثورة .. وكانت الثورة تخرجه عن طوره . أخبرنى « جمال سالم » بأن كل السحب تبددت .. وأن السماء أصبحت صافية وأن « عبد الناصر » يقيم فى « استراحة القناطر الخيرية » ، غير بعيد عن القاهرة . وأنه سيستقبلنى فور الأتصال به . وقد استمعت لهذا الكلام إلى آخره .. ولكنتى كنت موقنا أن « جمال سالم » أخطا فهم مزاح « عبد الناصر » واسلوبه . فهو لا يغضب إلا نادرا . ولكنه اذا غضب كان غضبه شديدا من ناحية . كما أن « صفاء مزاجه » كان يحتاج ، من ناحية أخرى ، إلى وقت يطول !.

وقد صح ما توقعته . اذ أنى طلبت استراحة القناطر فرد على الأخ محمد أحمد وقال إن الرئيس نائم وأنه عند استيقاظه سيتصل بى . وأعدت السماعة إلى مكانها ، وأنا أعرف أنه لن يتصل بى ثانية . وقد تحقق ما توقعته تماما . فلم يتصل بى أحد . ولكن « جمال سالم » هو الذى اتصل بى ، وقد بدت فى صوته لهفة من يريد أن يعرف نتيجة تدخله ووساطته فأخبرته بما حدث، فبدت على صوته خيبة أمل عميقة . وقال : « اذن نتقابل غدا فى مكتبى » .

ذهبت إلى مكتبه . وفى جيبى استقالة مسببة . وقد أطلعت عليها « جمال سالم » ، بعد فترة قصيرة من الحديث معه . علمت منه أسفه الشديد لعدم نجاحه . وقد لاحظت أنه بدأ يميل إلى جانب « عبد الناصر » ، بمعنى « أننى هولت من أمر الخطاب ، وأنه لم يكن يزيد عن مجرد ابداء رغبة من مدير لوزيره ، وأننا يجب أن نشجع الموظفين على ابداء آرائهم ، وألا نعتبر كل اعتراض على تصرف من تصرفاتنا تمرداً وثورة من المرؤوسين . أما الندب فلم يكن من حقى ، وأن الوزيرين اللذان افتيانى بصحة اجراء الندب الصادر منى ، قد غررا بى .

فقلت له : « انى اشكرك على تجشمك متاعب الوساطة. والحق أنى كنت زاهدا فى البقاء فى الوزارة . ولذلك كنت ادعو ، فى سرى ، ألا تنجح الوساطة » .

وكنت أتوقع أن يثير هذا الكلام « جمال سالم » . ولكنه تقبله بروح طيبة . ولما قلت له « أننى لم أكن فى حاجة إلى فتوى من أحد .فالمسألة قانونية وأنا محام .. ومحام أمام مجلس الدولة » . لم يعقب ، ولكنه أخذ الاستقالة وراح يقرأها معجبا بألفاظها ومعانيها . وسألنى : « متى كتبتها وكم استغرقت كتابتها من الوقت ؟ » . فلما قلت له : « اذا عرفت يا أخ جمال أننى كتبت ، منذ توليت الوزارة فى ٧ سبتمبر سنة ١٩٥٢ ، ما لا يقل عن عشر استقالات ، وجب أن يخف عجبك . فقد تمرنت على كتابة الاستقالات » .. انفجر « جمال سالم » ضاحكا .. وراح جسمه يهتز اهتزازا عنيفا من ثورة الضحك !! ثم تصافحنا ، وتمنى لى الصحة ومستقبلا سعيدا خارج الوزارة ، ووعدنى بأنه سيزورنى دائما فى مكتبى – مكتب المحاماه – ومنزلى .

وشكرت له هذه المشاعر الجميلة ، وانصرفت دون أن يخالجنى أى شعور بأن الاستقالة

التى اعجبت « جمال سالم » ستقبل . وقد تحقق للمرة الثانية ما توقعته . فقد اتصل بى « الأخ محمد أحمد » وأخبرنى بأنه قد تحدد لى موعد لمقابلة الرئيس جمال فى منزله بمنشية البكرى .

ومضيت إلى الموعد .. فإذا بالرئيس جمال يقابلنى متهللا ، والحق أن هذه المقابلة ادهشتنى ، فقد ظننت أنه سيبقى فى نفسه أثر من غضبه لقرار الندب الذى اعتبره اجتراء على حقوقه، من جهة ، والذى عده تمردا عليه ، من جهة أخرى .. اذ كانت ادارات وزارة الأرشاد القومى (الأعلام) تعتبر بالنسبة له (مواقع استراتيجية ومناطق حساسة) ..

بدأ « عبد الناصر » حديثه معى بالضحك بطريقته المألوفة التى سبق أن وصفتها ، والتى تشبه « رشف الماء » .. وبعيدة غاية البعد ، عن جلجلة ، ورنين الضحكات المبهجة التى تعدى السامعين بالبهجة والسرور .

بدأ حديثه بالعتاب قائلا :

— منذ متى نتعامل بالكتابة ؟.. لقد أفزعنى اذ وجدت خطابا منك ، وزاد فزعى اذ رأيت الخطاب منطويا على اخطارى بأنك ندبت أحد المديرين العامين الذين يعينون بقرار جمهورى لوظيفة غير وظيفته . وكان رد الفعل الأول عندى هو أن اكتب اليك خطابا رسميا ، أقول لك فيه أن اجراءك باطل ، وأن ندبك كأن لم يكن . وبالفعل ، ناديت « على صبرى » (وكان مديرا لمكتبه) وقلت له : اكتب لفتحى رضوان حالا خطابا بهذا المعنى . ولدهشتى — أعد الخطاب بعد عشر دقائق فقط ، مع أن بعض ما أطلبه من خطابات تتأخر كتابته أياما . وأحيانا لا يكتب أبدا !! فقد أنسى ، ولا أجد من يذكرنى . ووضع على صبرى الخطاب أمامى . وامسكت بالقلم ، وهممت بالأمضاء .. ولست ادرى ما الذى منعنى عن الأمضاء وعن ارساله اليك ، قلت ماذا يريد « فتحى » من وراء هذا التصرف . أيريد أن يخرج من الوزارة بطلا ؟.

وهنا قاطعته قائلا :

أية بطولة فى أن استقيل من الوزارة احتجاجا ، أو اعتراضا ، بسبب ندب موظف ؟! لقد كان الناس يتوقعون منى أن استقيل بمناسبة « اتفاقية الجلاء » .. وقد سمعت ، بأذنى ،

اذاعات اجنبية تقول أنني استقلت فعلا . وأذاعات أخرى تقول أننى اتزعم مجموعة من الوزراء ترفض هذه الأتفاقية . وقد حدثت أشياء كثيرة أعرف أن المصريين لا يحبونها .. ولكنى لم أره أبدا أن استغل هذه الظروف .

* * *

وطابت نفس « عبد الناصر » لكلماتى هذه ، وقال مداعبا :

— صحيح .. لماذ لم تستقل فى هذه المناسبات ، مع أنك كنت غاضبا من اتفاقية الجلاء ..؟؟

فقلت له :

— لأننى كنت مؤمنا بأننا سندخل عاجلا ، أو أجلا ، فى صدام مع الأنجليز والغرب كله .. وأن المعاهدة ستسقط تلقائيا .. وكنت أحب أن أكون طرفا فى هذا الصدام .

وبدا على « عبد الناصر » أنه نسى ، تماما ، موضوع ندب ذلك الموظف الكبير ، وقال :

— لكن الحقيقة أنك لم يكن لك حق فى أن تتخذ هذا الإجراء . كان لابد من الرجوع الى ..

فقلت له ، بإصرار :

— إن ندب الموظف المعين بقرار جمهورى يصح أن يكون بقرار وزارى .

قال ، وهو يريد المصالحة :

— ما علينا .. ولكن أنا أريد أن أسوى معك مسألة أخرى . وهى مسألة استقالاتك . فما يمضى أسبوعان إلا وأسمع من شخص ما ، أو من جهة ما ، أنك استقلت أو ستستقيل !.

فقلت له :

— إن العمل مع الذين حولك صعب جدا ، وأنا ممن لا يحبون أن يشكوا إليك . حسم الأمر معهم ، وإما أن اصبر ، حتى أجد حلا بعيدا عنك .

فقال .

– هذا صحيح .. أنك لم تشك الى قط ..

وأخذ « عبد الناصر » يسألنى عن علاقتى بكل واحد ممن كانوا حوله . ويسألنى عن أسباب الصدام فأتحاشى أن أذكر شيئا .. بحجة أننى نسيت ، أو أن الأمر اتفه من أن يذكر .. ولكنه عندما ذكر اسم « على صبرى » . ألح الحاحا شديدا فى أن يعرف .

فقلت له :

– لقد حدث عندما سافرت إلى الإتحاد السوفيتى ، أن أصدرت سيادتك قرارا بندب « على صبرى » ليكون وزيرا للأرشاد القومى ، خلال فترة سفرى . ويومها استعملت تعبيرا لم يعجبنى . اذ قلت : « خليه يمسكهم كويس » وكنت تعنى بذلك أن « يضبط موظفى وزارة الأرشاد القومى » كأنى أنا لا أحسن ضبطهم . ولكنى صبرت على مضض .. وسافرت وعدت ، فوجدته قد اتخذ أكثر من قرار لا يمكن تنفيذه .

وهنا تفتحت شهية « عبد الناصر » .. وقال :

– أعطنى مثالا لذلك .

فقلت :

– لا داعى للأمثلة فهذه أمور تافهة ، وقد انتهت .

ولكنه أصر على أن يسمع . فقلت له :

– مثلا – أراد أن يعين شقيق أحد زملائه فى الطيران ، مديرا للأوبرا وقد عينه فعلا – فى حين أن هذا المنصب ، عين فيه عبد الرحمن صدقى بوصفه وكيلا لمصلحة الفنون التى انشأتها .. فكأنه عين موظفا على وظيفة مشغولة .. كما أنه أمر مدير السياحة ، أن يعين موظفا فى مصلحة الأستعلامات ، فى أحد مكاتب السياحة بالخارج مع عدم وجود وظيفة خالية .. وهكذا .. وهكذا .. وقد اضطررت بعد عودتى أن الغى هذه القرارات ولابد أن أكون قد أغضبته ، وأنا لا أقصد أن أغضبه ..

وقد حدث أن اجتمعنا فى مجلس الوزراء فى مساء اليوم التالى ، فتحدث «زكريا محيى الدين »

فى هذا الاجتماع عن إصلاح قام به فى وزارته ، وقال : إن ذلك سيستدعى عزل عدد من مديرى المحافظات ، ومديرى الوزارة ، فندبهم للديوان العام بالوزارة توطئة لعزلهم .
وهنا - اضطر الرئيس جمال أن يسأل « زكريا » :

- كيف ندبتهم ؟.

ولم يفهم « زكريا » القصد من السؤال .

فقال :

- كيف ندبتهم ؟!. ندبتهم .. أصدرت قرارا بندبهم..

فنظر « عبد الناصر » نحوى وقال :

- ولكن .. كيف تندب مديرين بقرار منك ؟.

فرد « زكريا » بحسن نية :

- ومن اذن الذى يندبهم ؟. الست وزير الداخلية ؟.

فسأله عبد الناصر :

- وهل يملك الوزير ندب مدير عين بقرار جمهورى ؟.

فأجاب الوزراء ، فى صوت واحد .. قائلين « طبعا » .

فنظر الى « عبد الناصر » وهو يضحك بطريقته المعهودة .. ويقول :

- طيب .. طيب ..

الفصل العاشر

ثقافة
عبدالناصر

دق التليفون فى منزلى ذات مساء ، قبيل الساعة الثانية ، ثم أخبرت بأن الرئيس جمال عبد الناصر يطلبنى ، فقمت لأرد ، دون أن أكلف نفسى مشقة استنتاج الغرض من المكالمة ، موقنا أنه أمر عادى من أمور الحكم . ولكن صوت « عبد الناصر » الذى بدت فيه نبرة مرح واضحة أدهشتنى . بقدر ما أدهشتنى صيغة السؤال الذى بدأ به المكالمة . فقد قال : « ماذا تفعل ؟ » .. فأجبته بما نسيته الآن , ولكنه ، على أى حال ، لا يخرج عن « أنه ليس لدى شيء هام يشغلنى » . ثم تزايدت دهشتى حينما سمعت عبد الناصر يقول : « اذن لنذهب إلى الشيطان » ! ذلك أنه – على حبه الشديد للمداعبة .. ولتفوق حاسة المزاج عنده ، إلا أنه ، فى الأغلب الأعم ، يبدو رصينا ، متحفظا ، وخجولا .. فلا يتبسط إلا خلال الحديث ، وبعد أن يطمئن ، وينسى تحفظه .

وأدركت ، فى الحال ، ما يعنية الرئيس ، فقد كانت دار الأوبرا تعرض لى مسرحية (دموع إبليس) . وكانت المسرحية محلا لتعليقات كثيرة وشديدة . ومن هنا كان من السهل أن أدرك مرماه . فقلت له : « كما ترى » .. فأضاف : « حكيم معى – يقصد المشير عبد الحكيم عامر – وقد قلنا لنذهب إلى الأوبرا لنرى ماذا يقول (إبليس فتحى رضوان) ، فهل لديك مانع أن تصحبنا إلى الأوبرا ، لنكون فى ضيافتك » . فقلت له وأنا متأثر ، فعلا ، من هذه المكالمة المرحة ، الفياضة بالود والمجاملة : « هذا شرف حقيقى للمسرحية ولمؤلفها » . فقاطعنى قائلا : « طيب .. طيب ، سنذهب فى الموعد .. متى تبدأ ، أظن التاسعة إلا ربعا » فقلت : « نعم .. » فقال : « اذن سنتركك لتنهى ما عساه يكون لديك من عمل ، وسنتقابل هناك » .

وأعدت سماعة التليفون إلى مكانها ، واتصلت بدار الأوبرا فورا لأنهى اليهم أن الرئيس سيحضر ومعه نائبه ، فإذا بالدار تعلم . واذا بالأستاذ أحمد حمروش مدير المسرح القومى انذاك ، قد أخطر ، وقد كانت أكبر المشكلات التى واجهها الجميع فى تلك الليلة ، هو كيف يملأون القاعة ، ليبدو المسرح مزدهرا وليبدو أقبال الجمهور على مسرحياته عظيما أو مناسبا .

وعلى الرغم من الجهود التى بذلت على عجل لدعوة عددمن موظفى المسرح والوزارة ، فقد بقيت أماكن كثيرة فى القاعة خالية . ولم يشغلنى هذا فى قليل أو كثير . ودخلنا

إلى مقصورة رئيس الجمهورية ،ومعه نائبه المشير عبد الحكيم عامر ، وكلاهما فى أحسن حالاته المعنوية ، يتبادلان التعليقات الضاحكة . وكما استقبلا بالتصفيق الطويل ، حيا الرئيس الجمهور الذى كان فى المسرح بسرور ، وعاد وهو يقول لى : « الناس عادة بعبل على المسرحيات التى بها أسماء كبيرة . فمن ممثلو مسرحيتك ؟ » فذكرت أسماءهم .. فقال : « لا بأس بهم . ولكن ليس عدد الكبار فيهم كافيا » ، فقلت له : « إن مهمة وزارة الثقافة أن تغير العادات الثقافية غير المستحسنة ولو تعبنا فى ذلك ، ومن العادات السيئة أن يكون العمل الفنى وقفا على أسماء بعينها . فمهمة الوزارة أن تكشف للناس عن مواهب جديدة ، وأن تقدم لهم أسماء لا يعرفونها ولم يسمعوا بها » . فهز رأسه وقال : « هذا صحيح .. ولكن التغيير متعب » .

وبدأت المسرحية .. وتوالت مشاهدها وفصولها ، وعبد الناصر ، ونائبه مندمجان تماما مع أحداثها ، لا يكادان يتبادلان طوال الفصل الأول إلا أقل القليل من الكلمات .. مما عددته تحية عظيمة منهما للمسرحية . وبعد الفصل الثانى استأذن مدير الأوبر فى أن يستقبل الرئيس الممثلين الذين يتوقون إلى قضاء بضعة دقائق معه ، فرحب بذلك واصطفوا أمامه فى الصالون الملحق بمقصورته . فتبادل مع كل منهم بضعة كلمات . فلما جاء دور « أحمد علام » أطال معه الحديث ، وكان يبدو على « عبد الناصر » التأثر لأنه لم يعد يسمع « أحمد علام » ، ويستمتع بالقائه العذب .. كما كان يفعل فى الماضى .. وتقدمت الممثلة « عايدة هلال » – وكانت قادمة من لبنان من فترة قصيرة – فقالت انها باسم فنانى سوريا ولبنان تحيى الرئيس . فسألها : « وهل أنت سعيدة بالعمل فى مصر ؟ » فقالت : « بالطبع .. مصر أم الفنون » . فضحك الرئيس قائلا : « أهلا بك » .

وفى فترة الأستراحة ، كان الحديث يدور حول شئون المسرح والفنون فى بلادنا ، ولكنه لم يتضمن سوى تعليقات سطحية على هذه الشئون . ولكنا ما كدنا نجلس ثلاثتنا فى عربة الرئيس ، حتى انفتحت شهية الجميع للكلام . وبدأ الرئيس بتعليق على ختام المسرحية ، وقال : « لماذا انتهت المسرحية بوفاة البطل ونقل جثمانه . وهو منظر ، فوق كآبته ، فإنه مرتبك ولايبدو جميلا ، لقد كنت أفضل أن تختم المسرحية بطعن البطل وبكاء إبليس ، فهو متفق مع عنوان المسرحية ، وما بعده .. لا معنى له » فقلت له : « إن ما بعده يقال عنه بالأنجليزية (انتى كلايمكس) أى (انكسار القمة) ، فاستعاد هذه العبارة وسأل

عن معناها . فقلت له : « الغريب أن ما تقترحه هو نفس المسرحية الأصلية ، ولكن المخرج رأى تعديل ترتيب الحوادث ، ولم أرد أن أعارضه » . فقال عبد الناصر : « أنا أعتقد أن العمل المسرحي ملك المؤلف ، لا ملك المخرج ولا يجوز له أن يخرج ، بالنص عن أصله .. ولكن له أن يفسره كما هو » . ثم التفت إلى عبد الحكيم عامر وقال : « هل تعرف ياحكيم أن هذا هو العمل الفني الثاني الذى أراه لفتحي رضوان . فقد رأيت له ، من قبل ، (فيلم مصطفى كامل) .. » فقال عبد الحكيم : « أنا شاهدته معك » فذكرتهما بأنهما رأياه فى حفلة خاصة بسينما (ريفولى) احتفالا بالعقيد الشيشيكلى . فقال عبد الناصر : « ليلتها .. أنا كنت طوال الفيلم خائفا على مصطفى ، ومشفقا من وفاته ، مع أنى أعرف أنه مات منذ أكثر من خمسين سنة . هذا هو سحرالعمل الفنى الجيد » .

.. ثم التفت الى وقال : « اعمل فيلم أخر عن فريد » — يقصد المجاهد الوطنى محمد فريد — فأكملت له : « وعن عبد الله النديم » .. فتردد قليلا ثم قال : « أنتم عملتم مسلسلة ناجحة عنه فى الأذاعة .. أنا فاكر أداءها » . وكان الرئيس عبد الناصر قد قال لى ، فى مناسبة سابقة ، أنه يسهر مع الأذاعة حتى نهاية برنامجها مع « أم كلثوم » و« أضواء المدينة » اذا لم تكن الذاكرة قد خانتنى . ثم توقف قليلا وقال : « أنا عارف أن فتحى رضوان غير راضى عن طول حفلات (أم كلثوم) واستمرارها إلى الرابعة صباحا ، وكثرة ترديد المقطع الواحد ، عشرين مرة أو أكثر ، والصياح والصراخ والوقوف على المقاعد » . وقد عجبت — حقيقة — كيف عرف هذا الرأى . فقد حاولت أن أذكر متى سمع منى هذا الكلام ، ولم أستطع . ولكنه ضحك ، على طريقته التى اسميها (طريقة الرشف) ، وقال : « فى ليلة أقمنا حفلة غنائية لأم كلثوم فى نادى الضباط احتفالا بالملك حسين ، ولما خرجنا نوصله ، وكـ .. أنت رئيس الوفد المرافق له ، كان منظر الضباط ساعة الأنصراف ، وعدد غير قليل منهم نائم تماما على مقعده .. لا يرضى أحدا . وكانت عيون الملك حسين حمراء ، يميل من شدة التعب .. وفى اليوم التالى بدأ الحديث تعليقا على الليلة ، فسمعتك تكلم أحدا على مقربة منى ووصل إلى سمعى كل هذا .. أنا معك .. ولكن محاولة تغيير هذا بمثابة الوقوف فى وجه التيار » . فقلت له : « ولكننا واقفون فى وجه التيار فعلا .. ألست تقيم السد العالى ؟ » . فقال : « السد العالى معلهش .. ولكن يأتى على الناس وقت لا يطيقون فيه أنفسهم . دع لهم وقتا يفرجون فيه على أنفسهم » . فقلت : « ولكن العمل الفنى ،

فى كل مكان ، وسيلة لرفع معنوية الناس ، وتزويدهم بجرعة منعشة ، ومنشطة ، ومبهجة ،.. يخرجون ، بعدها ، أكثر أقبالا على الحياة .. ولكن حفلات الطرب عندنا (عملية تعذيب) .. ينام الناس فى اليوم التالى إلى الظهر . ويستيقظون يشكون من الصداع ، ووجوههم صفراء ، وشهيتهم مسدودة ، ومزاجهم عكر » . فقاطعنى الرئيس : « أنا معك .. معك .. ولكن الناس ينسون أنفسهم ويعتبرون هذه الحفلة عيدا شهريا . وفى جميع الأعياد يسهر الناس إلى الصباح ، ويكونون ، فى اليوم التالى ، بالصورة التى تصفها » . فقلت له : « إن التكرار فى أغانينا أثره الذاتى والخلقى مدمر . أنه وسيلة للتنويم أشبه بأغنية النوم للطفل » . فقال عبد الناصر : « لا تخف .. لن يستمر هذا كثيرا » . ثم توقف وقال : « بس أوعى تغضب أم كلثوم » . فضحكت وقلت : « لا سبيل لأغضابها » قال : « هذا حق » .

وفجأة تحول الحديث إلى السيد المسيح . فقد شاهد « عبد الحكيم » على المسرح شيئا يشبه « مهد طفل » ، فقال متسائلا : « هل قصتك هذه ، هى قصة المسيح .. يعنى مأخوذة عن حياته ؟ » . فقلت له : « أطلاقا .. ولكن المخرج أضاف أشياء إلى المناظر ، أوحت إلى الجمهور بأن بطل المسرحية هو (المسيح) مع انقطاع الصلة بين مسرحيتى وحياة المسيح . ولكن هذا الأنطباع أقوى من تفسيرى وتكذيبى » .

وبدأ المشير يسألنى عن تفاصيل من حياة المسيح حتى أوصلنا الرئيس إلى بيته فى منشية البكرى ، ووقفنا بالعربة أمام بيتى فى مصر الجديدة نحو ربع ساعة يسألنى وأجيب ، وقد أبدى دهشته المفرطة من أن حياته لم تزد عن ثلاثين عاما . فقال : « عجيبة .. هل مات صغيرا إلى هذا الحد .. هذه أول مرة أسمع بذلك » .

وفى جلسة مجلس الوزراءالتالية لهذه السهرة المسرحية ، عقد عبد الناصر – عليه رحمة الله – ندوة فنية ، سأل فيها الوزراء عن رأيهم فى مسرحية (دموع ابليس) وكان أكثر من نصف مجلس الوزراء قد شاهدوها ، فأثنوا عليها ، وكان « عبد الناصر » ظاهر السرور بهذه النتيجة . وكلما سمع ثناء عليها من أحد الوزراء نظر الى متهللا وهو يقول : « ألم أقل لك » !! كأنى كنت أنكر ذلك . ولكن أحد الوزراء من أصدقائى اكتفى بالقول « بأن ختام المسرحية فاتر جدا » . فعقب « عبد الناصر » بقوله : « ليس إلى هذا الحد ، ولكننى كنت أفضل أن يبقى النص على أصله » !.

ولما أنتهت الجلسة ، ركبت مع ثلاثة من الوزراء سيارة واحدة فقال لى الوزير الذى تفضل بنقد المسرحيه : « لقد قلت ذلك خوفا عليك من الحسد » ! فشكرته على هذه الروح الكريمة !!.

وقد حدث نقاش آخر فى مجلس الوزارء حول عمل فنى آخر ، لم يكن من عملى ، ولكنه كان يتم تحت أشرافى وهو أوبريت (ياليل ياعين) . وقد اشتدت حملة عدد من الكتاب والأدباء والصحفيين على هذه المحاولة الجديدة ، إلى الحد الذى لم يكن يمر يوم دون أن يقرأ القارىء فى صحيفة أو مجلة نقدا لهذا العمل الجديد . والعجيب أن هذا النقد الحاد ، والعنيف ، والمثابر ، كان يتم خلال أزمة تأميم قناة السويس .. ومع خطورة الموقف السياسى المصرى والدولى . فقد كان هؤلاء النقاد مصممين على مواصلة حملتهم ، والأعجب أن (أوبريت يا ليل يا عين) كانت ، انذاك ، تحت الأعداد ، ولم نكن قد فرغنا من تهيئتها . فجاء « عبد الناصر » إلى مجلس الوزراء ، وقال لى فى عبارة جافة : « ونهاية الحملة دى ايه ؟ » . فقلت له : « هل هذا الكلام موجه لى ؟ » فقال : « طبعا » قلت : « هذا كلام يجب أن يوجه إلى القائمين بالحملة .. أما أنا فلا أملك شيئا أفعله » . قال : « يمكن أن ترد عليهم » . قلت : « أرد على من .. وعلى ماذا؟. إن هؤلاء أشبه شيء بأناس يتسورون منزلا ، وينقلون ما يجرى فيه مما لا حق للناس فى أن يُطلعوا عليه » . قال : « هذا تشبيه مع الفارق » . قلت بانفعال : « أى فارق . العمل الفنى قبل أن يتم ، اسمه – بكل اللغات – تجارب ، بروفات ، بروفس .. فحينما ننتهى ، نسمع كلامهم على العين والرأس » . قال : « لكن هذه الحملة تنالنى أنا أيضا ، فأنا مسئول عن كل الوزارات » . فقلت له : « يمكن لاحد غيرى أن يقوم بالرد . أما أنا فإن ردى سيكون العمل نفسه .. وأنا واثق من النتيجة » . فقال عبد الناصر : « اذن .. رد ، وقل هذا الكلام » . فأجبته بشيء من الجفاف : « أنا لن أرد .. ولن أقول شيئا » . فعقب عبد الناصر ممتعضا : « غريبة والله » !!.

ثم خرجت فرقة (يا ليل يا عين) على الناس ، فأرضتهم إلى أبعد حد ، وكانت بداية باهرة للفن الشعبى والغنائى والتمثيلى ، ولفن الرقص ، وأوحت بعشرات ومئات من الأفكار المماثلة والفرق التى نسجت على منوالها .. وحضر الرئيس عبد الناصر حفلة من حفلات

هذه الفرقة ، وأبدى سعادته وسروره بها ، وأصبحت عروضها عرضا ثابتا فى جميع حفلات التحية والتكريم التى تقام لكبار الضيوف .

ولكنى لابد أن أقيم فاصلا بين هذا الكلام .. والكلام الذى يليه : لأننى بودى أن أحدث القارىء فى تصرف صدر من « عبد الناصر » ، وليس لدى ما أفسره به ، إلا أن أقول أن النفس الأنسانية ، أكثر ظواهر الكون غموضا ، وأشدها استعصاء على الفهم ، وأبعدها عن القوانين التى تحكم المادة ، وتحكم الكائنات الأخرى .

« فعبد الناصر » الذى رأيت شواهد عديده على عظمته ، وقوة شخصيته وبعده عن الصغار ، رأيته فى الموقف الذى سأرويه الأن – على النقيض من هذا كله .. وجملة الأمر أننى حينما كنت فى موسكو ، فى شتاء سنة ١٩٥٧ ، على رأس وفد ثقافى ، الححت على وزير الثقافة السوفيتى أن يبعث الينا بفرقة (البولشوى) فى الربيع التالى . وجاء الرد من مدير (البولشوى) بأن الفرقة مرتبطة فى داخل الأتحاد السوفيتى وخارجه حتى مارس ١٩٥٨ وأنها لا تستطيع أن تحضر إلى مصر بعد هذا التاريخ لأن المستشار الثقافى فى السفارة السوفيتية قال لهم أنه لا يتحمل مسؤولية مجىء الفرقة فى شهر أبريل لأنه شهر « الخماسين » . فحرارة الجو فيه ، والعواصف الترابية .. وما تسببه من احتقان فى الحلق ، كل هذه مخاطر لا يجب أن يعرضها لها ، بل يجب أن يحذرها منه . فلما ألححت على وزير الثقافة السوفيتى وقلت له أن عودتى بغير الحصول منه على وعد مؤكد بأنه سيرسل (البولشوى) الينا ، تجعل رحلتى إلى الأتحاد السوفيتى فشلا كاملا . وكان قد قام بيننا أثناء وجودى فى ضيافته ود ، فأحس بأنه مدين لى بتحية يقدمها ، فأمسك التليفون وطلب مدير البولشوى – وصاح وأخذ يكرر كلمة « خماسين » ، قائلا « خماسين ، خماسين » .. ثم ألقى السماعة بعنف ونظر الى .. وقال : « البولشوى ستكون عندكم فى أوائل ابريل من العام القادم على الرغم من الخماسين . خماسين .. خماسين .. ماذا تكون الخماسين هذه التى يخوفوننا منها ؟! » .

ولقد حمدت للوزير السوفيتى هذه الحماسة ، فى محاولة أرضائى . وحدث أن جاء لزيارة مصر ، فى نفس الوقت الذى وصلت فيه (فرقة البولشوى) إلى القاهرة فى يوم افتتاح موسمها ، ووقفت على خشبة مسرح الأوبرا أرحب بالوزير ، وبفرقة البولشوى ، ثم عدت

إلى مقصورة رئيس الجمهورية ، وما كدت أجلس على مقعدى بجواره حتى رأيته يتجه إلى (كيسيليف) سفير الأتحاد السوفيتى فى مصر فى ذلك الوقت وقال : « ألم أطلب اليك أن تحضر فرقة البولشوى » فأخذ الرجل ، وبدا عليه أنه لم يفهم ماذا يكون الأمر ، فقال : « البولشوى ؟ » فقال مستفسرا : « أحضر فرقة البولشوى إلى مصر ؟ » . وترجم السؤال . فاندفع الوزير السوفيتى من حيث لا يدرى أن أجابته ستغضب « عبد الناصر » – وقال ضاحكا : « لولا ضغط والحاح (الجاسبادين رد فان) – أى « رضوان المحترم » – لما جاء البولشوى إلى مصر فقاطعه « عبد الناصر » قائلا : « ولكننى اسأل السفير .. ألست أنا الذى طلبت حضور البولشوى .. وألم تعدنى أنت بمجيئها ؟ » .

وأدرك السفير بأن الأجابة بغير ما يريد « عبد الناصر » ستغضبه . فقال كلمتين للوزير السوفيتى بالروسية ، ثم قال : « بالتأكيد سيادتك طلبت ذلك . طلبت مرارا » . وسكت أنا ، وانتقل الحديث إلى شىء أخر . وأخذت أنا اتأمل فى هذه الواقعة طويلا ، وأسائل نفسى : أيكون عبد الناصر برغم مكانته العالمية كلها – محتاجا إلى هذا الشرف الصغير ؟! شرف احضار فرقة رقص وغناء ، مهما بلغت من الأهمية والعظمة .. هو الذى يقيم الدنيا ويقعدها بقراراته المدوية .. يمكن أن يكون محتاجا لشىء كهذا؟.

ولم يوجه الى « عبد الناصر » كلمة واحدة طوال الحفلة . وحيانى ، بفتور عند الأنصراف .

وفى اليوم التالى ظهرت صورة عبد الناصر فى المقصورة بالأوبرا ومعه السفير والوزير ، وعلى الرغم من أننى كنت أجلس إلى جواره ، إلا أننى لم أجد لنفسى وجودا . فهل محيت صورتى .. وعقابا على أى شىء ؟! ..

لقد كتب الكاتب الفرنسى « فوشيه » أن عبد الناصر قد طالع – وهو ما يزال بالكلية الحربية – عددا من الكتب أورد بها قائمة فى كتابه عن عبد الناصر .. ومن بينها كتاب « أرمسترونغ » عن أتاتورك المعنون : « الذئب الأغبر » . وقد حدثنى الأخ الأستاذ حلمى سلام أن « عبد الناصر » كان ذات يوم فى زيارة له بمنزله ، فلما هم بالانصراف .. وقف أمام مكتبة الأستاذ حلمى ، ثم مد يده إلى كتاب « الذئب الأغبر » فى نسخته المترجمة ، واستأذن فى أخذه ليقرأه . ومعنى هذا أن قائمة الكتب التى وردت فى كتاب « فوشيه » ،

والتى أمليت له ، لم تكن تحوى الكتب التى قرأها جمال عبد الناصر فعلا ، بقدر ما كانت تحوى الكتب التى كان عبد الناصر يتمنى قراءتها .

ولست أعرف مدى قدرة عبد الناصر على القراءة بعد أن ولى شئون مصر وزادت أعباؤه ، وكبر مقامه . ولكن الذى استطيع أن اؤكده أنه كان حريصا أشد الحرص على تثقيف نفسه ، وتثقيف الضباط الذين من حوله ، وأنه كان صاحب فكرة ترجمة وتلخيص كتب ذات أهمية خاصة فى السياسة والأقتصاد وطبعها على الألة الكاتبة وتوزيعها – بعد نسخها على (الرونيو) – على الضباط والوزراء . وهذه الكتب التى كونت بعد ذلك سلسلة (اخترنا لك) . والمتابع لهذه السلسلة يرى تنوع الموضوعات فيها ، وشدة اتصالها بمنطقة الشرق العربى ، وبتطور الأحداث السياسية الكبرى فى أيامنا ، وبالأفكار والمذاهب الأشتراكية . وأحسب أن بعض هذه الكتب كانت من بين ما قرأه عبد الناصر .. ولكن المؤكد أن عبد الناصر كان يقرأ الصحف الأوربية المحررة باللغة الأنجليزية بنهم شديد ، وأنه كان حريصا على قراءة كل ما يكتب عنه فى صحف بريطانيا ، وأن لغته الأنجليزية تقدمت كثيرا بفضل مقابلاته مع الرجال من طراز « نهرو » و« سوكارنو » ممن يتكلمون الأنجليزية ، فضلا عن هذه الأفواج من الصحفيين ومراسلى الجرائد والسفراء والشخصيات البريطانية والأميريكية وغيرهم ممن كانوا يقابلونه ويتكلمون هذه اللغة .

وذات يوم كنا نتكلم عن الكتب التى تطبعها وتنشرها وزارة الأرشاد القومى ثم وزارة الثقافة . وكنت أشكو من ضعف أقبال المصريين على اقتناء ومطالعة الكتب ، على الرغم من أن سلاسل وزارة الأرشاد القومى كانت بأقلام أكبر الكتاب المصريين . وكانت تباع بأرخص الأسعار بعد أن تعلن عنها فى الصحف الصباحية الأربعة (الأهرام – الأخبار – الجمهورية – الشعب) فضلا عن المجلات والأذاعة فإننا لم نوزع من كتاب محرر بقلم العقاد أو طه حسين أكثر من ألفى نسخة . فقال عبد الناصر : « كتاب يقرؤه فرد واحد ، ينفع فالعبرة ليست بالكثرة ، فرب فرد يتأثر بالكتاب . ويكون هذا الفرد بمثابة ألف شخص » .

وكان هذا القول من أجمل ما سمعت من « عبد الناصر » .

ووجهت اليه مرة خطابا مفتوحا فى أحدى المجلات ، أدعوه فيه إلى العناية بكتب التراث لأعادة طبعها ، مشروحة ومبوبة ومعلق عليها ومذيلة بالفهارس والتراجم ، لأن ذلك هو

سبيل البعث الحقيقى لمصر . فجاء إلى مجلس الوزراء غاضبا للجوىّ لهذا الأسلوب . وكأنه يقول : « وزير من وزرائى لا يجمل به أن يخاطبنى كأنه أحد الكتاب » . وقد أحسست بأنه محق إلى حد ما فى غضبه .. ولكنى قلت من قبيل المكابرة : « وأنا لم أوجهه إلى سيادتك لتقرأه » . فقال : « ولماذ توجهه الى ؟ » قلت : « لأثير الأهتمام بما فيه فيقرأه عدد كبير من الناس » . فرضى عن هذا التفسير وسكت .

* * *

ولقد كانت (السينما) هى احدى هوايات « عبد الناصر » المحببة اليه .. واذكر ، فى صدد السينما ، ثلاث ذكريات . أولاها – وقد كانت صلتى به فى بدايتها المبكرة – يوم الفنا وزارة الثورة الأولى فى السابع من سبتمبر سنة ١٩٥٢ . فقد كان حريصا على أن يتم تأليف الوزارة فى ذلك اليوم ، وكان يستبعد كل شيء من شأنه أن يؤدى إلى تأجيل الوزارة ولو ليوم واحد . فلما اطمأن إلى أن الوزارة ألفت ، قال – وهو يتنفس الصعداء .. حقيقة لا مجازا « الان استطيع أن اذهب إلى السينما .. تصور أننى لم أر فيلما واحدا منذ شهرين » .

وعرفت يومها أن الحرمان من السينما لمدة شهرين ، هو عقاب شديد بالنسبة له ..

والذكرى الثانية ، يوم حدثنى عن فيلم نسيت اسمه ، واسم بطله ، وكنت أرجح أنه الفيلم الرائع « أريد أن أعيش » الذى مثلته « سوزان هيوارد » . وقد قيل يومها أن بطلته صهيونية ، أو أنها ذات ميول صهيونية عبرت عنها صراحة ، أو شاركت فى نشاط مؤسسة الجباية اليهودية التى تمول اسرائيل وتجمع لها التبرعات من يهود الولايات المتحدة .

وطالب بعضهم بمنع عرض الفيلم . ومنع الفيلم فعلا لمدة طويلة ثم قال لى عبد الناصر : « متى تفرج عن الفيلم ؟ » فسألته : « وهل هو فيلم جيد ، هل رأيته سيادتك ؟ » فقال بحماس : « طبعا .. فيلم جيد ، لاتسمع كلام هؤلاء الأغبياء » . وبعد تحريات قمت بها ، وجدت أن التهمة الملحقة بالممثلة ، لا دليل عليها ، ورأيت الفيلم ، فوجدته عملا فنيا ممتازا لا زلت أذكره ، وأذكر اللحظة التى سيقت فيها البطلة إلى غرفة الأختناق بالغاز وهى تقول للقسيس : « أبتاه .. أنى خائفة » .. ثم ردت على الجلاد حينما نصحها بأن تأخذ نفسا عميقا ، فإن ذلك يجعل الأمر أيسر فصاحت فى وجهه : « من أخبرك بذلك »؟.

ولست أنسى أننى حين أفرجت عن الفيلم ، تلقيت تهنئة خاصة من عبد الناصر على ذلك ..

والذكرى الثالثة كانت بالنسبة لعبد الناصر ، حرجا مفرطا . فقد طلب المخرج السينمائى العالمى « سيسل دى ميل » بأن يقدم له تسهيلات هائلة فى مصر عند اعادة اخراجه الفيلم الضخم (الوصايا العشر) على أن يبذل (سيسيل دى ميل) جهودا خاصة لسرعة ادخال التليفزيون فى مصر .. ونفذ « عبد الناصر » وعده . وتم اخراج الفيلم الذى يروى قصة خروج بنى اسرائيل من مصر ، وعلى رأسهم موسى عليه السلام ، وعبورهم البحر الأحمر . ولما عرض الفيلم فى الولايات المتحدة ، ورآه العرب صاحوا : « إن هذه أكبر دعاية لبنى اسرائيل ، وأكبر دعاية ضد مصر » . فاضطر « عبد الناصر » لوقف عرض الفيلم فى مصر . فجاءه « سيسيل دى ميل » محتجا وهو يقول : « إن الفيلم يروى احدى قصص القرآن ملتزما نصوص الكتاب الكريم غير محرف لها فى أى موضع ولا مضيف اليها حرفا » . وقال لى « عبد الناصر » : « هل عرض قصة قرآنية أمر يعاب ؟ » فقلت له : « أنا مع العرب ، إن اظهار شعب مصر — ولو من الاف السنين — فى صورة المضطهد للأقلية اليهودية ، واظهار فرعون مصر فى ثوب الطاغية ، يكسب قضية الصهيونية عطفا ، وعرضه الان ليس عملا فنيا بل هو عمل سياسى بحت » . وسكت عبد الناصر .

وقد بدت أثار مطالعات « عبد الناصر » فى مناقشاته مع بعض الوزراء .. ففى احدى الجلسات ، اشار « سيد مرعى » ، وزير الأصلاح الزراعى انذاك ، إلى كتاب لكاتب غربى ، ولخص بعض أفكاره . فأعترض « عبد الناصر » على هذا التلخيص ، وقال : « إن الرجل يقول فى كتابه نقيض ما تقول » . فقال الوزير : « هذا ما فهمته أنا » . فقال له الرئيس : « لابد أنك قرأته بالمقلوب » .

* * *

وقد أخبرنى أحد رؤساء الوزارات أن مناقشة حادة دارت بين « عبد الناصر » وبين أحد وزراء الاقتصاد . فقد كان الوزير يشكو من الضغوط التضخمية على الاقتصاد المصرى ، ويقترح لمواجهة هذه الضغوط سياسة اقتصادية انكماشية . وكانت العلاقة بين الرئيس والوزير سيئة فى تلك الفترة وقد خرج الوزير بعد هذه المناقشة من الوزارة . وقد أجاب عليه

الرئيس : « ماذا حدث يا دكتور منذ سنة واحدة فقط ، كانوا خصوم سياستك يقولون أنها تؤدى إلى التضخم ، وكنت أنت تنكر هذا بشدة .. فماذا جد؟ » قال الوزير : « كان ذلك منذ أكثر من سنة » فقال الرئيس : « لا منذ سنة واحدة فقط . ولكن ، لنقل سنتين .. ما الذى تغير من سياستنا .. السياسة هى هى ، والأرقام هى هى .. وربما الإنفاق الحكومى أصبح أقل .. لا سأخبرك عن السبب .. أنت ذهبت إلى (المومس الفاضلة) .. وشرح الرئيس نفسه وقال : لقد قرأت كتابا لاقتصادى أمريكى كبير يقول فيه : أننا ننهى الدوَل النامية عن أن تقوم بالتنمية مع التضخم ، فى حين أن أمريكا تعانى من تضخم رهيب ، وتواصل التوسع فى اقتصادها ، فكأننا كالمومس الفاضلة التى تمارس الرذيلة ، ثم تقف على باب دارها لتعظ الناس وتحذرهم من الرذيلة » .

وضحك الوزراء طويلا . وخرج الوزير بعد قليل من الوزارة . ويومها قال بعض الوزراء : « إن ازدياد ثقافة الرئيس ليس من مصلحتنا فى شيء » .

الفصل الحادى عشر

مجوهرات فاروق
من الذى سرقها
ووزعها على عشيقاته ؟

لكم رددت نفسى عن أن اكتب هذا الفصل . لأنه يتعلق بى . ويدور حولى .. ولكم وددت . فى ذات الوقت ، ان اكتبه . لأنه صفحة من تاريخ بلادنا لا ينبغى أن يتجاوزها التسجيل . واذا كان هذا الفصل فيه هزل يدعو إلى الضحك أو الأبتسام . فما أحوجنا ، ونحن نروى التاريخ الصادق . أن نذكر هزله مع جده . وخفيفة مع ثقيلة ، وغريبه مع مألوفه . فالتاريخ الأنسانى هو صورة الأنسان وصداه، والأنسان – كما وصفه كتاب الله الكريم – جامع لمتناقضات : خلقه الله بيده . ونفخ فيه من روحه . وسواه على صورته ، ولكنه خلقه من صلصال ، ومن حمأ مسنون . ومن ماء مهين .. فكان فيه اشراقة السماء . وظلام الطين !.

كان عزل الملك فاروق ، ٢٦ من يولية سنة ١٩٥٢ ، حدثا خطيرا غاية الخطر فى الحياة الدولية . ذلك لأن الملكية المصرية . كما سبق القول ، هى أقدم الملكيات طرا . وقد استمرت – بلا أنقطاع – أربعة ألاف سنة ، ولأن موقع مصر ، واتصالها بأفريقيا وأسيا ، وبالعرب والمسلمين والمسيحيين واليهود .. ولجريان قناة السويس فيها ، ولاطلالها على البحرين العظيمين : الأحمر والأبيض . فإن كل ما يجرى على أرضها . ويحدث لرجالها . يعتبر ذا شأن عند الناس جميعا . ومن هنا ، فقد برزت شخصية الملك فاروق على الصفحات الأولى لكل جرائد العالم : شرقه ، وغربه .. قديمه وحديثه . وراحت الأقلام تكتب عنه ، وتحلل ، وتهتم ، وتدافع عن تاريخه ، وتتهكم . وتسخر .. ثم تثنى وتمدح . كل قلم على هواه . وكل صحيفة تبعا لمذهبها .!!

واخيرا .. رأى الملك فاروق أن يتولى بنفسه مهمة الدفاع عن نفسه . وأن يهاجم الثورة وكل من اتصل بها ، فلم يجد شخصا يجسد له هذه الثورة ، ويصلح هدفا لضرباته ، سواى ، فلم يكن « عبد الناصر » قد ظهر بعد ، وكان « نجيب » يبدو أنه لن يكون عدوا لأحد . وقد وجد الملك إلى جانبه ، فى تلك اللحظة ، كاتبا من كتاب التراجم ،والفصول السياسية ، اسمة (وارد برايس Waard Price) – وقد قرأت له كتابا جيدا بعنوان : « عرفت هؤلاء الطغاة » ، تحدث فيه عن « هتلر » و « موسولينى » . و « ستالين » حديث العارف بهم ، اذ قد زارهم . ووجه اليهم الأسئلة . وقرأ الكثير من الوثائق التى لا تتاح لغيره من الكتاب . وقد كان (وارد برايس) هذا ، من كبار كتاب صحيفة بريطانية ذائعة

الصيت هى (امبير نيوز – Empire News:) أى انباء الأمبراطورية – وعلى الرغم من أنى كنت فى أول الثورة مشرفا على النشاط الأذاعى والدعائى للثورة . إلا أنى لم أطلع على هذه الصحيفة .

• **مفاجأة نصف الليل !**

وفى ذات ليلة سمعت فى حديقة منزلى الصغيرة ، حركة ووقع أقدام لأشخاص كثيرين ، وصوت سيارة تقف فجأة أمام دارى ، فأفقت من النوم ، ونظرت إلى ساعتى ، فإذا نحن فى الثالثة بعد منتصف الليل !!. وعلى الرغم من أنى من المتفائلين غير المتطيرين . فإنى لم أجد تفسيرا لهذا الضجيج فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، إلا أن تكون الثورة قد انتكست وأن أقواما قد رأوا أن يقصدوا دارى . ولم يطل تفكيرى . فقد قمت من فراشى ، ورأيت نفسى هادئا ، واذا بالباب يفتح ليدخل شاب لم يقع نظرى على وجهه من قبل ، ولم أستطع أن أقرا على وجهه شيئا عن الدافع الذى حفزه إلى طرق بابى فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ، وقد سكن كل الأحياء ، وناموا ، ورأيت من ورائه جندى الحراسة المعين على باب دارى يحيى تحيته العسكرية . وأنا مستغرب ، كيف سمح الجندى لهذا الشاب أن يدخل بيتى ، ودون إذنى ، فى هذه الظروف الشاذة ؟.

ولكنى لمحت وراء العسكرى ضابطا – وربما أكثر من ضابط – فزاد الأمر تعقيدا عندى ، وأصبحت شديد الفضول لمعرفة كل هذه الألغاز .

لقد كانت زيارة متأخرة فى الليل البهيم . فى عهد ما قبل الثورة أمرا مألوفا ، ولا غرابة فيه بالنسبة لى . ولكن .. أن يأتى الطارق ، وأنا فى الوزارة . والحارس المخصص لحمايتى لا يرى فى ذلك ما يدعو إلى مؤاخذته ، ومن خلفه ضباط .. فهذا هو الذى لا عهد لى به ، والذى يحتاج منى إلى تفكير سريع لأعرف بالضبط موقفى من هذه المفاجأة الليلية .

وأخيرا تكلم الشاب . قال أنه لا يعرف كيف يعتذر لى ، فقلت له : – وأنا بين الدهشة والضيق – « دعنا من الأعتذار . وقل ما الغرض من هذه الزيارة ؟ » . فقال : « سيادتك ستندهش اذا علمت هذا الغرض » فقلت له ، وأنا أكاد أفقد هدوء أعصابى وأخرج عن حلمى : « ياسيدى إنى مندهش بما فيه الكفاية ، ولست فى حاجة إلى مزيد

من الدهشة . تكلم أرجوك » .

فقال : « أنا فى الحقيقة فى غاية الخجل ، لأنى لا أعرف كيف أبدا الكلام » . عند هذه العبارة ، تصورت أن الأمر قد انجلى عنه كل الغموض ، ولست فى حاجة إلى الأنتظار ، فلابد من أن ادخل إلى حجرتى لارتدى ثيابى وأذهب مع هذا الشاب ، والضباط الذين وقفوا خلفه أيا كانوا . فلا أحد يقتحم منزلا فى الساعة الثالثة صباحا .. ويتعثر فى الكلام .. إلا أن يكون موظفا مكلفا بألقاء القبض على أى أنسان فى مثل هذه الساعة مما يحرج القائم به ، فإن حرجه سيزداد ولا شك اذا ما كان المطلوب القبض عليه رجلا فى السلطة .

فقلت له : « لا داعى للاعتذار .. فأنا قد فهمت » .

فإذا بالشاب قد سرى عنه تماما . وقال : « اذن هم قد اتصلوا بك قبل مجيئنا » .

وتوقفت عن السير ، ونظرت اليه . وقد خيل إلى أن فى الأمر لبسا لا محالة . فقلت له فى صوت تشوبه حدة : « من هم ؟ » .

فقال : « الأهرام » .

وشرد ذهنى . وخيل إلى أننى فى كابوس . فقلت له متسائلا : « الأهرام ! أى أهرام ؟! » .

فقال الشاب ، وهو لا يعرف كيف يجد الألفاظ التى تعينه على التعبير عن نفسه : « جريدة الأهرام » .

فاقتربت منه لاتأكد من سلامة عقله . وقلت له : « الأهرام تكلمنى الساعة الثالثة صباحا .. هل تجرؤ .. هل يعقل أن تفعل هذا .. هل حدث فى البلد شيء ؟ » .

فإذا بالشاب يرتبك — أو يزدادا ارتباكا — ويحسب أننى أوبخه وأقرعه . فقال : « لا .. كل شيء على ما يرام . وإنما نحن .. نحن الذين ارتكبنا هذه المخالفة ، ولكن ليس بأرادتنا .. فقد الزمنا الزاما .. » .

ولا اريد أن استنفد حلم القارىء أكثر مما فعلت ، فقد عرفت ، آخر الأمر أن

« الأهرام » تلقت ملخص مقالة كاملة بقلم « صاحب الجلالة » (الملك فاروق) ، يهاجمنى أنا بالذات ، وودت الجريدة أن تسبق غيرها ، وأن تنشر هذه المقالة ، فأبت سلطات الرقابة إلا أن أطلع عليها ، وأن أجيز نشرها ، وأن أرد عليها .

ولم تتردد الجريدة فى أن تنفذ أوامر الرقابة . ولكنها طلبت أن يصحب المحرر عدد من ضباط الحرس ليسمح الحارس الواقف علىّ بابى بدخوله إلى ، ولاطمئن إلى أن المسألة ، مسألة تحرير ، وحديث ، ورد .. وأنها ليست مؤامرة وقعت بليل . وعلى ذلك قام الركب المكون من محرر الجريدة الشاب ، ومعه موظف من الرقابة ، وضابطان : أحدهما شاب ، وثانيهما فى منتصف العمر ، وجنديان ، واتجهوا إلى بيتى الذى اعتاد ، من قبل ، أن يستقبل أمثالهم كثيرا . وشعرت فى هذه اللحظة بالهوان . اذ أن موظفا ما فى الرقابة ، بدا له أن هذا اجراء لازم من وجهة نظر أمن الدولة ، فلم يتردد فى أن ينفذ ما خطر على باله ، دون أن يحسب لراحتى أى حساب ، ولا لما قد يسببه هذا الأجراء لى من ازعاج !!.

* * *

ومد الشاب يده ومعه ورقة فيها ملخص المقال ، وترددت فى أن اخذ منه ما قدمه لى .. بل فكرت فى أن أطرد الجميع بغلظة . ولكن غلبت على طبيعتى . وقد لا يكون لى فضل . فإن فضولى كان قد بلغ أقصى درجاته . اذ لأول مرة فى تاريخى أدخل فى حوار صحفى مع ملك ، ومع الملك فاروق بالذات ، الذى عشنا سنوات نكتب ضده المقالات ، ونحاول ، ما استطعنا ، أن نصل إلى أغراضنا دون أن يقف القانون عائقا فى طريقنا . فأخذت المقال ، ولم أكن أتصور مطلقا أننى ساقرا فيه ذلك الكلام الغريب ، والممتع ، الذى احتوى عليه .

- **الملك يتكلم ..!**

بدأ « جلالة الملك » مقاله بقوله (إن الثورة أساءت الأختيار ، اذ اسندت إلى منصب وزير الدعاية ، لآفتين كبيرتين فى .. الآفة الأولى : أننى « شيوعى » .. والآفة الثانية : أننى ، كما يقول المصريون « رد سجون » يعنى : أننى ممن لا يخرجون من السجون إلا ليعودوا اليها . وإن الثورة التى تختار « شيوعيا » ليكون لسانها ، لا يمكن إلا أن تكون حمقاء ،

لا تدرى خيرها من شرها . اذ كيف تستقيم الأمور فى بلد يكون من وزرائه من هم أصحاب سوابق ؟! . وأضاف الملك الأخير لمصر : « إننى لن أدخر وسعا فى نشر الشيوعية فى مصر وفى البلاد العربية » ، ولست أدرى ماذا قال الملك حينما أصبحت ، فيما بعد ، هدفا خاصا لحملات الشيوعيين فى مصر ، ولا سيما فى الفترة الأولى لشغلى منصب الوزير . وبطبيعة الحال ، فإن ما قصده الملك فاروق كان مجرد اثارة لمخاوف الغرب منى .. كأن دول الغرب أو الشرق فى حاجة إلى معلومات من جلالة الملك . وكأن ادارات المخابرات بأجهزتها الحديثة الخارقة للمألوف ، واعتماداتها المالية الخرافية ومئات الألوف من أعوانها وعيونها المنبثين فى كل مكان ، لا تعرف كل صغيرة وكبيرة عن أى شخص يلعب دورا فى السياسة ولو كان من ادوار « الكومبارس » .!!.

على أن المقال الثانى كان أكثر طرافة ، مما يدل على أن خيال الملك ، وكاتب مقالاته (وارد برايس) رأيا أن يزيدا الجرعة ، ليستثيرا نصيبا أكبر من اهتمام الناس فى مشارق الأرض ومغاربها . فقال « إن الشيوعى فتحى رضوان نسى شيوعيته ، حينما دخل القصور الملكية .. فرأى مجوهرات الملكة ، ومجوهرات شقيقات الملك وبناته ، من عقود وأقراط وخواتم و(بروشات) ، فقد اغترف منها إلى بيته أكواما وأكداسا » . ولكنى لم أوزعها على الفقراء ، كما كان يقضى على مذهبى ، ولم أعطها للدولة كما كانت تقضى الأمانة .. بل وزعتها على من ؟ على عشيقاتى اللاتى لا تتجاوز الواحدة منهن السابعة عشرة من عمرها .!!.

* * *

والحق أن هذا الكلام ، وإن كان كله خيالا فى خيال ، إلا أنه جدير بأن يسعد وزيرا فقيرا لم ير هذه الأصناف الباهرة من الحلى ولو من بعيد . وما رآه منها كان من الحلى الزائف الذى تستعمله ممثلات المسرح . وقد زاد هذا الخيال متعة إذ أضاف إلى جانب المال الذى يسيل له لعاب الناس فى القديم والحديث . خصوصا إذا كانت بهذه المقادير التى تدير الرأس . متعة أخرى يقتتل الناس فى سبيلها . ويحبكون المؤامرات والدسائس من أجلها . وهى أن يكون لهم (حريم) من الجميلات الكثيرات العدد . وصغيرات السن التى لا تتجاوز الواحدة منهن السابعة عشرة .!!.

وفى المقال الثالث .. اتسع خيال الملك . وكاتب وحيه (وليرد برايس) . فقالا أننى حينما علمت أن أفواج السياح ستتدفق فى حجرات وأبهاء القصور الملكية ، أسرعت فوضعت إلى جانب فراشه « كتبا جنسية » .. وزودت مكتبته « بصور شائنة » !!.

وفى المقال الرابع .. قال الملك أننى قدت مظاهرة بعد تولى الوزراة وذهبت بها إلى ميدان المحطة بالقاهرة حيث كان يقف تمثال لوالده فانهلت على شوارب الملك القديم فحطمتها . والحق أن الملك قد بلغ ، بهذا المقال بالذات ، أقصى حدود الجرأة . لأن كل من يقيم بالقاهرة يعلم أنه لم يكن للملك فؤاد فى يوم من الأيام – وحتى فى عهد الملك فاروق نفسه – تمثال بشوارب !!.

والطريف هنا .. أن بعض الذين لم يكن يعجبهم من الثورة ومن زعمائها العجب . ولا الصيام فى رجب . ضايقتهم مقالات الملك فاروق ضدى إلى حد ان أحد زعماء السعديين – وكان نائبا ومحاميا كبيرا – جلس فى حجرة المحامين فى الزقازيق حيث يوجد عدد من أقاربى وأصدقائى وقال : « إن هذه المقالات هى من تأليفى أنا ، وأن الملك فاروق لم يكتب شيئا من هذا الكلام . وأن جريدة (امباير نيوز) جريدة لم يسمع بها أحد » . وهاج هذا الكلام غضب أحد ذوى قرابتى فتماسك مع النائب السعدى .. وكلاهما تجاوز الخمسين من عمره !!.

على أن (الملك فاروق) ، بعد هذه المقالات ، آثر الصمت . ولم يعد يكتب أو يقول شيئا . وانصرف إلى حياته الخاصة وإلى استثمار أمواله فى مشروعات مربحة . ولعله ندم اذ تبين أنه تعجل الحوادث ، وأنه كان يجب أن يدخر كلماته للشاب « جمال عبد الناصر » الذى سيسقط الملكية ، ويتعقب أفراد (أسرة محمد على) بما لم يخطر لهم على بال .

والحق أنه لم يخلع ملك بثورة ، بالسهوله التى خلع بها الملك فاروق . ولا تفسير لهذا إلا أن دوائر الغرب ، من أنجليز وأمريكان ، كانت قد يئست تماما من اصلاح حال الملك . فقد وعدها كثيرا بأنه سيقصى من حاشيته ذوى السمعة السيئة ، وأنه سيدع فرصة لعناصر جديدة ونظيفة لكى تتولى الحكم فى بلاده ، وتقوم بتقديم المشورة له . ولكنه كان لا يخلو لنفسه ، حتى يعاوده الضعف أمام بطانته ذات التأثير البالغ عليه . فلم تر تلك الدوائر بدا من أن تدعه ليلقى مصيره . وكانوا قد ارسلوا اليه صديقه « عمرو باشا » – بطل

« الاسكواش راكت » العالمي الذي كان الملك قد عينه سفيرا له في لندن - وذهب اليه « عمرو باشا » في مصيفه « بكابري » .. أو « دوفيل » ، ونصحه بسرعة العودة إلى مصر لأن الظروف فيها اسوأ مما يتصور . وكان زعماء الأحزاب قد أعدوا عريضة ، ينبهوه فيها على سوء حكمه في عبارات شديدة اللهجة ، لم يألف زعماء الأحزاب في مصر أن يستعملوها أو يستعملوا ما يشبهها في مخاطبة الملك . بل في مخاطبة أحد من كبار موظفي ديوانه . ولكنه لم يعبأ بهذه النصيحة - وأبدى دهشته من أن رياضيا عالميا « كعمرو باشا » يهتز لما يقوله الأنجليز الذين لا يعرفون ، طبيعة السياسة في مصر !!.

والحق أن الملك لم يكن بعيدا عن الصواب كثيرا . فإنه عندما عاد . ومضت بضعة شهور على ثورة هؤلاء الزعماء واحتجاجهم ، حتى تعاونوا معه جميعا . تقريبا، وألفوا الوزارات في ظل حكمه . ولو تركوا لأنفسهم ، لبقى الحال على ما كان عليه ، ولكن « الحلبة » كان قد دخل اليها عنصر جديد لم يحسب الملك حسابه ، ذلك هو ظهور غضب شعبي يزداد مع الأيام تشكلا ، ويزداد جرأة ، مع ظهور تشكيل عسكري على قدر من التنظيم والأستمرار .

وقد أدرك زعماء الغرب عندما تبينوا هذه الحقائق ، أن المراهنة على الملك ، فقدت كل مبرراتها . وكان هو نفسه يحس بذلك قبل ٢٣ يولية بشهور عديدة ، ويقول مازحا مزاح أكثره جد ، إنه ذاهب ، وأنه لن يبقى بعده من الملوك إلا « ملوك الكوتشينة الأربعة » !!.

على أنه يجب أن نذكر هنا حقيقتين : أولاهما ما سمعته نقلا عن المهندس أحمد عبده الشرباصي الذي عمل لسنوات طويلة وزيرا في حكومات الثورة . رواية لما صرح له به الأستاذ مرتضى المراغي - وزير الداخلية في اخر وزارة قبل الثورة مباشرة - وخلاصة هذا التصريح أن الوزارة اتصلت بالسفارة البريطانية صبيحة ٢٣ يوليو ، وتداولت معها في الموقف الناجم عن ثورة الضباط ، وسألت الوزارة : « هل تنصح السفارة بمقاومة الضباط ، الأمر الذي كان ممكنا في رأي الوزارة لوجود قوات مسلحة ذات قيمة موالية للدولة ، وإن مجرد ظهور بوادر هذه المقاومة سيحمل أكثر الذين انضموا إلى الثورة وآمنوا بها إلى الأنفضاض عنها » . فكان جواب السفارة : « إن رجلا لا يدافع عن نفسه لا يستحق أن يدافع عنه الآخرون » . ولذلك قررت الوزارة أن تنفض يدها منه .

واذكر أننى استقبلت ، فى الأيام الأولى للثورة ، السكرتير المسئول عن شئون الدعاية والصحافة فى السفارة البريطانية – وكان قد جاء ليحتج على الحملات التى توجهها برامج الأذاعة الموجهة إلى الأستعمار فى أفريقيا ولا سيما فى غربها – وفيما نحن نتكلم ، دخل أحد أعضاء مجلس القيادة الذى سمع هذا السياسى البريطانى يقول : « لو أن بريطانيا كانت تود أن تقمع الثورة ، لكان ذلك من أيسر الأمور . فقد كان فى السويس ثمانون الف جندى بريطانى ، مع قوة طيران كبيرة . ولكنهم كانوا يتمنون للثورة النجاح ، بعد اليأس المتكرر من اصلاح حال فاروق » !.

● **عشاء .. سجله التاريخ !**

ولقد كف الناس عن الكلام عن الملك فاروق ، حتى توفاه الله فى ١٨ مارس ١٩٦٥ ، فى مطعم فى أيطاليا بعد عشاء سجله التاريخ فى كتاب الأمريكى (ميشيل سترن) المعنون : « فاروق ، فى كتاب لم يمر على الرقابة » . فقال عن هذا العشاء : « قد هاجم فاروق طبقا فيه اثنى عشر محارة من الصنف الكبير غارق فى مرقة (التابسكو) الشهيرة ، وقد أعانه على ابتلاع هذه الوجبة الضخمة زجاجة كاملة وضخمة حجمها ٣٢ أوقية من ماء « أفيان » ، ثم جاء دور فخذة خروف تساوى أربع وجبات كاملة من اللحم لأربعة رجال . مع البطاطس المحمر تيسر وصولها إلى بطنه بفضل زجاجة من الصودا أما الحلو فقد كان كومة ضخمة من الصنف المعروف فى إيطاليا (الجبل الأبيض) أو (مونت بيانكو) والمكون من دقيق الكستناء (أبو فروة) المغلى فى اللبن والمخلوط بمحلول السكر ، والمحلى بالقشدة المضروبة المتوجة بالفاكهة ، وقد تبع ذلك زجاجتان من الحجم الصغير من الكوكاكولا . وتبعا للنظام الإيطالى . أنهى الملك هذه الوجبة بعدد من البرتقالات ، ثم عدد آخر من زجاجات الكوكاكولا . وبعد هذا ، استحق فاروق – وكأنما هو فى سباق فى حلبة العدو ، ووصل إلى ختام السباق – أن يستريح . فقد اضطجع فى مقعده ، وأخرج من جيبه سيجارا ضخما من تبغ (هافانا) ثم أشعله ، وأخذ منه أنفاسا قليلة عميقة ، وأطلق حوله سحابة من الدخان ، وفجأة شملت عضلات وجهه مسحة من الجمود ، وقد تدحرج السيجار من فمه ، واتجهت رأسه إلى الخلف ، وحدقت عيناه تحديقا خفيفا فى سقف حجرة المطعم . ولما كان فاروق – غفر الله له – صاحب مزاج خاص فى المزاح الثقيل ، فإن صاحبته تلك الليلة ، كانت واثقة من أنه يمزح . وعلقت على هذه الحركة تعليقا قصدت به المداعبة .

ولما لم تسمع على تعليقها ردا مجلجلا كالعادة من صديقها النائم أو المتناوم . فقد كررت المداعبة ، وكانت مداعبة خفيفة هذه المرة ، ولكنها لم تسمع ردا أيضا ، ولما كانت رأس الملك قد اتجهت بعيدا إلى الخلف ، فإن الفتاة لم تستطع أن ترى وجهه فى هذه اللحظة ، لذلك تركت مكانها وذهبت إلى جواره ، وبنظرة واحدة ، أدركت الحقيقة . فصدرت عنها صرخة جاء على أثرها خادم المطعم (اليوبيرمانى) ومديره (ألبرتو ساردى) . كان الملك غائبا عن صوابه . يتنفس بصعوبة ، وقد تعاون الثلاثة فى رفعه عن مقعده وإنامته على منضدتين من مناضد المطعم مستلقيا على ظهره ، ثم فتح عامل المطعم سترة الملك وراح يدلك صدره عند موضع قلبه ، أما مدير المطعم فقد ذهب ليتصل بالإسعاف تليفونيا . وفى دقائق وصلت سيارة إسعاف تابعة للصليب الأحمر . كما أقبل الدكتور (نيقولا ماسا) إلى الملك الغائب عن صوابه ، فتبين أن النبض ضعيف ، وأن تنفسه يجرى بصعوبة . وفى الحال ، ملأ الطبيب حقنة بسائل الكافور ، ثم طلب حملة النقالة ، ونقل « فاروق » إلى مستشفى (سان كاميليو) حيث وضع ، فى الحال ، فى خيمة أوكسجين لإنعاشه . ثم تقاطر عدد من الأطباء وأحاطوا به فى حين كان نبضه يزداد ضعفا .

وبعد عشرة دقائق .. وبالضبط فى الساعة التاسعة والدقيقة الثامنة من مساء ١٨ مارس ١٩٦٥ ، وفى تمام اليوم الخامس والثلاثين التالى لعيد ميلاده الخامس والأربعين ، لفظ فاروق أنفاسه .

* * *

بقى بعد ذلك ، أن نعرف أن هذا المطعم الذى شهد آخر لحظات الملك فاروق ، كان اسمه (إيزل فرانس) .. وهو مطعم متواضع فى طريق باريس – أورليان ، وقد استقبله المشرف على المطعم فى ترحيب حار ، وسأله عن صحته ، فقال : « ليست جيدة تماما » . أما صاحبته فى تلك الليلة ، (أنا ماريا جاتى) – فهى سيدة منفصلة عن زوجها ، وأم لطفل فى الخامسة من عمره .

وقد مضت وفاة الملك فاروق فى ذلك اليوم بلا تعليق خاص عليها . فقد كان الملك يشكو من ضغط دم ، ومن اضطراب فى الكبد . ولكن – حينما ثار الحديث حول السموم فى مصر ، وتعاطيها ، وقتل الناس بها ، وحينما كثرت الأقاويل ، والاتهامات ،

والاختلافات ، والمبالغات ، والأكاذيب .. وأصبح جائزا أن يعتبر كل من مات فى السنين الأخيرة ، إنما مات مقتولا بالسم .. انتحارا .. أو غدرا ، فقد نسب إلى كبير فى المخابرات المصرية قوله : « إن السم الذى ورد ذكره فى تحقيقات وفاة المشير عبد الحكيم عامر ، استعملته المخابرات فى أحوال ثلاثة معروفة ، منها قتل الملك فاروق » !! .

ماذا يساوى هذا الكلام ..؟ وماذا كان دور (أنا ماريا جاتى) إذا كان لهذا الكلام نصيب من الصحة ؟

أهو قول مفترى ؟ .. أو هو حقيقة ؟

التاريخ – إلى الآن – لا يعلم .. ولكن متى يعلم .. ؟

الله وحده هو العليم الخبير ..

الفصل الثاني عشر

أزمات صغيرة
ودسائس أصغر

سلمنى سكرتير مكتبى ، بوصفى وزيرا للثقافة والأرشاد القومى ، مظروفا ضخما .. يحمل عنوانا كتب بخط أخضر عريض (رئاسة الجمهورية) . ففضضته ، وأنا لا أتوقع أن اجد بداخله شيئا مثيرا ، أو خطيرا . فما أكثر المظاريف التى يتلقاها الوزراء من (رئاسة الجمهورية) دون أن تتضمن سوى ما يقتضية تصريف شئون الدوله من قرارات ، أو خطابات ، أو اخطارات ، أو تحويل شكاوى للوزير، أو شكلوى ضد الوزير !! ولكن هذا المظروف كان يحمل (قرارا جمهوريا) باحالة الأستاذ صالح الشيتى وكيل دار الأوبرا إلى المعاش . وكان القرار ، بطبيعة الحال ، ممهورا بالامضاء الشهير « جمال عبد الناصر » ، وما كدت افرغ من تلاوته ، والوقوف على فحواه ، حتى مددت يدى إلى القلم الأحمر ، وكتبت عليه بخطى الردىء : (نظر .. ويحفظ) .

ولما كان سكرتيرى « محمد عفيفى » قد لازمنى سنوات قبل الوزارة ، فقد كان منى بمثابة الابن ، ومن هنا ، لم اسمعه يعترض على شىء يصدر منى ، وكان خجولا .. وعصبيا .. تبدو عصبيته فى وجهه ، وفى اهتزاز رأسه فى بعض الأحوال . ولكنى أحسست ، فى تلك اللحظة ، أن (عفيفى) يود أن يمسك بيدى ، ويمنعنى من كتابة ما كتبت . ولكنه منع نفسه . فنظرت اليه متسائلا : « ماذا يا عفيفى ؟ » . فقال الشاب ، وهو لا يكاد يجد العبارة التى يمكن أن يستعملها فى هذا الموقف ، دون أن تجرحنى أو تضايقنى . ثم تعبر عما يجول بخاطره .. فتمتم : « سيادتك » !.

فقلت : « نعم » .

فعاد يتمتم : « قرار من رئيس الجمهورية » ! فقلت بصوت عال ، وكأنى أود أن يسمع الناس كلهم ماذا أقول : « أنا أعرف أنه قرار من رئيس الجمهورية ، ولانه قرار من رئيس الجمهورية ، فأنى أعلق عليه هذا التعليق » ..

وقال سكرتيرى كلاما معناه : « أن هذه التأشيرة ليس لها إلا معنى واحد ، هو أنك تتحدى رئيس الجمهورية » .

فقلت له ، وكأنى أخاطب نفسى : « وما فائدة الناس من دخولى الوزارة ، اذا لم استطيع أن اوقف قرارا جمهوريا ظالما .. كهذا القرار !! » .

وبعد قليل جدا من هذا الكلام .. دق جرس تليفون مكتبي ، فرفعته لاسمع صوت « على صبرى » - مدير مكتب رئيس الجمهورية ، فى ذلك الوقت - يقول بطريقته الهادئة : « لقد جاءك قرار من (الريس) ، فهل أطلعت عليه ؟ » .

فهممت أن اقول له : « قرأته وعلقت عليه بالنظر والحفظ » .. ولكننى رددت نفسى عن هذا القول ، وقلت : « لقد قرأته ، ولكننى لم أفهمه ، وقد كنت على وشك الاتصال بالرئيس لاسأله عن سبب هذا القرار » فقال ، على صبرى : « لقد اقحم هذا الموظف نفسه فى شئون الرئيس الخاصة ، وفى أمر يتعلق بحرم الرئيس ، وهو خطأ لا يجوز أن يصدر من موظف فى هذا المكان » .

وقد يحسن أن ندع جانبا - ولو مؤقتا - هذا الحوار ، لنروى الحكاية من بدايتها .

كان منصب مدير الأوبرا قد خلا بوفاة المرحوم « سليمان نجيب » ، وقد تنافس على هذا المنصب المغرى عدد غير قليل من أهل الفن : موسيقيون ، ورسامون ، واداريون .

ولقد واظب الكاتب توفيق الحكيم ، ومعه صديقه القديم حسين فوزى الذى كان يشغل - آنذاك - منصب وكيل وزارة الثقافة والأرشاد القومى ، على ترشيح وتزكية احد موظفى وزارة التربية والتعليم لهذا المنصب . وكان هذا الأخير تواقا إلى أن يشغله ، فقد كان محبا لجو الأوبرا .. بل كان مستهاماً بهذه الدار ، وبالحركة فيها ، وببريقها الخاطف للابصار ، والمسيل للعاب . وانتهى الأمر بتعيين هذا الموظف فى الأوبرا . وكان فيها عدد من كبار وصغار الموظفين ، استمروا يشغلون وظائفهم فى هذه الدار . ويعرفون مداخل العمل فيها ومخارجه ، حتى أصبحوا لا يطيقون أن يقتحم عليهم « حرمهم المقدس » دخيل أو غريب !!، ولهذا ، انقسم الموظفون فى الدار - بالنسبة لقدوم المدير الجديد - إلى معسكرين . واستطاع هذا المدير أن يعقد صلات جيدة بالعسكريين فى مكتب الرئيس جمال ، فقد واظبوا على الاتصال بى من أجله ، والتوصية عليه . فكنت أظهر لهم نفورا شديدا عند سماع هذه التوصيات ، كراهية منى لهذا الأسلوب الذى يفسد الموظفين ، ويفسد العمل الذى يباشرونه .

وذات يوم -أبدت السيدة حرم الرئيس « عبد الناصر » ، رحمه الله ، رغبة فى أن تشهد شيئا ما فى احدى السهرات بالأوبرا . فاتصل اصدقاء المدير الجديد من العسكريين

فى مكتب الرئيس به ، واطلعوه على هذه الرغبة ، فأخفاها عن جميع الموظفين ليستأثر بهذا الشرف ، وليمنع منافسة وكيل دار الأوبر (الأستاذ صالح الشيتى) من المشاركة فيه ، والمثول بين يدى السيدة حرم رئيس الجمهورية عند تشريفهاـالدار .

وكان نظام العمل فى دار الأوبرا يقضى بأن يكون وكيل الأوبرا هو المسئول عن الأمن فيها — وهو ، بهذه المناسبة ، يحمل مفاتيح مقصورتى رئيس الجمهورية وحرم رئيس الجمهورية ، (وهما المقصورتان اللتان كان يشغلهما قبل الثورة الملك والملكة) ولكن « الأخبار الخطيرة » لا يمكن كتمها ، اذ أن هناك « مسالك » تتسرب منها تلك « الأخبار » ، للمنافسات والخصومات ، وحرص الموظفين على المباهاة بما يصل إلى علمهم من الأسرار مما يرفع قدرهم ، ويظهر للناس خطرهم !! ومن هنا ، فقد عرف وكيل الأوبرا بخبر تشريف حرم الرئيس الأوبرا قبل مجيئها بوقت قليل ، فتحدث بهذا إلى صحفى فى «الأهرام » مشتغل بالفنون ونقدها ، هو (المرحوم عثمان العنتبلى) شاكيا من محاولة تخطيه فى مناسبة هامة تلقى عليه فيها أنظمة العمل مهاما محددة . اذ عليه أن يتأكد من صلاحية المقصورة الخاصة بحرم الرئيس لاستقبالها ، بحيث اذا أصابها مكروه ، أو كانت المقصورة غير لائقة ، حوسب على ذلك ، بل وعوقب ايضا .

والظاهر أن الرجل كان يتكلم من تليفون متصل بخطوط تليفونات الأوبرا . فأمكن التسمع عليه . ونقلت هذه المكالمة إلى المدير الذى نقلها ، بدوره إلى اصدقائه العسكريين فى مكتب الرئيس ، الذين نقلوها إلى الرئيس ذاته ، وحوروها له فى أقبح صورة ، فغلى الدم فى رأسه ، واعتبر أن كرامة السيدة حرمه قد مست ، اذ أقحم اسمها فى مكالمة تليفونية بين موظف وصحفى ، مقرونا بنقد اساليب الرياسة فى الاتصال بالموظفين المختصين . فكان أن أمر الرئيس باعداد « قرار جمهورى » باحالة وكيل الأوبرا إلى المعاش ، وتسلمت القرار ، وعرفت المقدمات التى أدت اليه .. وعرفت أيضا « الدسيسة الصغيرة » التى أقترنت به ، فكان لى رأى مخالف تماما .

ثم ..

نعود إلى الحوار الذى دار بينى وبين « على صبرى » .

قال : « إن الرئيس حر فى شئون زوجته . تتصل فى تنقلاتها بمن تشاء ، وتتحاشى

الاتصال بمن لا تود الاتصال به » .

فقلت له على الفور : « ليس هذا صحيحا . فحرم الرئيس « عبد الناصر » حينما تنتقل من مكان إلى مكان ، تنتقل بوصفها « حرم رئيس الجمهورية » . فإذا كان انتقالها إلى دار رسمية كدار الأوبرا ، لتشغل مكانا رسميا ، كمقصورة رئيس الجمهورية ، وكان لهذه المقصورة أمين يسأل عنها ، ويحمل مفتاحا خاصا بها ، فالواجب الأتصال بهذا الموظف ، لا برئيسه ، أو بهما معا على الأقل . فاذا كنا لا نثق به ، أو لا نطمئن اليه ، ننقله من مكانه ، أو نعزله تماما اذا كان المنسوب اليه يلقى ظلالا على امانته . والمدير الذى أخفى على وكيله نبأ زيارة حرم رئيس الجمهورية لم يفعل ذلك حرصا على راحتها ، بل مكايدة لوكيله ، ومثل هذه الروح لا يجب أن تجد منا تشجيعا » .

فقال على صبرى : « وهل يليق أن يتحدث هذا الوكيل فى التليفون مع صحفى فى شأن زيارة حرم رئيس الجمهورية . وكأنها ارتكبت خطأ ، وأنت تعرف ما يضيفه خيال الناس إلى مثل هذا التصرف اذا ذكروا أن الزيارة ستتم سرا » .

فقلت له : « ومن قال لنا أن هذه المكالمة قد جرت أولا .. ومع هذا الصحفى ثانيا .. وبهذه العبارات ثالثا ؟ » .

فقال على صبرى : « مدير الأوبرا سمعها بأذنه » .

فصحت : « آه .. كيف عرف أنها جرت ، حتى استطاع أن يسمعها » .

فقال : هل نحن سنحقق .. هو قال أنه سمعها .. وهذا يكفى .

فقلت : « انه يكفى تماما .. ولكن ، لطرد هذا المدير ، على الأقل ، من مكانه » .

فقال على صبرى : « هل سنقلب الوضع ؟ » .

فقلت له : « بل أنى ساصححه .. هذا الموظف الذى يجترىء على القول بأنه تسمع مكالمات مرءوسيه ، وبدون جريمة ترتكب ، يسجل على نفسه خطأ صريحا لا يجوز أن نغمض العين عنه » . وإلى هنا .. وكان صبر ، على صبرى قد نفد . فقال : « والخلاصة .. ماذا أقول للرئيس ؟ » . فأجبته : « لا تقل له شيئا » .

فصرخ : « كيف لا أقول له شيئا . وقد اصدر قرارا جمهوريا ؟ » .

فقلت له بهدوء : « قل له أن هذه المسألة أصلا من اختصاصى أنا ، وكان يجب أن يترك لى أمر التصرف فيها كيفما اشاء ، ومراعيا كل الاعتبارات ، بما فيها رغبة السيدة حرم الرئيس . ثانيا ، اؤكد لك أن كل ما نقل إلى الرئيس لم يكن على الأقل دقيقا . وثالثا ، فليعلم الرئيس أن حرص وكيل الأوبرا على أن يكون فى شرف استقبال حرمه مصدره حبه للرئيس نفسه ، وهو شعور لا يجوز أن يقابل بطرد صاحبه من وظيفته » .

فقال على صبرى متسائلا : « والنتيجة ؟ » .

فقلت : « والنتيجة أننى لن انفذ قرار رئيس الجمهورية ، وأنا مستعد أن ارده اليكم ، وكأنه لم يصدر » .

فقال : « وهل ابلغ ذلك للرئيس ؟ » .

فقلت : « افعل ما تشاء » .. وبعد قليل ، قلت له : « ولم لا ؟ .. قل له ذلك » .

أذكر أن ذلك كله كان قد جرى فى يوم من أيام شهر رمضان ، وكنت مدعوا إلى تناول الإفطار ، فى نادى بنك مصر تكريما لرئيس محكمة استئناف القاهرة بمناسبة بلوغة سن المعاش ، أى انتهاء خدمته .

وفيما أنا اتناول طعام الأفطار . جاء من اخبرنى أن السيد زكريا محيى الدين على التليفون . فذهبت وأنا مطمئن إلى أن هذه المكالمة بشأن « حادث الأوبرا » . وصدق حدسى . فقد قال لى (زكريا) : « ما الذى فعلته .. هل صحيح أنك قلت (لعلى صبرى) أنك لن تنفذ قرار الريس ؟ » .

فقلت له : « لقد قلت ذلك بعد مقدمة طويلة ، كان لابد أن يسمعها الرئيس لكيلا يقوم فى اعتقاده أنها مسألة رفض لقراره .. لمجرد الرفض » .

فقال : « انه عرف بعضها منها . فما هى المقدمة ؟ » فأعدتها عليه . فقال : « وما المخرج من هذا المأزق ؟ » . قلت : « سأنتدب وكيل الأوبرا لمكان أخر ، وسأنتدب فى نفس الوقت مدير الأوبرا خارج الأوبرا » . فأبدى (زكريا) رغبته فى أن ادع المدير فى مكانه .

فقلت له : « لا .. لا يمكن .. » . فقال (زكريا) وهو يضحك : « طيب .. ربنا يسهل » .

وتم ذلك .. ولم ينفذ قرار احالة وكيل الأوبرا إلى المعاش . وبقى فى عمله .

..ولكن هذه الأزمة — أو « الدسيسة الصغيرة » — لم تكد تنتهى حتى بدأنا فى أزمة أخرى أو « دسيسة » أصغر منها .

فقد اتصل بى يوما مدير الأذاعة ، واخبرنى بأن فى مكتبه ضابطا كبيرا من ضباط الطيران ، جاء موفدا من مكتب السيد الرئيس ليتسلم الأدارة الهندسية بالأذاعة . والأدارة الهندسية بالأذاعة ، هى عصب العمل الأذاعى ، وبقدر كفاية العاملين فيها ، وحسن ادراكهم لواجباتهم ، ومتابعتهم للجديد فى حقل عملهم ، تكون الأذاعة مؤثرة وناجحة . اذ ما النفع من خطاب سياسى جيد ، لا يسمع إلا فى نطاق ضيق ، أو لا يسمع إلا مخلوطاًوممزوجا بالطفيليات الصوتية . ولم تكن العلاقة بين مدير الأذاعة ، وبين كبير مهندسيها حسنة دائما ، لذلك ما كدت اسمع الخبر ، حتى شممت — كما يقول الأنجليز — (رائحة فأر ميت) ، فقلت للمدير : « عجبا ، كيف يتولى ضابط طيار ، أو أى انسان آخر ، هندسة الأذاعة ، ومدير هذا القسم لم يعزل بعد ، وهو بحمد الله حى يرزق ؟! » . فقال : « والله ما على الرسول إلا البلاغ .. » . فقلت : « ارسله الى فورا » . فقال : « يعنى لا اسلمه المكتب » . فقلت بشىء من العصبية : « أى مكتب الذى تسأل عنه .. أنت رجل قانون ، فكيف يتولى شخصان ادارةعمل واحد ؟! ارسله الى ولا تشغل بالك » .

وبعد قليل كان فى مكتبى ضابط فى سلاح الطيرن برتبة لواء أو عميد ، تبينت من الحديث أنه حسن الأطلاع على اللغة الأنجليزية ، بل انه يتقنها . وقد دس فى حديثه معى اسماء من كبار الشخصيات البريطانية السياسية منها « مستر ايدن » وزير الخارجية ، باعتبارهم من معارفة أو اصدقائه . ولم أفهم ، أول الأمر ، ما الحكاية ؟! .

وقد ظننت ، بادىء ذى بدء ، أن هذا الحديث « المتوبل » بالانجليزية حينا ، وبالاشارات الكثيرة إلى شخصيات ذات شأن على المسرح الدولى ، انما يراد به التأثير على معنويتى . ولكنى عرفت ، فيما بعد ، إن هذا هو أسلوب هذا الضابط الزائر ، ولا شأن له بالمناسبة التى جاء من أجلها .

ثم سألته : « ما الموضوع بالضبط ؟ » .. فقال انه تلقى امرا مباشرا من السيد « على صبرى » .. مؤداه ان اذهب إلى الأذاعة ، واتولى الشئون الهندسية فيها ، بناء على رغبة السيد رئيس الجمهورية . فقد كان فى استراحة برج العرب الواقعة فى غرب الأسكندرية ، فلاحظ أن بعض الأذاعات المصرية الموجهة إلى الخارج ، والمذاعة على الموجات القصيرة ، يصيبها ما يسمى بالانجليزية (Fading) ، أى (تضاؤل) .. أو (تناقص) ، بحيث يأتى وقت ، لا تسمع فيه مطلقا . فضايقه ذلك ، اذ أن مصر تعلق أهمية كبيرة على هذه الأذاعات ، فاذا كانت لا تسمع جيدا داخل مصر ، كان معنى ذلك أن ما ينفق على هذه الأذاعات من الجهد والمال ضائع تماما . وقد رؤى أن يعهد إلى المختصين فى اللاسلكى بسلاح الطيران لمعالجة ذلك .

فقلت له : « ولكن .. هل معنى ذلك أن تتولى ادارة الهندسة الأذاعية ؟ » . فقال مبديا بعض الدهشة : « اذن ماذا يكون معناه ؟ » . قلت : « معناه ، أن سيادتك فى مكتبك بسلاح الطيران ، تطلب من تشاء من الفنيين بالأذاعة ، وما تشاء من المعلومات ، فاذا تبينت أن هناك تقصيرا من الأشخاص اطلعتنا عليه لمعالجته . وإن كان ثمة عيب فى الأجهزة اصلحناه ، واذا كان الأمر مرده ظاهرة طبيعية لا علاج لها ، قررت ذلك » .

فقال : « ولكن أنا لم اذهب إلى الأذاعة من تلقاء نفسى ، ولم اطلب تولى ادارتها الهندسية وانما أنا أمرت بذلك » .

فقلت له : « دع سيادتك ما طلب منك ، فقد كان ما طلب منك خطأ صريح . ونحن الان فى أشد الحاجة إلى معونتك ، ونشكرك عليها مقدما » .

فعاد يقول : « ولكن هل هؤلاء الذين ارسلونى إلى الأذاعة ، لم يكونوا يعرفون ما هو الصحيح وما هو الخطأ . لماذا يضعوننى فى هذا الموضع الحرج ؟ » .

قلت : « انهم لم يضعوك فى أى موضع حرج ، فقد احسنوا الظن بكفايتك الفنية ، وأرادوا أن ينفعوا الأذاعة بها ، ونحن مثلهم نرحب بهذه الكفاية . فأنت قد وضعت فى أحسن وضع . خبير من طراز ممتاز ، رشحك مدير مكتب الرئيس للوزير المختص الذى يرحب بك . فما هو الحرج ؟ » .

فقال الضابط الطيار : « اذن اعود ادراجي من حيث جئت » .

فقلت مسرعا : « بل بالعكس تبقى معنا ، وأنا مستعد أن اهيىء لك مكتبا بجوارى تباشر فيه دراستك ، وتأتى اليك فيه المعلومات والخرائط ، والتقارير وكل ما تطلبه » .

فعاد يسأل : « هنا .. فى الوزارة؟ » .. فقلت بحسم : « نعم هنا ، وبعيدا عن الأذاعة ، ولكنا سنضع تحت أمرك كل ما يلزم لاداء مهمتك . وسنحتاج بطبيعة الحال إلى خطاب من مكتب رئيس الجمهورية ليحدد لنا المطلوب ، مذكورا فيه اسم سيادتك صراحة » .

وهنا .. بدا على « الضيف » فتور شديد . وقال : « لا .. لا .. لا خطاب ولا حاجه .. أنا سأعود إلى مكانى .. وليبعثوا اليكم بغيرى ان شاءوا » .

فقلت : « لا .. لا .. نحن مصممون على الانتفاع بعلمك وخبرتك . وحينما يصلنى خطاب الرياسة سأكون سعيدا باستقبالك فى مكتبى ثانية .. » .

وانصرف الرجل ، وبعد نصف ساعة سألنى مدير الأذاعة : « ما الذى انتهى اليه أمر القائد الطيار ؟ » فقلت له : « انصرف فى انتظار خطاب يأتينا من الرياسة .. ولا أظن اننا سنلقى خطابا من هذا القبيل » .

وتحقق ما ظننت .. وانتهت هذه الحكاية تماما .

أما « الدسيسة الثالثة » .. فقد كانت ، فى حقيقتها ، (فقاعة) — ولكنها ما لبثت أن كبرت ، وتضخمت ، حتى بدت « أزمة دستورية » ، شغلت الصحف ، والهمت الأقلام ، أو الهبتها ، وكانت حديث الناس زمنا ، فى وقت افتقد فيه قراء الصحف الحملات الصحفية الحادة ، التى كانت تجدد حياتهم ، وتبعث الدم حارا فى عروقهم .. وجملة القول فى هذه (الفقاعة) ونشأتها ، أن اثنين من المشتغلين بالصحافة والنشر والأذاعة ، كانت تربطنى بهما علاقة قديمة ، بدا لهما أن يخرجا لهما مجلة ، وأن ينشرا فيها برامج الأذاعة كاملة نقلا عن هيئة الأذاعة ، وسبقا لمجلتها ، وليقضيا على هذه المجلة ، التى كانت البرامج الأذاعية أهم عناصر ما تكتبه وتنشره على الناس . ولم يكن فى هذه المحاولة من بأس لولا أنه كان للدولة — لا فى مصر وحدها ، بل فى مصر وبريطانيا —رأى مستقر يجعل من برامج الأذاعة الكاملة التفصيلية وقفا ، أو حكرا ، « لمجلة الأذاعة » التى تنشرها عن هيئة الأذاعة انتفاعا بدخل

المجلة فى تحسين موضوعاتها ، ومادتها فى اذاعة الثقافة .

وقد قضت الصدفة ، أن يكون لى قبل ذلك دور فى هذا الموضوع ، قبل أن اتولى أمر الأذاعة بتولى وزارة الثقافة والأشاد القومى . فقد لجأ الى احد العاملين فى حقل الصحافة لاعينه على الحصول على برامج اذاعة مصر لانه بسبيل اصدار مجلة تنشر جميع برامج الأذاعة التى توجه اذاعاتها إلى الشرق العربى . وقد تيسر له ، بدون عناء ، الحصول على جميع هذه البرامج . فلما جاء دور الأذاعة المصرية وبرامجها ، اصطدم بأن هناك أمرا صادرا من « الحاكم العسكرى » يمنع نشر برامج اذاعة مصر الا فى مجلتها . فقال لى : « هل يعقل أن أصدر مجلة تنشر جميع برامج الأذاعات العربية والأجنبية التى تعمل فى الشرق العربى ، ولا أنشر برنامج الأذاعة الأولى فى المنطقة ، وهى اذاعة بلدى التى انتمى اليها واعمل لها ؟ » .

فكلمت فى هذا الشأن الرئيس « عبد الناصر » . فقال أن هذا « الأمر العسكرى » صدر بناء على طلب وزير الأرشاد القومى « صلاح سالم » الذى قال أن المجلة فى حاجة إلى دعم لتحسن مستواها بما تحصل عليه من ايراد التوزيع . ثم كلمت المرحوم « صلاح سالم » واقترحت عليه أن يعدل « الأمر العسكرى » بحيث يكون نشر برامج الإذاعة المصرية ممكنا بعد نشرها فى مجلة هيئة الإذاعة المصرية بيومين مثلا ، ولكن صلاح سالم رفض هذا الاقتراح . وقال أن مراقبة تنفيذ الأمر على هذا الوجه ، لن تكون بالأمر الهين . فى حين أن المنع البات يحسم الأمور . وانتهت المسألة عند هذا الحد .

فلما تجددت المحاولة . لم تكن مجرد رغبة فى نشر برامج الأذاعة المصرية كما كان القصد فى المحاولة السابقة ، بل كانت مكايدة صريحة « لمجلة الأذاعة » التى أشرف عليها . وكانت ادارة هذه « المجلة » قد الحقت باختصاص الوزير فى عهد المرحوم « صلاح سالم » . وكانت دوائر الأذاعة غاضبة لسلخ المجلة من سلطتها .. ومن هنا وجدت هذه المحاولة الجديدة كل تشجيع من موظفى الأذاعة . وفى هذه الفترة ، أو بعدها بقليل ، قدم لى « الأستاذ فؤاد دواره » كتابا يتناول بالدراسة الفنية والتحليلية الأذاعة البريطانية وتاريخا ، وتأثيرها ، إلى اخر ما يتصل بها . واطلعنى على فصل طريف ، يروى كيف أن الحكومة البريطانية اتفقت مع رؤساء تحرير الصحف فى بريطانيا على أن يتركوا لمجلة « إلمستمع – لسنر » التى تصدرها هيئة الأذاعة البريطانية ما تذيعه هذه الهيئة من دراسات ادبية وتاريخية . وقد قبلوا ذلك

متصورين أن هذه المجلة لن تروج ، وأن الأقبال على مطالعة البرامج الثقافية لن يكون عظيما . لكنهم فوجئوا بنجاح المجلة ، وبتزايد المبيع منها شهرا بعد شهر . فأسفوا على هذه الموافقة التى صدرت منهم على عجل . فلما دعاهم « مستر تشرشل » – وهو على رأس الوزارة البريطانية – وعرض عليهم أن يتركوا لمجلة الأذاعة البريطانية نشر برامجها التفصيلية وأن يكتفوا بنشر رؤوس الموضوعات فى الصحف اليومية ، رفضوا هذا الطلب ، ولكنه صمم عليه ، واستطاع بقوة شخصيته أن يقنعهم بقبوله . وعندها زال كل تردد من جانبى فى أن اصدر تشريعا يحدد علاقة الأذاعة بالمتحدثين والمحاضرين والفنانين . وينظم ، بالتالى ، حق نشر هذه البرامج مع مجلة الأذاعة بحيث يضمن لها السبق ، ويبقى على احتكارها لنشر البرامج المفصلة .

وتلقف خصومى هذا المشروع بفرحة شديدة ، فقد اعتبروه خروجا على الدستور ، ومساسا بحقوق الصحفيين ، وتحديا لحرية الرأى . وافردت لهذا الموضوع المقالات الطويلة والعريضة ، ولا أنسى أن واحدا منها كان بقلم المرحوم « سامى داوود » الذى اختار لمقاله عنوانا طريفا هو « دستورك ياوزير الأرشاد » .

واتصل بى عدد من الصحفيين الذين كانو يريدون أن يفهموا الموضوع ، فاستولت عليهم الدهشة حينما علموا أن التشريع الذى اقترحته ، ليس تشريعا جديدا ، بل أنه تشريع قائم فعلا ، ولكن بدلا من أن يستعان ، فى هذا التشريع، بالاداة الطبيعية – وهى القانون – استعين بالادارة الاستثنائية وهى « الأمر العسكرى » الذى يستند إلى الحكم العرفى ، وأن هذا الأمر العسكرى صادر من الرئيس « عبد الناصر » من سنين ، وكان قائما إلى أيام مضت . ولم يجرؤ احد من الصحفيين الذين يصرخون الأن أن يشير اليه بحرف حتى بعد الغاء الأحكام العرفية .

ثم رويت لهم ما حدث فى بريطانيا ، الموصوفة عندهم بأنها اعرق الدول الدستورية ، فعقب احدهم على كل هذا : « نقبل أن تكون الأذاعة كلها حكرا للدولة ، ونغضب من احتكار الدولة لنشر براغ هذه الأذاعة نفسها .. هذا عبث !! » .

ولكن الحملة الصحفية استمرت .. فلما عرض القانون ، أو مشروع القانون على مجلس الوزراء . قال لى « عبد الناصر » : « الن تسحب هذا المشروع ؟ » . فقلت : « لا » . فقال : « وما ضرورته ؟ » . فأجبت : « ضرورته سيادتك اقتنعت بها ، حين اصدرت بها

امرا عسكريا » . فقال : « ولكن الأحكام العرفية الغيت » – وكانت قد الغيت لفترة قصيرة – فقلت له : « الذى تغير هو اداة التشريع ، انما بعض التشريعات العسكرية تحقق للدولة مصالح مدنية ، فلا تلغى بالغاء الأحكام العرفية » . قال : « ولكن من مصلحتنا أن تنشر براج الأذاعة المصرية » .. قلت له : « ولكن سيادتك رفضت هذه الحجة من شهرين فقط . وقد كنت تدافع عن المبدأ من حيث هو » . فقال : « وما الحاجة إلى تشريع والبراج ملك الإذاعة ، وموظفو الإذاعة يتبعونك ، ولك أن تأمرهم بعدم إعطاء البراج لغير المجلة » . فأجبته : « أن قانون الموظفين ملىء بالتعليمات . والقيود والتوجيهات التى كان يمكن ان يكتفى فيها بالاوامر الأدارية ، ولكن اضفاء (صفة القانون) على بعض الأوامر الادارية ، تقتضيه المصلحة العامة ، احيانا ، حتى لا تخضع هذه التوجيهات الادارية للتقلبات بتقلب الوزارء . وقد تتسرب البراج ، وتضيع المسئولية بين عشرات الموظفين » .

أجل البحث فى هذا المشروع من جلسة إلى جلسة ، حتى سحبت الأذاعة نفسها منى . والطريف أن « المجلة » التى كانت تنوى نشر هذه البراج ، لم تصدر .. ولم تر النور قط . وعادت الأحكام العرفية ، واستمر « قرار الحاكم العسكرى » الخاص بمنع نشر براج الأذاعة فى غير مجلة الأذاعة قائما ..

والطريف كذلك أن احد الوزراء قال فى جلسة من الجلسات أن هذا القانون ينطوى على مساس بحرية النشر ، فقلت له : « وهل حرية النشر قائمة فى كل جانب من جوانب حياتنا ما عدا نشر البراج الأذاعية؟ » . فضج الوزراء بالضحك ، وخجل الوزير ، وانتقلنا إلى شىء أخر !.

* * *

وحينما انتهت الحملة الصحفية ، وانتقلت هيئة الأذاعة إلى رئاسة الجمهورية ، قابلت بعض الصحفيين الذين اشتركوا فى الهجوم على مشروع ذلك القانون الذى كنت قد تقدمت به ، فسألتهم : « لماذا لا تطالبون ، الان ، بأباحة نشر براج الأذاعة ؟ » .. فقالوا ضاحكين : « وهل نجرؤ . لقد طلب منا أن نهاجم .. وطلب منا أن نكف عن الهجوم .. فأطعنا فى الأولى ، كما أطعنا فى الثانية » .

الفصل الثالث عشر

من يحاكم الوزراء أيام عبد الناصر؟

عندما قامت ثورة سنة ١٩٥٢ ، كنت معتقلا فى معتقل « الهاكستب » ، الذى كسب شهرة واسعة قبل ذلك التاريخ .. لأنه ضم الأخوان المسلمين ، والشيوعيين ، والوطنيين ، وقد كان هذا « المعتقل » ، اصلا ، مخازن للجيش الأمريكى خلال الحرب العالمية الثانية . فلما انتهت الحرب ، مضى الجنود الأمريكيون إلى بلادهم ، وسلمت هذه المخازن بما فيها للحكومة المصرية ، وبدأ النشاط السياسى يستعيد وجوده بعد أن وضعت الحرب اوزارها ، وخفضت القيود العسكرية ، ثم رفعت لفترة ، فاحتاجت الحكومات المتعاقبة — سواء كان حكومة اغلبية يؤيدها الشعب ، أو حكومة اقلية يؤيدها الملك — احتاجت إلى معسكرات اعتقال ، تزف اليها الخصوم والمخالفون زمرا .

وقد كان زملائى فى المعتقل ، ممن نسب اليهم شيء يتصل بحريق القاهرة إلا أنا . وقد احتاج زملائى فى خارج المعتقل ، إلى رفع دعاوى متكررة امام مجلس الدولة .. طعنا فى امر اعتقالى الباطل ، والذى كانت تعوذه مبررات الواقع ، ومبررات القانون . والاجراءات القانونية فى مصر تقتضى أن من يطعن فى قرار ادارى ، ويلتمس من المحكمة الحكم بالغائه ، ان يرافق دعوى الالغاء ، دعوى تعويض . ومن هنا كان الزملاء المحامون مضطرين أن يطلبوا الحكم لى بتعويض رمزى ، ولكن الدعوة كانت من اصلها إلى فرعها .. تستهدف فك قيودى ، واطلاق سراحى .

ولم يكن يرد على الخاطر ان نتخذ من هذه الدعوى سبيلا إلى كسب قرش واحد من مال الحكومة . ولما اخترت للوزارة — بعد قيام الثورة — بقيت القضية مرفوعة ، ومتداولة فى الجلسات . وكانت لى قضية اخرى امام محكمة الجنايات .. اذ اتهمت — قبيل الثورة — بالعيب فى الملك . وساقونى إلى محكمة الجنايات . وقد قلت فى التحقيق الذى اجرى معى ، اننى لم اقصد العيب فى الملك ، وانما قصدت نقد ما يجرى عليه الحكم من فساد ، وهذا مطلق حقى وحق كل مواطن آخر .

وجاء موعد نظر هذه القضية ، وأنا فى دست الوزارة ، وتلقيت اعلانا بتاريخ الجلسة ، فلم اخبر احدا من موظفى مكتبى بذلك . واخذت سيارتى الخاصة ، وذهبت بها إلى المحكمة وليس معى احد — حتى ولا محام — ولما انعقدت المحكمة ، جلست فى آخر صفوف الجمهور .. حتى اذا ما نودى على ، وقفت وترافعت عن نفسى مكررا نفس الدفاع الذى

قلته فى التحقيق ، قبيل الثورة ، والملك متربع على عرشه . وكان الأستاذ جمال العطيفى ، وزير الثقافة والأعلام الحالى ، ممثلا للنيابة ، فرآنى التزم بالدفاع القديم ، ولا أزيد عليه ، فتولته الدهشة ، كما بدا على المحكمة الأستغراب . فقد حسب الجميع أننى سأنتهز فرصة سقوط الملك وانهال عليه طعنا ، وابرر قيام الثورة ، ولكنى رفضت ، وقلت للمحكمة : « ليس لنا دفاع فى ظرف ، ودفاع يناقضه فى ظرف اخر » .

وسمع الناس بما جرى فى محكمة الجنايات . ولكن فى بطء ، اذ لم أحرص ، من ناحيتى ، على اذاعته ، ولم الفت نظر الصحف لنشره . وفى هذه الفترة سلمنى « عبد الناصر » تقريرا من المخابرات ، كان أولى حلقات الدسائس الصغيرة التى سلطها ضدى عدد من الذين ضاقوا بمكانى من قائد الثورة . فقد ظن بعض قادة الأحزاب القديمة أنه لولاى لما اتجهت الثورة إلى حل احزابهم ، باعتبار أن الثورة اعلنت فى أول بيان لها انها تريد أن تقيم فى البلاد حكما دستوريا نظيفا ، وانه لا دستور بغير احزاب ، وأن الأحزاب بعد أن ابدت استعدادها لتطرد من صفوفها الفاسدين والمفسدين ، انعدم مبرر حكم الموت عليها ، وقد انضم إلى هؤلاء عدد من العسكريين الذين نفسوا على أن اكون – دونهم – مستشار قائد الثورة فى بعض شئون الحكم ، وهو مكان لا يجب أن يصل اليه ، فى رأيهم ، إلا واحد منهم .. وآخرون لا أعلمهم .. الله يعلمهم .

وقد اتهمنى كاتب هذا التقرير أنى طامع فى مال الدولة ، مع أنى أحد وزرائها ، « بدلالة أنى ر فعت دعوى ضدها أمام مجلس الدولة طلبت فيه الحكم لى بتعويض » !! وانتظرت حتى انتهت جلسة مجلس الوزراء ، واقتربت من « عبد الناصر » ، – وقد درس القانون فى كلية الحقوق سنة أو سنتين – فقلت له : « ماذا تريد منى أن افعل بهذه الورقة ؟ » . قال : « هل صحيح أن هناك دعوى من هذا القبيل ؟ » .. فقلت : « انها دعوى مرفوعة قبل الثورة ، وضد حكومة عزلتم انتم رئيسها ووزراءها ، واعتقلتم بعضهم .. وكان لابد لى – لكى ارفع دعوى الغاء قرار الاعتقال – ان يصحبها طلب التعويض » . فأجاب عبد الناصر : « ولكن كل شيء انتهى ، وأنت الان مطلق السراح ، فلماذا يستمر طلب التعويض ؟ » . فضقت ذرعا بهذا الذى بدا لى فقلت له : « وهل تعرف ما هو التعويض المطلوب ؟ » فقال : « تعويض على كل حال .. » فصرخت : « انه قرش صاغ واحد » ، وهنا ، بدا على « عبد الناصر » شيء من الارتباك ، وقال : « ولماذا تجعل لمثل هذا الأمر كل

هذه الأهمية ، مادام التعويض بهذه التفاهة ؟ » فقلت : « الأمر يهمنى من حيث المبدأ ، هل يجوز أن تكتب ورقة كهذه ، يريد أن يظهر بها كاتبها انه ضبط لى سقطة ، وانه حريص على المال العام أكثر من حرصى أنا عليه ، وانه رقيب على يهدينى إلى الصواب .. مثل هذا لا يقبله إلا رجل احساسه بالشرف معدوم ، وأنا لن اتنازل عن الدعوى ، ولن التفت إلى هذا الأسلوب فى الدس الصغير ، وارجوك أن تضع له حدا من الآن ، وإلا فإنه سيستفحل وتهب من ورائه رياح خطرة » .

ولم يهتز « عبد الناصر » لهذه الخطبة الحارة ، وإنما هز كتفيه وقال : « لست معك ، إن الموضوع صغير جدا ، وأرى انه لا مبرر لتضخيمه » .

• ... وتحققت توقعاتى

وما توقعته ، تحقق تماما . فقد نقلت إلى وزارة المواصلات ، وكان يزعجنى ما كنت اقرأه فى الصحف جهارا نهارا ، وبلا احتشام ، من اعلانات عن تجارة فى التليفونات ، والنزول عنها ، وكأن البلد لا قانون فيه ولا نظام .

لم أر بدا من أن اضع قواعد جديدة لتركيب التليفونات ، وبدأت هذه القواعد باهدار جميع الطلبات المقدمة قبل تاريخ اسناد الوزارة الى ، على أن يقوم الراغبون فى تركيب تليفون أن يتقدموا بطلبات جديدة ، على إلا يسلموها إلى احد فى مصلحة التليفونات بل يرسلون — بها إلى المصلحة بخطابات مسجلة مصحوبة بايصال مرتجع ، وأمرت بإعداد دفاتر جديدة مختومة كل صفحة فيها بخاتم الدولة ، وموقع عليها من مدير المصلحة أو من ينيبه ، وقررت أن يلتزم الدور المطلق فى التركيب بلا أى استثناء ، وحرمت نفسى — بوصفى وزيرا للمواصلات — من الحق فى أى استثناء بالغة ما بلغت ظروف الاستثناء ، وجعلت تركيب التليفون ، بصفة استثنائية ، لا يكون إلا بناء على طلب الوزير المختص بالمجال الذى يشرف عليه ، مبينا به اعتبارات المصلحة العامة . وادركت أن الوزراء سيحجمون عن استعمال هذا الحق لأنه سيستحيل عليهم مجاملة الأصدقاء . اذ لن يكون فى وسع وزير الصحة أن يوصو إلا على طبيب ، اذ لا حق له فى التوصية على غير الأطباء ، ولن يقبل منه أن يبرر تخطى الأطباء الآخرين إلا بكلام مقنع ، ويدعو إلى الأحترام .

ولم أكن ادرى اننى وضعت يدى – كما يقولون – فى عش « الزنابير » واننى أهجتها ، وكان أول من ثار ضد قراراتى ، مدير عام مصلحة التليفونات نفتنه ، فقد كان من أكبر مظاهر سلطته أن يتقدم اليه ، فى الحفلات العائلية ، الأصدقاء والأقارب وأصدقاؤهم واصحاب المصالح ، برجاء تركيب تليفون ، فلا يكلفه ذلك إلا أن يضع « امضاءه الكريم » فى ذيل طلب صغير فى ورقة صغيرة ، فاذا « بالأمر الساحر » يفعل فعله ، واذا بصاحب الطلب يبيت قرير العين .. وربما ملىء الجيب ايضا !!.

وعلى الرغم من اننى حققت لمدير عام المصلحة – رحمه الله – رجاء كان يسعى اليه ، وهو رفع درجته إلى وكيل وزارة ، فانه لم يستطع أن يغفر لى حرمانه من سلطة « من أغلى سلطاته » . وقد كان يظن أننى سأتشدد لبعض الوقت ، ثم يسترخى النظام الذى وضعته ، لكنه ادرك أن وهمه بلا أساس . فقد اقنع لجنة التليفونات بتركيب آلتى تليفون لوزير سابق فى غير دوره ، وكان هذا الوزير قد زارنى فى الوزارة ، وزعم أن « الرياسة » توصى على هذين الطلبين ، فراع المدير أننى الغيت قرار اللجنة ، ولم أحفل بما قيل من أن « الرياسة » توصى عليهما .

* * *

وفى مساء اليوم الذى الغيت فيه قرار اللجنة لصالح الوزير الزميل ، انعقد مجلس الوزراء ، فسألت المرحوم جمال سالم : « هل اوصيت على طلب فلان ؟ » .. وكعادته .. صرخ صراخا عاليا ، وسب الوزير وقال : « هل اقطع شعر رأسى .. التى لا شعر فيها ؟ » .

ودخل ، فى هذه اللحظة ، جمال عبد الناصر ، فسأل عن سبب صراخ جمال سالم ، فقال له بأعلى الصوت : « هل وصيت على طلب تليفون للدكتور فلان ؟ » . فلم يرد عبد الناصر على سؤاله ، ومضى إلى مكانه على رأس طاولة الأجتماع وقال : « يا أخوانى بمناسبة سؤال جمال ، ارجو أن تعلموا اننى لا يمكن أن اوصى احدا غيركم .. فاذا سمعتم انى اتصلت بمدير مصلحة ، أو وكيل وزارة ، ليجرى شيئا من اجل قريب أو صديق ، فلا تصدقوا ، وتمتعوا بحريتكم إلى أقصى الحدود . أنا اتصل بكم وأكلمكم .. ولا أظن أن احدا منكم يذكر اننى طلبت منه شيئا استثناء من القواعد أو اتباعا لها .. واذا كنت فعلت ذلك .. فذكرونى ارجوكم » .

وسمعت دوائر وزارة المواصلات بما جرى بشأن طلب الوزير السابق ، وادركوا أن « التعويذة السحرية » : – أوامر الرياسة ، وطلبات الرياسة ، وتوصيات الرياسة – ليس لها سوق فى وزارة المواصلات . فاستقامت الأمور .

ولست انسى يوما اتصل بى فيه استاذى المرحوم حلمى بهجت بدوى ، الذى كنت احبه ، واحترمه ، وأعجب به ، ورجانى من اجل تليفون لطبيبه الذى يعالجه .. وقد كنت ارجو أن اجيب هذا الطلب تعبيرا عن المودة والأعزاز اللذين احملهما له . ولكنى غالبت نفسى ، وأنا أكاد أئن . كذلك ، حدثنى الدكتور القيسونى ، وزير المالية آنذاك ، فى شأن طلب لخاله الدكتور غنايم كبير أطباء السجون ، فقلت له : « اننى لا استطيع أن أستثنيه ، هذا من حق وزير الصحة » . وكبر على الدكتور القيسونى أن يرجو وزير الصحة ، وعلق على ذلك بقوله : « أنت خليت رقبتنا زى السمسمة » !!.

كما طلب منى المرحوم « عبد الحكيم عامر » أن آمر بتركيب تليفون لأحد ضباط حرسه ، وكان تابعا لوحدة فى وزارة الداخلية تسمى (حرس الوزراء) . وجاءنى الضابط ، وفى ظنه أنه مادام « عبد الحكيم عامر » ، وزير الحربية وعضو مجلس قيادة الثورة ،قد أوصى عليه .. فمن حقه أن يدخل إلى مكتب وزير مدنى وهو منتفخ الأوداج ، فرفضت أن اقابله .. وحولت طلبه – حسب القواعد الجديدة – لزكريا محيى الدين وزير الداخلية ، الذى ارسل الى يقول : « لا تركبوا له تليفونا ، لأننا سنضع لرجال الشرطة نظاما خاصا بشأن طلبات التليفون » .

وبلغ الأمر لعبد الحكيم . فلما قابلنى قال : « ما هذا يا أخ فتحى ؟ ألا استطيع أن اركب تليفونا لحارسى » . فقلت له : « كلم فى ذلك زكريا » . فتولته الدهشة ، وقال : « وما شأن زكريا ؟! » ومضى غاضبا !!.

● ... وتعكرت المياه !

وهكذا تهيأ الجو ، وتعكرت المياه للاصطياد فيها ، فاذا بتليفون مكتبى بوزارة المواصلات يدق ، وما كدت ارفع السماعة ، حتى سمعت صراخا عنيفا إلى الحد الذى خشيت منه على السماعة أن تتمزق . وكان مصدر الصراخ هو المرحوم جمال سالم الذى لم أفهم منه شيئا ، إلا أنه فى أعلى درجات الغضب !!.

وبعد جهد .. فهمت أن ما نشر عن قواعد تركيب التليفونات يتضمن مساسا به ، واتهاما له بعدم الكفاءة ، أو بعدم الأمانة ، باعتبار انه كان « الوزير السابق » على مباشرة . واضاف جمال سالم كلاما معناه « اننى اتعقب تصرفاته فى الوزارة قبل مجيئى تصيدا لأخطاء وقع فيها تثبت خراب ذمته » . وادركت فى الحال ، أن فى الأمر دسيسة محكمة ، فقلت له على الفور : « هل استطيع أن ارد عليك بعد قليل فان لدى ضيوفا ولست قادرا على التحدث معك فى حضورهم » . فهدأ قليلا ، وقال : « حسنا أنا فى الانتظار » .

وتعمدت ألا أرد عليه حتى يهدأ ، ولكنه لم يطق الأنتظار ، فعاود الاتصال بى ، فقلت له : « الضيوف لا يزالون عندى . فهل لديك مانع أن أمر عليك غدا فى مكتبك » .. وبدا لى أن أكثر من نصف غضبه قد زال ، ولم يكن ذلك بالشيء المستغرب عندى .. فأنى كنت أعرف جمال سالم جيدا .. اعرف طيبة نفسه ، وشدة غضبه ، وسرعة صفحه .

وفى اليوم التالى ، قصدت مكتبه .. فوجدت رجلا أخر تماما . فقد كان صافى المزاج .. مجاملا وودودا . وتحدثنا طويلا فى أمور مختلفة ، حتى كدت اتصور أننى لو انصرفت قبل أن افتح حديث الأمس لما استوقفه هذا . ولكنى رأيت ألا يبقى الموضوع معلقا ، فسألته عن سبب غضبه ، فعاودته حدة الطبع قليلا ، وقال : « كيف تنشر انك تضع قواعد لتركيب التليفونات منعا للفوضى . كأن هذا الأمر قد غاب عنى ؟ » فقلت له — وكنت صادقا — « الواقع أننى لاحظت أن القواعد التى وضعتها وأنت فى الوزارة أهملت ، فأنا أعدت نشرها ، وهذه هى القواعد الجديدة .. أليست هى قواعدك ؟ » فقرأها بسرعة وقال : « بالضبط .. » قلت : « ما الشكوى اذن ؟ » . فأجاب ، وهو يهز رأسه : « والله ما أنا عارف .. » !!.

وسألته : « وما الأمر الثانى ؟ » فقال « إن مدير التليفونات يشكو من أن مفتشى التحقيقات فى الوزارة يطرقون باب مكتبه كل أسبوع مرة على الأقل ويحققون معه فى شأن احد (السنترالات) بطريقة تشعر بأنهم يشكون فى هذه العملية ، وأن رشوة دفعت فيها له » . فظهرت على امارات دهشة حقيقية ، لأني سمعت ، يومذاك ، بهذا الأمر لأول مرة ، وقلت له : « انى اسمع عن هذا الأمر ، الآن فقط ، ولا أعرف شيئا عن السنترال الذى تشير اليه . فما الذى يغضبك منى ؟ » . قال : « مدير التليفونات قال انك وراء هذا التحقيق »

فسألته – وأنا أكاد انفجر غيظا من هذا الدس الصغير : « وهل سألته .. وما هو دليلك على هذا » فقال : « أنت حتعملها محكمة ؟ » . قلت : « هذا أفضل من أن تغضب من زملائك بلا مبرر » .

وأمسك جمال سالم بالتليفون وهو يكاد يحطمه ، وطلب مدير التليفونات الذى جاء على عجل ، مرتبكا ، غارقا فى عرقه . وسألته : « هل عرفت متى بدأت الشكوى ضدك ، وممن ؟ » . وتعثر الرجل فى الرد . وبعد سؤالين ، اقر أن هذا التحقيق بدأ قبل أن أتولى أمر المواصلات . فانفجر « جمال سالم – رحمه الله – وانطلق المسكين – وقد كان يشكو شللا فى قدميه – وهو يكاد ينكفىء على وجهه . ذعرا من أن يطارده « جمال سالم » .

ومضيت إلى عملى وفى فمى مرارة ..

وانتقلت إلى وزارة الثقافة والأرشاد القومى ، ومن ورائى هؤلاء الدساسون الصغار . وفى ذات يوم ، تحدث الى تليفونيا السيد عبد اللطيف البغدادى ، وكان – وقتئذ – وزيرا للشئون البلدية والقروية ، ورجانى أن أمر عليه فى الغد – فى ساعة حددها – ومضيت إلى مكتبه فى الميعاد الذى اختاره . وتحدثنا مليا فى الشئون العامةِ ، وكان – كعادته – هادئا وبسيطا . وتناول حديث المنافقين ، وحديث المنتفعين من صلاتهم بالوزارة والمسئولين . فقلت له : « إن بعض الناس قد يكون فى غير حاجة إلى قربيه الوزير ونفوذه ، ولكنه يعز عليه ألا يستعمله » . ثم قال : « إن أحد خصومه قال له أنه تعقبه فى كل خطوة ، مؤملا أن يجد له خطأ تورط فيه ، فلم يجد . » فقلت له : « إن هذا منافق يتقن نفاقه » . فدهش « بغدادى » ، وقال : « كيف ؟ » . قلت : « إن العبرة هنا بآخر معنى فى الكلام ، فإن كان مدحا ، فهو نفاق ، وإن كان نقدا ، فهو شجاعة وصراحة » . وهنا مد « بغدادى » يده إلى مكتبه وأخرج ورقة ، سلمها الى . وما كدت القى عليها النظرة الأولى ، حتى عرفت ماذا تكون ، وماذا يكون فيها . انها ورقة من هذه الورقات التى تكتبها أحدى الجهات التى تعتمد عليها الدولة لجمع المعلومات فى أمور شديدة الحساسية تتصل بأمنها ، وبنشاط كبار العاملين فيها ، وكبار خصومها واعدائها . واحسست فى التو بحسرة تعتصر قلبى ، ومرارة تملأ نفسى ، وحيرة تحيط بى من كل جانب . فلقد كانت « الورقة » صورة من صور ذلك العبث الصارخ الذى يجب أن تترفع عنه أية جماعة انسانية ، و لو كانت من أطفال .

حسبك أن تعلم أنه جاء فى هذه الورقة أننى عينت فى الوزارة التى تتبعنى ، ستة من أقاربى .. نعم ستة دفعة واحدة !!.

وقرأت أسماء هؤلاء الستة ، فاذا بى لا أجد فيهم واحدا أعرفه ، أو سمعت باسمه ولو مرة واحدة .. هكذا بالضبط ستة أقارب لا أعرفهم ، ولم اسمع باسمائهم .. وبالتالى لا يمكن أن يكونوا قابلونى أو قابلتهم . وحمدت الله أنه عندما بدا لأحد لآن يكيد لى - للاجراءات الشديدة التى اتخذتها سدا لمنافذ الفساد - قد أعماه الله ، فجعله يقول ما لا معنى له . ثم قرأت فقرة أخرى عن اثنين من أقاربى درجا على الكتابة فى « مجلة الأذاعة » ، مقابل مكافآت يتقاضونها . ولما كنت اقرأ « مجلة الأذاعة » ، واعرف أن هذين القريبين لا يقرآنها ، فقد كنت واثقا انهما لم يكتبا فيها حرفا ، وبالتالى لم يقبضا منها قرشا . وتساءلت ، وأنا أعبر سطور هذه الورقة فى سرعة .. ما غاية كاتبها .؟ أيعلم أنه يؤلف قصة من خياله السقيم .؟

اذا كان يعلم ذلك فما الضرر الذى سيصيبنى من هذه المحاولة المفضوحة . أكان يظن أن رؤساءه وسادته سيقرأونها ويقتنعون بها دون أن يطلعونى عليها ؟.

هذا هو التفسير الوحيد المعقول لهذا التصرف الذى لا يصدر إلا عن معتوه !!.

ولكن .. بعد أن قلبت الورقة فى يدى اصبحت المشكلة التى تواجهنى كيف اتصرف . هل امزقها امام « البغدادى » ، مع ما فى هذا التصرف من قلة ذوق ؟ وقد يكون « البغدادى » بريئا ولا يد له فى هذا العبث .

ولكن لم البث حتى افقت على كلام من « البغدادى » يقول لى فيه :

« لو أمكن تمر علينا غدا لنأخذ كلمتين ، والأخ محيى الدين ابو العز ، سيقوم بأعمال سكرتارية التحقيق » .

ولم اصدق اذنى : كلمتين ، وتحقيق ، ومحيى الدين ابو العز .. ما هذا الذى يحدث ؟!!.

لقد بذلت جهدا خارقا لكى لا يبدو على ما أحسست به من تقزز .. وقلت له : « سأرد على ما جاء فى هذه الورقة بمذكرة صغيرة » .

وأوصلنى « البغدادى » إلى المصعد .. ومضيت إلى مكتبى وأنا اشفق أن يصدر عنى تصرف غير لائق . هل اقدم استقالتى ؟. إن هذا قد يكون غاية القصد وبلوغ المراد عند اولئك الخصوم الذين لا أعرفهم ، ولا يهمنى أن اعرفهم .. وستكون الاستقالة عندهم هى الاقرار بصحة ما جاء فى تلك الورقة !!.

وماذا فى هذه الورقة ؟! انها أمور ، لو صحت ، فلا تشين حاكما ، فلا هى تمس النزاهة ، ولا الأمانة ، ولا الكفاءة .. وهى اذا قورنت بما أقدم عليه الأقرباء والأشقاء والآباء ، والأصهار ، من صفقات مع الحكومة .. ومقاولات .. ونشاط فى الداخل والخارج يتناول الاستيراد ، والتصدير ، والنقل ، والتعيين بالمئات والألوف ، لعدت من حسنات الأبرار . هل ادع مكتبى وأذهب إلى « عبد الناصر » .. وأوقفه على خطر وخطأ هذا التصرف غير المسئول ، لأن الدستور رسم اجراءات لمثل هذه الخطوة التى قد يظن ان ردى سيحسمها ، اذ سيظهر كل ما فيها ، من بطلان .

وقلت لنفسى : بل سأعرضها على مجلس الوزراء ، وأطلب أن يصدر قرارا بسحب هذه الورقة واعتبارها كأن لم تكن ومحاسبة الذين حرروها وأقدموا عليها .. ولكنى سألت نفسى : « أهذا ممكن ؟ » .

وعدت أقول : لابد أن افعل ذلك ، وليكن ما يكون . وهدأت نفسى .. فقررت ، أولا ، أن اكتب ردا قصيرا وموجزا على كل ما جاء فى الورقة مؤيداً بالاسانيد . وكان أول ما أمرت به تكليف مدير المستخدمين فى الوزراة بأن يقدم لى بيانا بتاريخ تعيين كل من الاشخاص المنسوب الى تعيينهم ومؤهله ومرتبه عند التعيين ، ومرتبه اليوم ، والترقيات التى حصل عليها .. لا فى ديوان الوزارة فحسب ، بل فى الوزارة وفى المصالح التابعة لها . وجاء الرجل ، آخر النهار ، متصبب العرق ، مبهور الأنفاس ، يلتمس اعطاءه مهلة ، لأنه لم يعثر – بعد – على اسم واحد من هؤلاء الستة . وهو بطبيعة الحال لا يستطيع أن يقول للوزير : « أنت تعبث وتضيع وقتنا فيما لا طائل تحته » !.

وارسلت إلى « مجلة الأذاعة » لتعطينا بيانا بما تقاضاه قريباى الكاتبان .. ولا أطيل على القارىء ، فقد جاءت البيانات كلها – كما يقول المحللون فى معامل التحاليل الطبية – سلبية . واستمهلت « البغدادى » يوما ، ثم أرسلت اليه المذكرة .

ثم ذهبت إلى « عبد الناصر » . ولعله — رحمه الله — لم يرنى فى حياته اسوأ مزاجا ، واقرب إلى المصادمة منى فى ذلك اليوم . ولست اريد أن أثقل على القارىء ، اذ حسب القارىء أن انقل اليه الجانب العام من المشكلة . فقد قلت له : « إن اخذ الأمور بهذه الخفة ، لا يدل إلا على أن تقدير الشرف عند الدولة التى ننتمي اليها ، ونعمل معها ، هو تقدير غاية فى الضعف . انكم تحسبون انه من الهين أن تقول لآنسان يحترم نفسه انك عينت .. وهو لم يعين ، أو أن قريبك قبض ثلاثة جنيهات — نعم ثلاثة جنيهات — وهو لم يقبض شيئا .

وجلسنا — بعد هذا الحديث — فترة صامتين واجمين ، لا نقول حرفا .. ولكن « عبد الناصر » ، وبعد طول المجاهدة لنفسه قال : « لم يكن امامى إلا هذا . فانهم يظنون اننى أحمى بعض الوزراء لصلة خاصة بينى وبينهم ، فتركتهم يفعلون ما يشاءون ، وفى هذا خير .. على عكس ما ترى أنت » .

وفهمت أن « عبد الناصر » كان مغلوبا على امره . وفى الأيام التالية قرأت أن ثلاثة من الوزراء ذهبوا إلى مكتب « البغدادى » وقضوا وقتا طويلا فى مناقشة بعض الأمور ، وانه كان مع البغدادى ، محيى الدين ابو العز .. وفهمت وعجبت لهؤلاء الذين قبلوا أن يحقق معهم . وقد بلغ احدهم منصب رئيس الوزراء ، والثانى منصبا لا يقل عنه ، والثالث بقى فى الوزارة حتى كتب له أن يقيم الدنيا ويقعدها بقرار منه ..

الفصل الرابع عشر

عبدالناصر يتحدث عن رفاقه

قال لى جمال عبد الناصر يوما : « أنا هنا (وأشار إلى بيته) أعيش مع (كابوس طويل) لا أدرى متى ينتهى ؟.. لم أكن أعرف ، ولا أتصور ، أنه هكذا ستكون الأمور » .

وصمت طويلا ..

كان ذلك فى خلال أزمة من الأزمات التى لم تكن تنتهى الواحدة منها إلا لتبدأ غيرها ، وتدور كلها حول جذب وشد ، مع واحد من أقرب الناس اليه .

ولقد كانت أول أزمة من هذا القبيل ، هى أزمة الرئيس محمد نجيب .. وقد حدث قبل أن تنفجر هذه الأزمة ، لتصبح ، بعد ذلك ، زلزالا يهدد الثورة من أساسها ، أنى كنت جالسا إلى جوار عبد الناصر فى « نادى السيارات » بعد أن تناولنا العشاء ، على شرف الرئيس السورى شكرى القوتلى . وكان الرئيس محمد نجيب يجلس فى الطرف الأخر من الدائرة التى توزع فيها الضيوف والمضيفون .. فنظر اليه « عبد الناصر » طويلا ثم قال : أننى لم أعد أطيق النظر إلى وجه « مطر » .

ولم أكن أعرف أن المقصود باسم « مطر » هو الرئيس محمد نجيب . فسألت بسذاجة وسلامة نية « .. ومن هو مطر » ؟. فضحك « عبد الناصر » ضحكة خالية من البهجة وقال : « اذن أنت لا تعرف .. أنه نجيب .. وبقدر ما كنت أحبه وأثق فيه .. أصبحت لا أقوى على مجرد النظر اليه » !!.

وفاتنى ليلتها أن اسأل عن سر هذه « التسمية » .

وذات يوم كان الرئيس الأندونيسى « سوكارنو » فى زيارة لمصر ، وكانت له طلبات غير معقولة .. وكانت كلها متصلة « بالمزاج » وقد أضطرت الدولة إلى أجابتها له ، وهى كارهة ، ارضاء « لمزاجه » الذى لا يقبل القيود ولا يستسلم لها ، فقال لى « عبد الناصر » : « لست أدرى لماذا يذكرنى سوكارنو بنجيب .. خفته ومزاجه . وتعلق الناس به ، وبساطته التى تخفى ، فى نفس الوقت ، مكرا شديدا!! » .

وفى يوم أخر ، عين أحد المحامين وزيرا ، فقال له عبد الناصر ، وفى حديثه شيء من المرارة : « الحكم أكثر صعوبة بمراحل من المحاماة .. انه عذاب عظيم » !.

ودعينا لنؤدى اليمين الدستورية فى أعقاب تعديل وزارى . وكان جمال سالم قد خرج من الوزارة فى هذا التعديل ، فلاحظت أن « عبد الناصر » كان يستمع إلى الوزراء وهم يحلفون اليمين — الواحد فى أثر الثانى — وعلى وجهه من آيات الضيق والتبرم مالا تخطئه العين ، مهما كان صاحبها قليل الحظ من الفراسة .. وفى اليوم التالى كنت ازوره فى بيته .. فقلت له :

— لقد كان وجهك بالامس يقطر كآبة وهما .. فماذا كان هناك ؟.

فأجاب على الفور :

— جمال سالم ياسيدى قرفنى .. وسود يومى .. فقد عرضت عليه الدخول فى الوزارة قبل التعديل . وقد كان غاضبا قبله بمدة لأمور كثيرة أخذها .. على أسلوب الحكم .. فحاولت أن أزحزحه عن موقفه ، وأن نقترب بعضنا من بعض ، ولكنه زاد بعدا ، وزاد هجومه على ، ونقده لى عنفا ، ولكنى صبرت ، فلما أوشك التعديل الوزارى على الأتمم ، وعاودت الأتصال به ، إذا هو يرفض مجرد الكلام فى الأشتراك فى الوزارة بعنف حاسم .. فقررت ألا اتجاوز هذه المحاولة على مضض ، وعرف بغدادى ، وحسن إبراهيم ، بأن الوزارة ستعدل . وأن جمال سالم لن يكون من بين أعضائها . فكبر عليهما ذلك ، وراحا يلحان على « جمال سالم » ليعدل عن قراره ، وبعد أن فرغت تماما من اجراء التعديل ، وتحدد يوما لأداء اليمين .. جاءنى « بغدادى » و« حسن » وقالا لى : « جمال سالم قبل الدخول فى الوزارة » .. فقلت لهما : « وأنا أرفض أن يدخلها .. نحن لا نعبث ، لقد رجوته ، وأطلت صبرى عليه .. وقد كان رفضه قائما على أنه يختلف معى فى المبادىء لا فى التطبيق ، فما الذى حدث حتى يرضى عنى وعن اسلوبى .. انى أرجح أنكما ورطتماه ، وإن كان هو من الصراحة بحيث لا يتورط ، ولكنه حسب حساب مودتكما له ، ومشاعركما نحوه . وأنا أخشى أن يحدث لنا أزمة بعد دخوله الوزارة بيومين أو ثلاثة فتكون العاقبة وخيمة » .

« وانصرف بغدادى وحسن إبراهيم آسفين ، وأعلن التعديل وفى اليوم التالى — المحدد لأداء اليمين — جاءنى جمال سالم مكفهرا ، وغاضبا ، وقضى معى ساعتين كانتا أطول ساعتين فى حياتى .. نقول الشىء . ونعيده .. ويثور « جمال » ، وتصدر عنه ألفاظ جارحة فأحتملها

لأنى لا أريد أن يتسع الخرق ، وأن يتجاوز حدوده .

وسرح « عبد الناصر » بعينيه ناظرا إلى الحديقة الصغيرة التى تقع أمام داره ثم قال :

– الواقع أن الذى جعلنى أصبر على عتاب جمال سالم المرير ، أنى أحبه لأنه « راجل » ..

وأشهد أننى سمعت هذه الشهادة من « عبد الناصر » – فى حق جمال سالم – مرارا . ولقد حاولت أن أفهم ما المقصود بكلمة « راجل » . وهل تعنى عند « عبد الناصر » شجاعة جمال سالم .. أم صراحته .. أم بعده عن التظاهر والنفاق ؟.

وهذه كلها كانت من فضائل « جمال سالم » ، رحمه الله ، ولكن ، بعد التأمل فى المناسبات التى كان « عبدا الناصر » يقول فيها هذه العبارة فى حق جمال سالم ، أدركت ، بالضبط ، ما كان يعنيه بلفظ « راجل » .. وهو أنه « لا يمكن أن يخشى تآمره عليه ، أو التفكير فى ايذائه » . فالرجوله هنا ، معناها الحرص على مقتضيات الوفاء .

ولكن رأى « عبد الناصر » فى « صلاح سالم » – شقيق جمال سالم – لم يكن بنفس الجودة . فقد سمعت منه ، فى مناسبات كثيرة تعليقات على تصرفات لصلاح ، لا تنطوى على الرضا ، فهو لم يكن يعتبره (بتاع شغل) أى أنه قادر على التنفيذ ، وتحمل مشقاته .. لأنه « يحب الكلام » ، ويحسنه ، ولا يقوى على العمل .. ولا يطيقه . قال لى « عبد الناصر » ذلك مرة فى مناسبة ظهور أول فرقة فنون شعبية فى مصر والبلاد العربية ، وهى الفرقة التى ولدت فى سنة ١٩٥٧ ، وعرفت باسم (يا ليل يا عين) ، والتى نجحت نجاحا مدويا ، بعد حملة ضارية بل ومسعورة ضدها ، وهى ما تزال فى دور التكوين والأنشاء . فقد قال لى « عبد الناصر » :

– لقد قلت لصلاح أن يتبنى فننا القومى ، وأن ينشىء شيئا مثل هذه الفرقة ، وقد وعدنى صلاح بذلك ولم يفعل شيئا .. فهو (مش بتاع شغل) !!.

وذات يوم مر على يوسف السباعى – وكنا وقتها نضع قانون المجلس الأعلى للفنون والآداب – ولم يكن الرأى قد استقر ، بعد ، على الوزارة التى سوف يتبعها هذا المجلس .. وكان « صلاح سالم » وزيرا للأرشاد القومى .. وكانت المسارح والفنون تتبعه . فى حين كان « كمال الدين حسين » وزيرا للتربية والتعليم .. وكانت المدارس ، والمعاهد ، تتبعه . ثم

انتهى الرأى عند « عبد الناصر » ،اخيرا ، على الحاق المجلس بكمال الدين حسين بحجة (كمال شغال .. وصلاح مش بتاع شغل) !!.

ومضت سنوات . أصبح بعدها « كمال الدين حسين » - بعد جمال سالم - صاحب أكبر نصيب فى الحكم ، تتبعه المدارس بمستوياتها جميعا ،والجامعات والمعاهد كلها ، ومجالس عليا لا حصر لها ولا عد . منها : المجلس الأعلى للفنون .. والمجلس الأعلى للاثار .. والمجلس الأعلى لدار الكتب .. والمجلس الأعلى للجامعات وهكذا وهكذا !! وبالتالى ، بدأت العلاقة تفتر بينه وبين عبد الناصر ، حتى انقطعت . وفى هذه الفترة السابقة على القطيعة التى أدت إلى الخصومة العنيفة ، جلس « عبد الناصر » مع الوزراء بعد تشكيل جديد - لم يشترك فيه « كمال الدين حسين » بطبيعة الحال - يذكر لهم رأى « كمال » فيهم ويقول : « كمال الدين حسين كان يقول أنكم وزراء (غير ثوريين) .. قلت : لابد أن يكون (الوزير الثورى) هو من كان على شاكله أحمد محرم » !.

وضحك عبد الناصر طويلا ثم قال : « والغريب أنى لم أر (أحمد محرم) إلا حسبته (حسن بغدادى) مدير جامعة الأسكندرية . ولكن هذا هو الوزير الثورى فى رأى كمال » .

وقد لا يعرف بعض القراء أن الدكتور « أحمد محرم » كان أحد الوزراء الذين أختارهم « كمال الدين حسين » لوزارة برئاسته . وكان ، قبل الوزارة يعمل استاذا بكلية الهندسة ، وله مكتب خاص يعد من أكبر المكاتب الهندسية فى مصر نجاحا .

أما الدكتور « حسن بغدادى » فقد كان أستاذا بكلية الزراعة جامعة الأسكندرية ، ثم اختير وزيرا للزراعة لبضعة شهور ، ثم عين مديرا لجامعة الأسكندرية لفترة طويلة . ولم أفهم ما الذى كان يضحك « جمال عبد الناصر » فى تشابه « أحمد محرم » و« حسن بغدادى » !!.

ولم تكن العلاقة بين « عبد الناصر وبين زميله « عبد اللطيف البغدادى »حسنة معظم الوقت . وقد أعددت يوما الخطاب السنوى الذى يلقى فى مساء يوم ٢٢ يوليو من كل عام . وقد جرت العادة فى اعداده أن يقوم على أساس من سرد الأحداث الكبرى التى وقعت فى العام المنصرم . ولما كان أنشاء « كورنيش النيل » من أكبر الأحداث التى شهدها العام السابق الذى كنت أعد الخطاب فى ختامه لأستقبال العام الجديد ، فقد ذكرت

« كورنيش النيل » .. ووصفته بأنه « نافذة عريضة تطل منه القاهرة على النيل » .. فأمسك عبد الناصر بالقلم وكاد أن يشطب هذه الجملة . فسألته : « لماذا تود أن تشطب هذا الكلام ؟ » . فقال : « لقد سئم الناس الحديث عن الكورنيش .. بعد أن أسرفت الصحافة فى الكلام عنه ، وفى الحديث عن (عصا البغدادى السحرية) و(مشروعاته) » . فقلت : « هذا سبب أدعى للأبقاء على هذه الجملة ، اذ مادام الناس تكلمت عنه كثيرا ، فهى تنتظر أن تقرأ ، أو تسمع عنه ، فى الخطاب السنوى ولو جملة . فإذا خلا الخطاب من مثل هذه الجملة ، كان التفسير الوحيد لهذا ، هو أنك غير راض عن هذا المشروع أو عن القائم به » .

ولم أرد أن أقول المعنى الذى عنيته بالضبط .. وهو « أن الأضراب عن الأشارة إلى هذا المشروع يمكن أن يفسر بأنه نوع من (الغيرة) منه ، ومن نجاحه ، ومن صاحبه » .. ولكن « عبد الناصر » أدرك هذا المعنى دون أن أقوله . فبقى ممسكا بالقلم فترة ، ثم قال : « وهو كذلك .. لندعها ولو أنى غير مرتاح لها » .

* * *

وبقيت علاقة « عبد الناصر » بحسين الشافعى ، خالية من الشد والجذب .. وقد كان يذكره ، دائما ، على وجه يدل على اعتقاده بطيبته ، وسلامة نيته . فقد أوفده يوما إلى اليمن – أبان ثورة سيف الإسلام (عبد الله) ، على أخيه الإمام أحمد « إمام اليمن » وكان سيف الإسلام « عبد الله » قد نجح فى تطويق قصر أخيه ، وكاد يطبق عليه ، ويخلعه من عرشه . إلى أن تمكن الإمام أحمد من فك الحصار والقبض على أخيه عبد الله وقطع رقبته .

وانفرجت الأزمة ، وعاد « حسين الشافعى » إلى القاهرة .. وأخذ « عبد الناصر » يروى لنا مجريات الأمور فى اليمن وهو يضحك .. ثم ختم هذه الرواية بقوله : « وقد حصلت ، على كل حال ، بركة الإمام الشافعى » .

ولكن .. روى لى الأستاذ عصام الدين حسونة وزير العدل ، فى الفترة اللاحقة لهزيمة سنة ١٩٦٧ ، عن موقف عاصف بين عبد الناصر .. وحسين الشافعى . فقد فتح « عبد الناصر » الحديث فيما جرى فى أعقاب تلك الهزيمة ، ثم فى أحداث يومى ٩ و١٠ من يونيو . وطلب « عبد الناصر » من الوزراء أن يعلل كل منهم اسباب وقائع يومى الخامس

والسادس من يونيه اللذين شهدا وقائع الكارثة ، ثم حوادث يومى ٩ و ١٠ اللذين شهدا مظاهر الألتفاف المفاجىء حول « عبد الناصر » ، وانفجار التأييد الجماعى له ، فى الوقت الذى كانت تدعو فيه كل الأمور إلى الأنفضاض من حوله .. بل وإلى الأنقضاض عليه .. باعتباره الزعيم والرئيس المطلق السلطة الذى تمت الهزيمة على يديه . فقال حسين الشافعى : « إن نسبة كبيرة من دواعى الألتفاف حول (عبد الناصر) والتمسك به كانت وجدانية ، وعاطفية ، ومن وحى اللحظة » ..

فبدت على وجه « عبد الناصر » آيات غضب كاسح لأن هذا التحليل جرحه .. فحاول « حسين الشافعى » أن يترضاه ، بأن وضع يده على كتفه ، فازداد انفعال « عبد الناصر » وأزاح يد « الشافعى » من فوق كتفه ، واتجه اليه ليقول له بعنف : « أنت تقول أن ما حدث كان بسبب إنفعال وقتى لأنك جئت إلى لأرفع الحراسة عن ابن خالتك فرفضت ، فبقيت هذه المسألة تحز فى نفسك إلى الآن » .

* * *

ولقد كان السبب فى توتر العلاقة بين « جمال سالم » والرئيس « عبد الناصر » مخالفا للسبب الذى قام عليه توتر العلاقات بينه وبين « البغدادى » كانت انفجارات طبع جمال سالم ، هى التى تحرج « عبد الناصر » وتزعجه ، وأذكر فى منطقة « الشلوفه » — على قناة السويس — أنى رأيت عبد الناصر ووجهه مربد ، وكأنه يوشك على الموت ، فلما سألته عن السبب ، لم يجب .. وكانت « الشلوفة » معسكرا للأنجليز . وكانت هى أول منطقة يجلو عنها الأحتلال البريطانى تنفيذا لأتفاقية الجلاء . ولذلك ، فقد احتفلت الحكومة المصرية بتسلمها .

ووقتها .. لم يكن « عبد الناصر » قد عرف بأنه « قائد الثورة وزعيمها » — وإن كانت بشائر هذه الحقيقة ، وطلائعها ، قد بدت فى الأفق — ومن هنا كان تجمع الصحفيين حوله ، وتهافت المصورين على تصويره ، وقد حدث أثناء ذلك أن اصطدم أحد المصورين ، وهو يقوم بتصوير « عبد الناصر » ، بجمال سالم ، فهاج هياجه ، وجرى وراء المصور وبيده عصاه . واختفى هذا المسكين وراء مكتب ، ثم تحت أريكة .. و« جمال سالم » يأبى أن يعفيه من العقاب .. والأجانب من الضيوف يشهدون ذلك ..

و« عبد الناصر » يكاد ينفجر ، وبقى على غضبه واكتئابه .. فترة طويلة ، وقد قام أحد أصدقائى من هواة التصوير ، بالتقاط مشاهد ذلك اليوم على فيلم ملون ، أهديته إلى « عبد الناصر » بعدها بأسابيع قليلة ، فلما مددت إليه يدى به ، سأل : « ما هذا ؟ » فقلت : « فيلم الشلوفة » ، فقبض يده قائلا : « لا .. لا أريد أن أذكر هذا اليوم . فقد كدت أن أعود إلى القاهرة تاركا الاحتفال ومن فيه ، وليحدث ما يحدث » ؟ .

ولكننى ما زلت به حتى هدأت نفسه .

أما علاقة « عبد الناصر ببغدادى » فقد كان يشوبها ما عبر عنه « عبد الناصر » فى يوم كنا نراجع فيه خطبة من خطب مناسبة الاحتفال بذكرى ثورة ٢٣ يوليو . فقال : « هل تصدق أن بغدادى كان مقاطعا لى ، وبعيدا عن تنظيمنا إلى ما قبل الثورة بستة أشهر فقط . وأنه كان يقول دائما أنه أسبق فى (الحركة) ، لأنه أسس ، من قبل ، تنظيما سابقا على تنظيم الضباط الأحرار ؟ » .

ويبدو أن هذه (الحكاية) بقيت لدى كليهما « عقدة » مستحكمة ... لا تسمح بتطور طبيعى للعلاقات بينهما .

ولست فى حاجة إلى الحديث عن علاقة عبد الناصر بعبد الحكيم عامر . فقد كانا أخوين متحابين . ولكنى حريص على أن أورد شهادة ذات قيمة من « عبد الناصر » فى « عامر » . فقد اخترت وزيرا للمواصلات ، بعد فترة طويلة كنت فيها وزيرا للدولة بلا اختصاصات محددة ، فقال لى « عبد الناصر » — وهو يفضى إلى بهذا التعديل : « لقد كنت أقول دائما أنه لابد أن يسند إلى فتحى رضوان وزارة محددة .. ليظهر فيها نشاطه محددا . كما يجب أن يدخل « عبد الحكيم » مجلس الوزراء ، ويشهده .. (لأن عبد الحكيم « Bnen » « غ ») !.

محتويات الكتاب

الموضـــوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحة

وزارة التعمير والمجتمعات الجديدة واستصلاح الأراضى
القرية السياحية
« مراقية » بالساحل الشمالى الغربى
« المرحلة الثانية »
• ڤيلات بحدائق خاصة • شاليهات مستقلة
• شقق سياحية
الوحدات المعروضة
٦٠ ڤيلا
فى مواجهة البحر وحمامات السباحة. الڤيلا تتكون من دورين متصلين بسلم داخلى وللڤيلات حدائق خاصة
مسطح الوحدة م٢
• ڤيلات ٢ غرفة نوم + معيشة وطعام + مطبخ + تواليت + حمام وتراس أمامى بكل دور وتراس خلفى ...
١٤٧
• ڤيلات ٣ غرفة نوم + معيشة وطعام + مطبخ + تواليت + تراس بكل دور
١٤٧
٢٨٨ شاليه
دورين منفصلين يتقدم الدور الأول سلم خاص بمزيد من الخصوصية وتتجمع مجموعات الشاليهات حول حديقة خاصة بالإضافة للحدائق العامة للمشروع المزودة بلعب الأطفال
• شاليهات غرفة نوم + معيشة + حمام + مطبخ وتراس يطل على البحر
٦٨
• شاليهات غرفتين نوم + معيشة + حمام + مطبخ وتراس يطل على البحر
٨٥
• شاليهات ٣ غرف نوم + معيشة + حمام + مطبخ وتراس يطل على البحر
١٠٣
٢١٦ شقة
سياحية فى عمارات تحتوى كل عمارة على ١٨ شقة. وكل ثلاث عمارات تمثل مجموعة لها الحديقة الخاصة بساكنيها ومزودة بلعب الأطفال وأماكن مظللة للجلوس
• شقة غرفة نوم + طعام + مطبخ + حمام + تراس
٧٢
• شقة غرفتين نوم + طعام + مطبخ + حمام + دورة + ٢ تراس
٩١
• شقة ٣ غرف نوم + طعام + مطبخ + حمام + دورة + ٢ تراس
١١٦

ونظراً للإقبال الشديد على حجز الوحدات السياحية للمرحلة الأولى بقرية مراقيا السياحية

يسر هيئة المجتمعات العمرانية الجديدة

أن تعلن عن بدء فتح باب الحجز لوحدات المرحلة الثانية بالقرية

أولوية الحجز

١ ـ للحاجزين بالمرحلة الأولى بنظام سداد كامل الثمن ولم يسعدهم الحظ بالحصول على وحدة سياحية وبشرط عدم قيامهم بسحب المبالغ المسددة منهم .

٢ ـ للحاجزين في المرحلة الثانية بنظام سداد كامل الثمن .

٣ ـ للحاجزين بالمرحلة الأولى بنظام التقسيط ولم يسعدهم الحظ بالحصول على وحدة سياحية وبشرط عدم قيامهم بسحب تأمين جدية الحجز السابق سداده ، وبشرط أن تسمح نسبة مقدم الثمن المحددة باستمارات الحجز « في المرحلة الأولى » بإتمام التخصيص .

٤ ـ للحاجزين في المرحلة الثانية بنسبة مقدم ثمن أكبر .

البيانات التفصيلية عن الوحدات والشروط البيعية الأولى

* تم اعداد كتيب بالألوان يتضمن توصيفاً للمشروع في مختلف مراحله وبيان وحداته كما تم اعداد خرائط للمنطقة رقم (٥) وجداول بالمساحات ونسبة تميز الموقع والقيمة البيعية شاملة نسبة التميز .
* يباع الكتيب واستمارة الحجز (أصل وصورة) وكراسة الشروط وجداول المساحات والأسعار نظير مبلغ ١٠ جنيهات « فقط عشرة جنيهات » .

مواعيد ومكان شراء الكتيبات واستمارات الحجز

* البنك الأهلي المصري ـ إدارة أمناء الاستثمار ـ بكافة فروع البنك بجمهورية مصر العربية .
* بنك التعمير والاسكان ٢٦ شارع الكروم بجوار جامع مصطفى محمود ـ الدقي ـ القاهرة
* ادارة العلاقات العامة بهيئة المجتمعات العمرانية الجديدة ١ شارع إسماعيل أباظة القصر العيني ـ القاهرة .
* جهاز الساحل الشمالي الغربي ٥١٣ عمارة برج الكرنك فليمنج ـ الاسكندرية .

وذلك إعتباراً من الأربعاء ١٩٨٥/٦/٢٦ .

مواعيد ومكان تقديم طلبات الحجز

تقدم طلبات الحجز بموجب الاستمارات بعد استيفاء بياناتها مصحوبة بالشيكات المشار اليها أعلاه الى كل من البنك الأهلي المصري وبنك التعمير والاسكان وذلك اعتباراً من يوم الأحد الموافق ١٩٨٥/٧/٧

وفقاً للإعلان السابق نشره بشأن :

حجز الوحدات السياحية بالمرحلة الثانية بالقرية السياحية "مراقية"

توضح هيئة المجتمعات العمرانية الجديدة ما يلي :

١- اعتباراً من يوم ٢٦/٦/١٩٨٥ يتم بيع الكتيبات واستمارات الحجز من الجهات الآتي بيانها :

- البنك الأهلي المصري - إدارة أمناء الاستثمار وكافة فروع البنك بجمهورية مصر العربية
- بنك التعمير والإسكان ٢٦ شارع الكروم بجوار جامع مصطفى محمود - الدقي - القاهرة
- إدارة العلاقات العامة بهيئة المجتمعات العمرانية الجديدة ١ شارع إسماعيل أباظة - القصر العيني - القاهرة
- جهاز الساحل الشمالي الغربي ٥١٣ عمارة برج الكرنك - فلمنج - الإسكندرية

وذلك مقابل مبلغ ١٠ (عشرة جنيهات) للكراسة .

٢- اعتباراً من يوم ٧/٧/١٩٨٥ تقدم طلبات الحجز مستوفاة بياناتها ومرفقاً بها شيك مقبول الدفع أو مصرفي بكامل القيمة أو بقيمة النسبة التي يحددها الحاجز بحد أدنى ٥٠٪ من إجمالي قيمة الوحدة ومضافاً إليها (في الحالتين) مبلغ ٢٠٠ (مائتي جنيه) قيمة أسهم في رأسمال شركة الإدارة ويحرر الشيك باسم - هيئة المجتمعات العمرانية الجديدة .

٣- وقد قررت الهيئة تقديم التيسيرات الإضافية التالية :

- منح خصم قدره ٥٪ (خمسة في المائة) من إجمالي ثمن الوحدة لسداد كامل القيمة دفعة واحدة قبل نهاية ديسمبر ١٩٨٥ التاريخ التقريبي لبدء تسليم الوحدات .
- إتمام التخصيص وقت التقديم بالنسبة لطالبي الحجز بنظام السداد الفوري حيث يختار الحاجز الوحدة التي يرغبها ويتم تخصيصها له في نفس يوم الحجز وتسليمه خطاب التخصيص لاستلام الوحدة بموجبه فور إتمام التشطيب

٤- يتم تقديم طلبات الحجز (واستلام خطابات التخصيص) بالجهات الآتي بيانها فقط .

- بنك التعمير والإسكان ٢٦ شارع الكروم بجوار جامع مصطفى محمود - الدقي - القاهرة وذلك

بالنسبة لراغبي حجز الفيلات والشاليهات

- البنك الأهلي المصري - إدارة أمناء الاستثمار ([illegible])

وذلك بالنسبة لراغبي حجز الشقق السياحية

مع تحيات

هيئة المجتمعات العمرانية الجديدة

□ ثمن النسخة فى الدول العربية

السعودية ١٠ ريالات - الكويت دينار - قطر ١٠ ريالات - البحرين دينار - الامارات ١٠ دراهم - عمان ريال - العراق دينار - سوريا ١٠ ليرات - لبنان ١٠ ليرات - الأردن دينار - اليمن الشمالى ١٠ ريالات - اليمن الجنوبى ٩٠٠ فلس - السودان جنيهان - ليبيا جنيه - تونس ٩٠٠ مليم - المغرب ١٠ دراهم - الجزائر ٤ دينار .

(باقى دول العالم ثلاثة دولارات)

رقم الإيـداع : ٤٢١٩ /٨٥
الترقيم الدولى : ٨ - ٠٦ - ١٣٢٠ - ٩٧٧

العدد القادم من
كتاب الحرية
الطب و الجنس
للأستاذ الدكتور
مدحت عزيز شوقي

عاصر الأستاذ فتحى رضوان فترتى ما قبل ثورة ٢٣ يوليو وما بعدها ، وشارك فى الحياة السياسية خلالهما بصورة فعالة ، إلى حد أنه خرج من المعتقل عقب قيام الثورة ليصبح واحدا من وزرائها .

ولفتحى رضوان اسهاماته - حتى الآن - فى العديد من مجالات الكتابة ، وقد استطاع فى كل ما كتب أن يحقق تميزا وإضافة مؤكدة .

والأستاذ فتحى رضوان هو حاليا رئيس المنظمة العربية لحقوق الإنسان

.. وهذا الكتاب

مع تعدد الكتابات التى تناولت أبعاد شخصية الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ومواقفه السياسية إلا أن هذه الشخصية ما زالت فى حاجة إلى مزيد من الدراسة والتحليل .

فتحى رضوان - فى هذا الكتاب - يناقش الجوانب الإيجابية والسلبية فى شخصية عبد الناصر .

ويتميز كتاب فتحى رضوان بتناوله لشخصية عبد الناصر كمحصلة تعامل مباشر ، فى مدى ٧٢ شهرا ، كان خلالهما واحدا من وزراء حكومة عبد الناصر ... فهما يلتقيان ويتناقشان ويتفقان فى الرأى ويختلفان فيه ، بحيث اتيح للكاتب فى النهاية أن يتعرف - بصورة أكثر صدقا - إلى ملامح شخصية عبد الناصر فى أبعادها المختلفة .

.. وهذه الدار

هى أول دار مستقلة للصحافة والطباعة والنشر فى مصر ، نشأت نتيجة جهد وعرق وإيمان مجموعة من المشتغلين بالفكر والكتابة .

☐ لتكون ساحة للحوار وملتقى للفكر المستنير وللتفاعل بين الآراء والاتجاهات المختلفة فى مصر والوطن العربى .

☐ ولتكون حلقة وصل بين التيارات الوطنية المختلفة والأجيال العاملة فى الحقل العام .

☐ ولتكون إطلالة على الغد تستشرف آفاقه وتبحث مشاكله ، وتسعى إلى فحص حلولها .

وهى من هذا المنطلق تتجاوز معارك الأمس ، وتخوض معارك الغد ، وتعتمد فى ذلك على الجيل الجديد من الشباب ، تتحدث إليه وتعمل من خلاله وبواسطته .

وفى كل ما يصدر عنها فإن « دار الحرية » تلتزم بالموضوعية فى التحليل ، وبالتفكير العلمى ، وباحترام عقل القارىء ، وذلك بهدف دعم الحوار الفكرى وجذب كل الآراء والاتجاهات إلى دائرة الحوار .

الثمن ١٠٠ قرش